سلسلة الكتب المقاصدية (١)

المقاصد التكوينية والمقاصد التكليفية

في الخطاب القرآني

«دراسة في العلاقات والآثار»

تأليف
د. علي مروان

دار الرياحين

المقاصد التكوينية والمقاصد التكليفية

في الخطاب القرآني

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢٢/٢/١٠٠٦)

٢٦٤.٢
مبارك، علي مروان.
المقاصد التكوينية والمقاصد التكليفية في الخطاب القرآني/ علي مروان مبارك.
عمان: دار الرياحين للنشر والتوزيع ٢٠٢٢.
(٤١٤) ص.
ر. إ.: ٢٠٢٢/٢/١٠٠٦.
الواصفات: / المقاصد التكوينية/ / المقاصد التكليفية/ / المقاصد الشرعية/ / أصول الفقه/ .
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الطبعة الأولى: ١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

ردمك: 978-9923-762-94-3

عمان - الأردن
جـــــوال: 00962790474491
darlrayaheen.jo@gmail.com
بيروت - لبنان
هـاتـف وفـاكـس: 009611660162
جـــــوال: 009613602762
dar.alrayaheen@gmail.com

دار الرياحين

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

سلسلة الكتب المقاصدية (١)

المقاصد التكوينية والمقاصد التكليفية

في الخطاب القرآني

«دراسة في العلاقات والآثار»

تأليف

د. علي مروان

التدقيق الإملائي

محمد مروان بن مبارك

دار الرياحين

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

من مشكاة القرآن الكريم

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

[الأعراف: ٥٣].

من مشكاة السنة النبوية

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«المؤمن القوي، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٢).

من أقوال العلماء

المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا.

الشاطبي «الموافقات» (٢/ ٢٨٩)

من الناس من يكون حظه من مشاهدة حكمة الأمر أعظم من مشاهدة حكمة الخلق،. ومنهم من يكون حظه من مشاهدة حكمة الخلق أوفر من حظه من حكمة الأمر، وليس لهم نصيب في حكمة الأمر إلا كما للفقهاء من حكمة الخلق، بل أقل من ذلك، ومنهم من فتح عليه بمشاهدة الخلق والأمر بحسب استعداده وقوته، فرأى الحكمة الباهرة التي بهرت العقول في هذا وهذا.

ابن القيم «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٢٣٥)

المقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، أمر العدم بقوله كن ففاضت عليه نعمة التكوين، وخلق الإنسان فسواه ووهب له التمكين، وكرمه فسخر له ما في السموات وما في الأرضين، وأنزل عليه كتابه المبين، وكلفه بالأمر والنهي ليجازيه يوم الدين، وصلى الله على الرحمة العظمى، والنعمة الكبرى، والسراج الذي لا يطفى، وعلى آله وصحابته وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما.

أما بعد: لقد عاشت الأمة الإسلامية في أسما صور الرقي والازدهار، منذ اتصال الأرض بالسماء، وارتباط أمر التكوين بأمر التكليف، وانبعاث روح الإنسان بروح القرآن، واتساق التصور الإنساني الصحيح لنفسه وللخلق من حوله، مع سلوكه العملي معهما، وعاشت على ذلك الخط المتصاعد الجامع بين التقدم الحضاري الدنيوي، والسمو الأخلاقي الروحي، إلى أن ظهر في غضون القرن الثالث فيما يتعلق بالجانب السلوكي التعبدي، قوم غلبوا جانب الزهد والاعتناء بالروح على الجانب التكويني الدنيوي، فآثروا الزهد والتبتل وترك الأسباب الموصلة إلى النعم الدنيوية، وكلما له علاقة بها من عمل وحكم وسياسة، ومن الجانب العقدي ظهر التنازع في أمر الله التكويني والتكليفي بين من قال إن الله لا دخل له في أفعال الخلق ولا علم له بجزئياتها، وبين من قال إن العبد لا خيار له أمام فعل الله ولا حرية له ولا قدرة على فعل شيء، وما هو إلا كالريشة في مهب الريح، وفي الجانب السياسي؛ خلف خلْف من الحكام غلبوا جانب التكوين على التكليف، فعطلوا كثيرا من الأحكام التكليفية، وأوهموا

الناس بأنهم وسياستهم من أمر الله التكويني الذي لا يملك أحد الخروج عليه، وهنا بدأ الانفصام بين التكوين والتكليف، بين الدنيا والآخرة بين الجسد والروح، وكرس ذلك الاجتياح التتري والحكم بالياسق(١) بدل الأحكام التكليفية، كما كرسته الهوة التي حصلت بين طائفة من المتفقهين والحكام، لما ظنت المتفقهة أن لا سياسة إلا ما نطق به الشرع، «فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجرءوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة، لا تقوم بمصالح العباد، وسدوا على أنفسهم طرقا صحيحة من الطرق يعرف بها المحق من المبطل، وعطلوها مع علمهم وعلم الناس بها أنها أدلة حق، ظنا منهم منافاتها لقواعد الشرع، والذي أوجب لهم ذلك؛ نوع تقصير في معرفة حقيقة الشريعة والتطبيق بين الواقع وبينها، فلما رأى ولاة الأمر ذلك، وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة، فأحدثوا لهم

(١) «الياسق» قال ابن كثير: وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها [جنكزخان] عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ﷺ فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير
تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٣١)
قال أبو زهرة: وما أشبه «الياسق» الذي وضعه جنكيزخان بـ«قانون نابليون» وما جاء بعده من قوانيننا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير. زهرة التفاسير (٤/ ٢٢٣٨)
قلت (مروان) الفرق بينهما أن الفقهاء تصدوا للياسق وحرموا التعامل به، والاحتكام إليه، أما قانون نابليون وما جاء بعده، فقد وجد من يؤصل له بأمر من الحاكم، ويركز فيه ـ لحاجة في نفس الحاكم ـ على جوانب الاتفاق دون جوانب الاختلاف

قوانين سياسية ينتظم بها مصالح العالم، فتولد من تقصير أولئك في الشريعة، وإحداث هؤلاء ما أحدثوه من أوضاع سياستهم، شر طويل وفساد عريض وتفاقم الأمر وتعذر استدراكه»[١].

وفي العصر الحديث ظهرت الحضارة الغربية، ونشرت بعض مبادئها عن طريق الغزو العسكري والثقافي بين المسلمين، فظهر من بني جلدتنا من يسعى إلى الانقلاب على التكليف الإلهي لمواكبة الحضارة، فأمنوا بالله ـ فيما يظهرون ـ خالقا مكونا، ولم يؤمنوا به ربا مكلِّفا.

جاهلين أو متجاهلين أن الشريعة الإسلامية لها طرفان متوازنان متكاملان، ينبني أحدهما على الأخر، ويفهم أحدهما في نطاق الآخر، ألا وهما جانبا التكوين والتكليف، وإنما تسلل الانحراف إلى النفوس البشرية قديما وحديثا بسبب جهل حدود كل من التكوين والتكليف، مع عدم الوعي بالعلاقات القائمة بين الأمرين، فينشأ من ذلك تضخيم أحدهما على الآخر، أو الخلط بينهما، أو الإيمان والإذعان لأحدهما دون الأخر، قال ابن القيم رحمه الله: «مدار العلوم كلها على معرفة الله وأمره وخلقه، وذلك مسلم إلى الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، فهم أعلم الخلق بالله وأمره وخلقه وحكمته في خلقه وأمره»[٢].

وكثير من المجتمعات المسلمة اليوم تعاني من ويلات هذا التفريق فنرى من يؤمن بالله ربا ولا يراه مشرعا ولا حاكما، ومن يزعم أن الكون قد تغير وتطور فغير منطقي أن نسيره بقوانين القرون الوسطى، ومن يستهزئ بمن ربط

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣)

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٣٨٠)

الكوارث أو انقطاع المطر بمعاصي العباد وانحرافهم، الخ فرأيت والحالة هذه أنه من الأهمية بمكان أن أثير هذا الموضوع.

و ليس المقصود من هذا البحث دراسة الحقائق الكونية أو السنن الكونية ولا الحقائق الشرعية التكليفية، فإن كلا الموضوعين أنجزت فيه دراسات وافية، لكن غرضي رصد العلاقات بين التكوين والتكليف، وبيان ما يترتب من إحياء تلك العلاقة بين التكوين والتكليف من الآثار الطيبة، وما يترتب على التفريق بينهما من الآثار الخبيثة، في الكون وفي حياة الأفراد والمجتمعات، وذلك بعد تحديد مفهوم كل واحد منهما، وبيان المصطلحات القرآنية التي يتقاسمها المفهومان.

وهكذا جاء هذا البحث في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، ففي الفصل الأول تعرض البحث لمفهوم التكوين والتكليف، بينما تطرق في الفصل الثاني إلى بيان الفرقان بين المفهومين في المصطلحات القرآنية المشتركة، ليعرج في الفصل الثالث لبيان العلاقات الرابطة بين التكوين والتكليف، وفي الفصل الرابع تناول آثار الوصل والفصل بين الخطابين على الكون والإنسان. وختم البحث بخلاصة جامعة للبحث.

أسباب البحث:

وقد كان وراء اختيار هذا الموضوع دون غيره أسباب متنوعة، منها:

أولًا: أسباب موضوعية:

١ ـ أني لم أجد من خص هذا الموضوع بالبحث والدراسة.

٢ ـ أن ثنائية التكوين والتكليف وردت في تراث الأمة منذ القرن الرابع فينبغي تجديد النظر فيهما وتناولهما بنفس معاصر تطرح من خلالهما قضايا معاصرة.

ثانيًا: أسباب واقعية:

١ ـ استجابة لأسئلة تستفزني عند تلاوتي لكتاب الله، من قبيل لماذا ركز الله مثلا على الوصية بالآباء أكثر من الأبناء عكس الحضارة المادية، ما سر تركيزه على الواجب عكس الحضارة المادية التي تركز على الحق، وغيرها، حقيقة أن الإجابة عن هذه التساؤلات لم تأخذ من البحث كثيرا لكن هي الباعث، بل هناك أسئلة استفزتني لكن لم أجد بحكم اتجاه البحث مكانا لها فيه.

٢ ـ ما لاحظته من انفصام نكد بين خطاب التكوين وخطاب التكليف في واقعنا الاجتماعي.

٣ ـ ما أشاهده في العالم الإسلامي، من الفجور السياسي، والانحلال الخلقي، والفساد الاجتماعي، والاضطراب النفسي والاجتماعي، كل ذلك من آثار الحضارة الغربية التي انقلبت على تكليف الله وشريعته، بل ود أهلها وحاولوا ـ وأنى لهم ذلك ـ أن يغيروا تكوينه في خلقه، وتنكرت للروح وحجبت عنه مصادر تغذيته، ومكنت الجسد من جميع رغباته وشهواته، فتضخم الجسد البهيمي على الروح، فتحولوا إلى بهائم يسيرها أمر التكوين دون أمر التكليف.

٤ ـ إحساسي بأن الأمة اليوم في حاجة إلى التوعية والترشيد لتنسجم مع فطرتها التي كونها الله عليها، ولن يتم لها ذلك إلا بإقامة الوجه لدين الله تبارك وتعالى، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

---

(١) [سورة الروم آية ٢٩]

أهداف البحث:

١. ضبط حدود التكوين والتكليف ونطاق كل من الخطابين.

٢. رصد العلاقات بين الخطابين والمساهمة في رأب الصدع الحاصل جراء التفريق بينهما.

٣. إبراز بعض الآثار السلبية الناتجة عن الفصل بين الخطابين.

٤. بيان الآثار الطيبة المتوخاة من الربط بينهما.

٥. المساهمة في ترشيد الأمة والعودة بها إلى منهاج الله القويم والتمسك بالسنن الشرعية مع مراعاة الحقائق والسنن الكونية.

الدراسات السابقة:

لم أعثر على بحث في هذا الموضوع، لكن جوانب منه بحثت في أبواب متفرقة.

فصفة التكوين مثلا تحدثت عنه كتب العقائد وبخاصة كتب الماتريدية، ويتقاطع هذا البحث في بعض فصوله ومباحثه مع بعض المؤلفات في بعض أبوابها فمن ذلك: الفصل الثاني الذي تناولت فيه بعض المصطلحات القرآنية التي يتنازع المفهومان (التكوين والتكليف) دلالتها، تناول موضوعه الإمام ابن القيم في كتاب (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)[1] لكنه تناوله بشكل مقتضب يقتصر في غالبها على بيان الفارق ومثاله في القرآن،

(١) (ص: ٢٨٠)

ثم إنه اقتصر على اثني عشر مصطلحا فقط، بينما ذكرت خمسة وعشرين مصطلحا، مع بيان بعض ما يستشكل في العصر الراهن.

وتناول موضوع ما سأتحدث عنه في المبحث الثالث من الفصل الثالث، الباحث عبد المجيد بن محمد الوعلان في رسالة: مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض تحت عنوان الآيات الكونية دراسة عقدية (ص: ٢٥٢) وقد تطرق في الفصل الرابع والخامس للآيات الكونية ودلالتها العقدية.

لكن تناولي يخالف تناوله للموضوع، تماما، فقد تناول الآيات الكونية السماوية، كالسماء والشمس وغيرها، ودلالتها على وجود الله والملائكة إلخ، وهكذا تناول الآيات الكونية الأرضية، من أرض وبحار وغيرها ودلالتها على الأحكام العقدية، لكني في المبحث الذي سبق أن أشرت إليه، تناولت الاستدلال بالآيات التكوينية، وهي أعم مما قصده الباحث بالآيات الكونية، على جميع الأحكام التكليفية، ثم إن ما تناولته لا يتتبع الأدلة وما استدل بها عليه بشكل تطبيقي، بل هو دراسة نظرية تبين علاقة الاستدلال بالأدلة التكوينية على الأحكام التكليفية، ومنهج القرآن في ذلك.

أما أبو محمد عبد الكريم بن صالح بن عبد الكريم الحميد فقد تطرق في كتابه (التفكر والاعتبار بآياتِ الكسوف والزلازل والإعصار)[1]، إلى أن الزلازل

(١) التفكر والاعتبار بآياتِ الكسوف والزلازل والإعصار، لأبي محمد عبد الكريم بن صالح بن عبد الكريم الحميد، فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

وغيرها من الكوارث التي يقدرها الله، يقدرها عقوبة لمن خالف أمر الله عز وجل، وورد شبه الذين لا يسندون تلك الآيات لله، وقد تناولت ذلك في المبحث الرابع، لكن تناولي له مخالف كذلك لتناول الشيخ، فقد تناولت من الآيات التكوينية ما هو أعم مما ذكر من الأعصار والزلازل، كما تطرقت إلى العقوبة والمثوبة معا، وإلى الجزاء المعنوي، والمادي، وورد شبه الذين لا يربطون تلك الأحداث بأفعال العبد وعمله فيما كلف به، وإن كانوا لا ينكرون أن ذلك من عند الله لا شبه الذين لا يسندون ذلك إلى الله كما فعل صاحب البحث المذكور.

صعوبات البحث:

لقد استشعرت منذ اللحظات الأولى لاختيار هذا الموضوع، أنه سيل لا أجاريه، وخضم ليست لدي جواريه[1]، وأنه فوق طوقي، وإن قادني إليه شوقي، ولولا بعض أساتذتي الذين استشرتهم فقوموا ما تثنى من عزيمتي، فاقتحمت غماره عالما بأن النحلة التي لا تلسع لا تنفع، وأن الذي لا يشقى لا يرقى، وأن المشقة تجلب التيسير، وأن مع العسر يسرا. وراجيا من الفتاح العليم أن يفتح لي مستغلقاته، ويذلل لي مستوعراته.

صعوبات متعلقة بطبيعة البحث:

١ ـ أول صعوبة واجهتني هي انفتاح البحث وإمكانية تناوله وفق رؤيا متعددة ومختلفة، فيمكن توجيهه إلى جمع الآيات القرآنية وتصنيفها إلى آيات تكوينية

---

(١) الجواري: السفن

وأخرى تكليفية، وبيان العلاقة بينهما، أو جعله بحثا مقاصديا يتناول الأحكام التكليفية ويبين علاقتها بتكوين الإنسان وما يحيط به، كما يمكن دراسة الآيات الكونية، كالشمس والشروق وهبوب الرياح والليل والنهار وغير ذلك مما يحدث في الكون، ورصد علاقة الأحكام التكليفية به مع استنباط الحكم والمقاصد من وراء ذلك، ويمكن حتى دراسة أخبار الفتن وعلاقتها بالتكوين والتكليف.

وهذا ما يجعل التحكم في البحث وتوجيه مباحثه في غاية الصعوبة، لكنني لما شرعت في البحث بدت لي معالمه والمنارات الهادية لجمع شتاته، إذ ارتأيت أن أركز بعد بيان مصطلحات التكوين والتكليف، على رصد أهم العلاقات على المستوى العام، دون التتبع للقضايا الجزئية إلا في سياق التمثيل وتقديم النموذج.

٢ ـ عدم وجود مصادر معينة في الموضوع مما اضطرني إلى التنقيب عن بذور هذا البحث، في بطون كتب متفرقة على مجالات مختلفة، منها كتب التفسير، وكتب العقيدة وكتب الفكر الإسلامي، وكتب الفلسفة، وغيرها. وقلة المصادر مع عدم من خص هذا الموضوع ببحث مستقل؛ بقدر ما كانا عائقا يصعب تجاوزه؛ كانا كذلك باعثا للبحث في هذا الموضوع لعلي أحوز فضيلة السبق، ويكون لمن جاء عقبي فضل الزيادة والإتقان.

منهج البحث:

أولا: لم أقتصر في هذا البحث على منهج واحد معين، بل جمعت بين المنهج الاستقرائي والاستنباطي والتحليلي، والوصفي المقارن، ففي مرحلة جمع مادة هذا البحث تتبعت الآيات والمصطلحات القرآنية، وصنفتها إلى آيات

ومصطلحات ذات دلالة تكوينية، وأخرى ذات دلالة تكليفية، ثم حللت تلك الآيات لاستنباط نوع العلاقة الرابطة بين التكوين والتكليف فيها، كما اعتمدت أثناء تنزيل خطة هذا البحث، الأسلوب الوصفي المقارن، إذ أبين واقع التصور الذي يرى الربط بين التكوين والتكليف، وأنهما معا من أمر الله، وأبرز صفته مقارنا إياه بالتصور الذي لا يرى الوصل بينهما.

ثانيا: اعتمدت رواية ورش عن نافع بالرسم العثماني، وفي عد الآيات اعتمدت العد المدني الأخير.

ثالثا: عزوت الأحاديث الواردة في البحث مبيناً الكتاب والباب والجزء والصفحة ورقم الحديث، فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما؛ اكتفيت بعزوه إليهما، أو إلى أحدهما، وإن لم يكن فيهما أو في أحدهما اجتهدت في عزوه إلى كتب السنة الأخرى، مع ذكر درجة الحديث صحة أو ضعفاً معتمداً على الكتب التي تهتم بذلك.

رابعا: أقتصر في توثيق المصدر أو المحال عليه على ذكر الكتاب ثم الجزء والصفحة ثم المؤلف وأحيانا لا أذكر المؤلف إن كان المصدر معروفا، وبقية المعلومات أوردتها في لائحة المصادر.

خامسا: أذكر في الإحالات اسم الكتب بما اشتهرت به مثل تفسير الرازي، صحيح البخاري وهكذا وأحيانا أذكر اسم الكتاب لسبب. كعدم شهرة الكتاب أو غير ذلك. لكن في جريدة المصادر أذكر الكتاب باسمه، مع جميع المعلومات الأساسية إن توفرت في النسخة التي اعتمدتها.

سادسا: لم أول العناية لعزو الأبيات الشعرية رغم قلتها، وتيسر ذلك،

لقناعتي أن الهدف منها التأثير في النفوس، وليس إقناع العقول، ولهذا فعزوها كعدمه غير مؤثر في تقريب الهدف أو البعد عنه.

لم أترجم للأعلام الواردة في الكتاب مخافة التطويل وتفاديا لتثقيل الهوامش. ولأن في أفكارهم ما يشغلني عن أشخاصهم، وأعوذ بالله أن أكون ممن شغلته النعمة عن المنعم بها.

ذيلت البحث بفهرس لكل من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأبيات الشعرية، إضافة إلى فهرس الموضوعات.

الفصل الأول
دلالات التكوين والتكليف

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: دلالات التكوين.

المبحث الثاني: دلالات التكليف.

تمهيد

المقصد الأساسي وراء عقد هذا الفصل هو كشف المعاني الدلالية لمصطلحي التكوين والتكليف في القرآن الكريم.

ومع ما للدراسة المصطلحية من مزايا منهجية في حصر معاني المصطلح في مختلف سياقات وروده، ومعرفة ضمائمه ومشتقاته، فإني لن أتوسع في ذلك لما يفضي إليه من التطويل الذي يتنافى مع غاية هذا البحث، لكني سأقتصر على ما يخدم هدف هذا البحث.

وسأقسم هذا الفصل إلى مبحثين، أتحدث في الأول منهما عن مصطلح التكوين وأخص الثاني لمصطلح التكليف.

المبحث الأول
دلالات التكوين

المطلب الأول: الدلالات اللغوية للتكوين.

المطلب الثاني: دلالات التكوين في القرآن الكريم.

المطلب الثالث: الدلالات الاصطلاحية للتكوين.

تمهيد

بما أن المصطلح القرآني يستمد جذوره من اللسان العربي ثم تتمدد فروعه وأغصانه فتلقي بظلالها على مختلف المعارف الإسلامية، فاقتضى المنهج التنقيب عن مصطلح التكوين في جميع هذه الحقول المعرفية، ولهذا جاءت مطالب هذا المبحث ثلاثية، متناولة التكوين في اللغة في المطلب الأول، لتعرج في الثاني على بيان أصول هذا المصطلح في القرآن الكريم، وفي المطلب الثالث؛ تعرضت لمصطلح التكوين عند علماء المسلمين.

المطلب الأول

الدلالات اللغوية للتكوين

فعل الكون من الأفعال اللغوية التي تشعبت شبكتها الاشتقاقية لتستوعب حمولات ضخمة من الدلالات، وقد ذكرت المعاجم العربية للفظة «كان» مجموعة من المعاني المنبثقة من أصل واحد[1] دال على الحدث[2]، ذكر ابن فارس أن الكاف والواو والنون أصل يدل على الإخبار عن حدوث شيء، إما في زمان ماض أو زمان راهن. يقولون كان الشيء يكون كونا، إذا وقع وحضر. قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[3]، أي حضر وجاء. ويقولون قد كان الشتاء، أي جاء وحضر. وأما الماضي فقولنا كان زيد أميرا، يريد أن ذلك كان في زمان سالف[4].

وفعل (كان) يجيء دالا على الزمان والحدث وهذا لا يفتقر لخبر كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾[5] ويأتي للدلالة على الزمان فقط،

(١) وقد وأشارابن فارس إلى كلمة من نفس الجذر ورأى احتمال كونها من الكلام الدارج وهو كان بمعنى كفل انظر مقاييس اللغة (٥/ ١٤٨) وانظر تهذيب اللغة لأبي منصور الهروي، (١٠/ ٢٥٠)

(٢) انظر العين للفراهدي (٥/ ٤١٠)

(٣) [البقرة ٢٧٩]

(٤) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ١٤٨)

(٥) [سورة البقرة آية ٢٨١]

وفي هذه الحالة يحتاج إلى الخبر، وهو كثير، ويكون أحيانا زائدا ومنه قول الشاعر:

ما كان أَجملَ عهدَهم وفعالَهم! من لي بعهدٍ في الهناءِ تصَرّما؟

ومن مشتقاته الكون والمكان والتمكن والتمكين والمكانة والممكن والإمكان والكنتي والكائنة والكينونة والكيان والتكون والتكوين وغيرها...

لكن بحثي هذا لن يلتفت إلى هذه الشبكة المتشعبة من المشتقات إنما الذي يعنيه هو التكوين.

التكوين مصدر «كوّن» على وزن فعّل مضعف العين، وكان الأصل أن ياتي المصدر على فعّال بكسر الفاء وبعين مضعفة بعدها ألف[1]، لكن جيء بـ«التفعيل» فعوضت التاء العين، والياء الألف[2] وصيغة التفعيل تدل فيما تدل عليه على التعدية وهو إيقاع الفعل على شيء أو فيه، وتطاوعها صيغة التفعل تقول كوّنه تكوينا فتكون تكونا، وكون الله الكون أوجده وكون الولد صوره[3].

(١) وعلى هذا الأصل قول الله سبحانه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ [النبأ: ٢٨]

(٢) انظر الكتاب لسيبويه (٤/ ٧٩) والأصول في النحو للسراج (٣/ ١١٦) والخصائص لابن جني (٢/ ٢٩٢)

(٣) انظر مصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢/ ٥٤٥).

المطلب الثاني

مصطلح التكوين في القرآن الكريم

بداية؛ لا بد من التنبيه على أني لست بصدد بحث مصطلح التكوين في حد ذاته، بل مفهوم التكوين، لكن تماشيا مع العرف في البحث العلمي، لا مندوحة من إلقاء نظرة خاطفة حول هذا المصطلح في القرآن الكريم، لكونه المصطلح الأساس.

الفرع الأول: مادة (ك و ن) في القرآن الكريم:

لم يرد لفظ التكوين بهذه الصيغة في القرآن الكريم، لكن ورد بصيغ أخرى فعلية واسمية.

وقد وردت مادة (ك و ن) بمختلف مشتقاتها الفعلية والاسمية في القرآن الكريم (١٣٨٨) مرة[١].

ذكر صاحب معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن أن مادة كان وما تصرف منها تستعمل في القرآن الكريم في عدة معان:

الأول: أن تدخل على مبتدأ وخبر فتدل على اتصاف المبتدأ بالخبر في زمن معين ماضيا كان أو مستقبلا.

الثاني: أن تفيد بمعونة السياق اتصاف المبتدأ بالخبر على سبيل الاستمرار، أي في الماضي والحاضر والمستقبل، دون التقيد بزمن معين...

---

(١) معجم وتفسير لغوى لكلمات القرآن (٤/ ١٠٧) لحسن عز الدين أحمد الجمل

الثالث: أن تستعمل في أسلوب الجحود بمعنى الاستبعاد أو الاستنكار أو التنزيه بالنسبة إلى الله تعالى، وذلك إذا كانت منفية وبعدها لام الجحود كما في: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾(١).

الرابع: أن تكون بمعني «صار» كما في: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢) على رأي من يقولون إن كان هنا بمعنى صار.

الخامس: أن تدل على الوجود أو الثبوت، وهي كان التامة التي تكتفي بالفاعل، كما في: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾(٣).

السادس: أن تكون زائدة، يقصد بذكرها تأكيد المعنى أو نحو ذلك، كما في: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾(٤).

ومما يجب التنبيه عليه: أن مادة كان لا تدل على التكوين بمفهومه الاصطلاحي دائما، بل قد وردت في مواطن كثيرة دالة على التكليف لا التكوين مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾(٥) وقوله ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٦)، وغيرها.

---

(١) [سورة البقرة آية ١٤٢]

(٢) [سورة البقرة آية ٣٣]

(٣) [سورة البقرة آية ٢٧٩]

(٤) [سورة مريم آية ٢٨]

(٥) [سورة النساء آية ١٠١]

(٦) [سورة آل عمران آية ١٠٤]

كما وردت هذه المادة في مواطن أخرى مختلَفا في دلالتها، هل هي للتكوين أم للتكليف، من ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1] الآية، وقوله تعالى: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[2] وسيأتي الحديث عن هذه الآيات لا حقا.

والذي يهمنا في ذلك هو مفهوم التكوين وأشد ما يكون هذا المفهوم بارزا وجليا في آيات التكوين.

الفرع الثاني: آيات التكوين:

والمقصود بالآيات التكوينية في هذا الفرع، الآيات القرآنية الثمانية التي وردت فيها عبارة كن فيكون. وهي تتمحور حول قدرة الله عز وجل، وأن جميع الكائنات علويها وسفليها من آثار كلمته التكوينية كن، وكما أن هذه الكلمة تحول العدم وجودا، كما في خلق السماوات والأرض، والساكن متحركا، والميت حيا، فهي دالة على قدرة الله التي لا حد لها ولا نهاية، ولا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء.

والآيات الثمانية وإن كانت تدل على ما سبق إلا أنها جاءت في سياقين:

السياق الأول: قضية خلق نبي الله عيسى، والاستدلال على ذلك بقدرته على خلق ما يشاء، وقت ما يشاء، كيفما يشاء، وهي أربع آيات.

---

(١) [سورة آل عمران آية ١١٠]

(٢) [سورة آل عمران آية ٩٧]

السياق الثاني: قضية البعث، وقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى. مستدلا على ذلك بما هو أشد منه وهو خلق السموات والأرض، وهي كذلك أربع آيات.

والآيات التي تناولت القضية الأولى هي:

الأولى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١).

وإنما قلت إنها تتعلق بخلق عيسى لأنها جاءت ردا على الذين قالوا اتخذ الله ولدا(٢).

الثانية: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٣).

الثالثة: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٤).

الرابعة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٥).

---

(١) [سورة البقرة آية ١١٦]

(٢) انظر تفسير الطبري (٢/ ٥٣٨)

(٣) [سورة آل عمران آية ٤٧]

(٤) [سورة مريم آية ٣٣ ـ ٣٤]

(٥) [سورة آل عمران آية ٥٨]

وبقية الآيات الأربعة تناولت قضية البعث وإحياء الأموات بعد موتها وهي:

الأولى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

الثانية: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

الثالثة: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3].

الرابعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4].

الفرع الثالث: تعليق على الآيات:

الأمر في قوله تعالى كن في هذه الآيات، أمر تكويني لا تكليفي، وقد اختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى: كن فيكون.

---

(١) [سورة الأنعام آية ٧٣]

(٢) [سورة النحل آية ٣٨ ـ ٤٠]

(٣) [سورة يس آية ٨٠ ـ ٨١]

(٤) [سورة غافر آية ٦٨]

فمنهم من قال إنه خاص بالموجودات إذا قضى عليها حكما كإحياء الميت أو إماتة الحي وغير ذلك؛ لأن المعدوم لا يؤمر.

ومنهم من قال: إنه على العموم لأن المعدومات في علم الله كالموجودات فجاز أمرها في حقه عز وجل.

ومنهم من قال إنه لا أمر هنالك ولا قول إنما هي عبارة عن إرادة الله وأنها إذا تعلقت بشيء وأراد تكوينه كان[1].

فالقول في الآية فعلي نظير قول رسول الله: «إنما كان يكفيك أن تقول بيديك هكذا» ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة[2]... الحديث.

وقول القائل:

فأصبحت مثل النسر طارت فراخه | إذا رام تطيارا يقال له: قع[3]

ولا قول هناك، وإنما معناه: إذا رام طيرانا وقع.

وقال أبو السعود: «وليس هناك قولٌ ولا مقولٌ له ولا أمرٌ ولا مأمورٌ حتى يقال إنه يلزم منه أحدُ المُحالين إما خطابُ المعدومِ أو تحصيلُ الحاصل، أو يقال إنما يستدعيه انحصار قوله تعالى كُن وليس يلزم منه انحصارُ أسباب التكوين فيه، كما يفيده قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4] فإن المرادَ بالأمر هو الشأنُ الشاملُ للقول والفعل، ومن

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٥٤٤)

(٢) صحيح مسلم (١/ ٢٨٠)

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٥٤٦)

(٤) [سورة يس آية ٨١]

ضرورة انحصارِه في كلمة كن، انحصارُ أسبابه على الإطلاق فيه، بل إنما هو تمثيلٌ لسهولة تأتّي المقدورات حسب تعلقِ مشيئتِه تعالى بها، وتصويرٌ لسرعة حدوثِها بما هو علم في ذلك من طاعة المأمورِ المطيعِ لأمر الآمر المُطاع، فالمعنى إنما إيجادُنا لشيء عند تعلق مشيئتِنا به أن نوجدَه في أسرع ما يكون، ولما عبر عنه بالأمر الذي هو قولٌ مخصوصٌ وجب أن يُعبّر عن مطلق الإيجادِ بالقول المطلقِ، فتأمل. وفي الآية الكريمة من الفخامة والجزالةِ ما يحار فيه العقول والألباب»[١].

ونسب الفناري هذا القول إلى جمهور المفسرين[٢] بينما رجح الطبراني[٣] وابن تيمية[٤] رحمهما الله وغيرهما القول الثاني.

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥/ ١١٥)

(٢) انظر فصول البدائع في أصول الشرائع (٢/ ١٧)

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٥٤٧) قال: وأولى الأقوال بالصواب في قوله: (وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون)، أن يقال: هو عام في كل ما قضاه الله وبرأه، لأن ظاهر ذلك ظاهر عموم، وغير جائزة إحالة الظاهر إلى الباطن من التأويل بغير برهان لما قد بينا في كتابنا: «كتاب البيان عن أصول الأحكام». وإذ كان ذلك كذلك، فأمر الله جل وعز لشيء إذا أراد تكوينه موجودا بقوله: (كن) في حال إرادته إياه مكونا، لا يتقدم وجود الذي أراد إيجاده وتكوينه، إرادته إياه، ولا أمره بالكون والوجود، ولا يتأخر عنه. فغير جائز أن يكون الشيء مأمورا بالوجود مرادا كذلك إلا وهو موجود، ولا أن يكون موجودا إلا وهو مأمور بالوجود مراد كذلك

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ١٨٤) وقال رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. ذلك الشيء هو معلوم قبل إبداعه وقبل توجيه هذا الخطاب إليه وبذلك كان مقدرا مقضيا فإن الله سبحانه وتعالى يقول ويكتب مما =

وقال صاحب المنار: «إن الأمر بكلمة (كن) هنا هو الأصل فيما يسمونه أمر التكوين، ويقابله أمر التكليف، فالأول متعلق صفة الإرادة، والثاني متعلق صفة الكلام.

وأمر التكليف يخاطب به العاقل فيسمى المكلف، ولا يخاطب به غيره فضلا عن المعدوم، وأمر التكوين يتوجه إلى المعدوم كما يتوجه إلى الموجود؛ إذ المراد به جعله موجودا، وإنما يوجه إليه؛ لأنه معلوم، فالله ــ تعالى ــ يعلم الشيء قبل وجوده، وأنه سيوجد في وقت كذا. فتتعلق إرادته بوجوده على حسب ما في علمه فيوجد»(١).

هذه لمحة عن مادة (ك و ن) في القرآن الكريم لكن ـ وكما أسلفت ـ المفهوم

=

يعلمه ما شاء كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الله ولم يكن شيء معه وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض» وفي سنن أبي داود وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال: ما أكتب؟ قال: ما هو كائن إلى يوم القيامة». إلى أمثال ذلك من النصوص التي تبين أن المخلوق قبل أن يخلق كان معلوما مخبرا عنه مكتوبا فهو شيء باعتبار وجوده العلمي الكلامي الكتابي وإن كانت حقيقته التي هي وجوده العيني ليس ثابتا في الخارج بل هو عدم محض ونفي صرف وهذه المراتب الأربعة المشهورة للموجودات وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في أول سورة أنزلها على نبيه في قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]

(١) تفسير المنار (١/ ٣٦١)

الذي أردنا الحديث عنه في القرآن غير منحصر في هذه المادة بل مفهوم التكوين تؤطره مصطلحات كثيرة منها مادة (خلق، وبدع، وفطر، وقدر، وجعل، وبرأ، وغيرها) مما لا يسع هذا البحث تتبعه، وسنعرج على بعض هذه المصطلحات في الفصل الثاني. على أن مرجع هذه المصطلحات كلها «إلى التكوين فإنه إن تعلق بالحياة سمي إحياء، وبالموت إماتة، وبالصورة تصويرا، وبالرزق ترزيقا، إلى غير ذلك فالكل تكوين، وإنما الخصوص بخصوصية التعلقات»[1].

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية (١/ ٢٥٥)

المطلب الثالث

دلالات التكوين الاصطلاحية

تعرض المتكلمون لمصطلح التكوين، وتميزت الماتريدية منهم بتخصيص هذا المصطلح بالتفريع والتفصيل، إذ اختصوا بإثباته صفة لله عز وجل، ومنها فرعوا جميع الصفات الفعلية، مثل التخليق والإيجاد والإحداث والإبداع والاختراع وغيرها. وهي عندهم صفة أزلية غير محدثة(١). ونسبها ابن تيمية رحمه الله إلى السلف وإلى قدماء الكلابية(٢) والفقهاء(٣).

قال التفتزاني رحمه الله: التكوين هو المعنى المعبر عنه بالفعل والخلق والتخليق والإيجاد والإحداث والاختراع ونحو ذلك، ويفسر بإخراج المعدوم من العدم إلى الوجود صفة لله تعالى لإطباق العقل والنقل على أنه خالق للعالم مكون له(٤).

---

(١) انظر: أصول الدين (ص: ١١٢) لجمال الدين الغزناوي

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٧٩). وأكثر الناس خالفوهم في هذا الأصل، وأثبتوا له تعالى فعلا قائما بذاته، وخلقا غير المخلوق - ويسمى التكوين - وهو الذي يقول به قدماء الكلابية، كما ذكره الثقفي والضبعي وغيرهما من أصحاب أبي بكر محمد بن خزيمة، في العقيدة التي كتبوها وقرؤوها على أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، لما وقع بينهم النزاع في «مسألة القرآن». وهو آخر قولي القاضي أبي يعلى، وجمهور الحنفية، والحنبلية، وأئمة المالكية، والشافعية، وهو الذي ذكره البغوي في «شرح السنة» عن أهل السنة

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٧٦)

(٤) لوامع الأنوار البهية (١/ ٢٥٣)

وقال الكفوي: التكوين: «هو صفة يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة»[1].

وقال الجرجاني: «الكون اسم لما حدث دفعة؛ كانقلاب الماء هواء، فإن الصورة الهوائية كانت ماء بالقوة، فخرجت منها إلى الفعل دفعة، فإذا كان على التدريج فهو الحركة، وقيل الكون حصول الصورة في المادة بعد أن لم تكن حاصلة فيها، وعند أهل التحقيق الكون عبارة عن وجود العالم من حيث هو عالم لا من حيث إنه حق، وإن كان مرادفًا للوجود المطلق العام عند أهل النظر، وهو بمعنى المكون عندهم»[2].

أورد الجرجاني في هذا المقطع ثلاث تعريفات، مصدريين واسمي، فالمصدريان، هما ما حدث دفعة واحدة ويناقضه الحركة، والثاني تصوير شيء من مادة موجودة، ويقابله الخلق، والتعريف الإسمي وهو الثالث: وجود العالم أي أن الكون هو المكوَّن نفسه.

وعرفه ابن تيمية بقوله: «خطاب التكوين الذي لا يطلب به سبحانه فعلا من المخاطَب بل هو الذي يُكوِّن المخاطَب به ويخلقه بدون فعل من المخاطَب أو قدرة أو إرادة أو وجود له»[3].

ويذكر التكوين عند المفسرين وعند الأصوليين كذلك في مقابل التشريع

(١) الكليات (ص: ٢٥٦)

(٢) التعريفات (ص ١٨٨)

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ١٨٢)

أو التكليف، ويعنون به كل ما قدره الله وخلقه ولم يجعل لأحد القدرة على إيجاده أو منعه ولم يكلف أحدا به.

وأكثر ورود هذا المصطلح في كتب الأصوليين، عند حديثهم عن معاني الأمر وما يراد له فيذكرون منها التكوين كقوله ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[1].

وذكر الشاطبي - حسب ما فهمه دراز من عبارته - أن من عرف الأصوليين أن يطلقوا مصطلح إرادة التكوين ويعنون بها إرادة التكليف[2]. ولم أقف فيما رجعت إليه من كتب الأصول على هذا العرف.

ومما سبق نخلص إلى أن التكوين يقصد به كل ما هو فعل لله في الأشياء والظواهر والأحداث المادية والطبيعية والمعنوية، كخلقه وتصويره، وإحياءه وإماتته، وتوفيقه وخذلانه، وهدايته وإضلاله، وعقابه وإثابته، مما ليس للعباد فيه خيار، وسواء تعلق هذا الفعل بالإنسان أو بغيره.

وأنبه هنا؛ أنني أطلق مصطلح التكوين - وكذلك مصطلح التكليف - على أمر الله المجرد، وعلى الأمر الواقع المكوَّن، فأمر الله مثلا للدنيا بأن تكون تكوين، والدنيا في حد ذاتها تكوين، وكذلك تقدير الله لهداية المهتدين تكوين، والهداية نفسها تكوين، وكذلك أمر الله بالصلاة تكليف، والصلاة نفسها تكليف.

❋ ❋ ❋

---

(١) [سورة البقرة آية ٦٤] و[سورة الأعراف آية ١٦٦]

(٢) انظر الموافقات (٣/ ٣٧٣)

المبحث الثاني
دلالات التكليف

المطلب الأول: دلالات التكليف اللغوية.

المطلب الثاني: مصطلح التكليف في القرآن الكريم.

المطلب الثالث: دلالات التكليف الاصطلاحية.

المبحث الثاني

دلالات التكليف

مصطلح التكليف مصطلح أصولي بامتياز وسأحاول في هذا المبحث التعرض لبعض دلالاته اللغوية ودلالته في القرآن الكريم ثم دلالته في الاصطلاح، وذلك في ثلاثة مطالب.

المطلب الأول

الدلالات اللغوية للتكليف

تبين لي من خلال تتبعي لجذر هذه الكلمة في المعاجم العربية أن مدارها على أصل واحد هو الولوع بالشيء ولزومه.

فيقال كلف بفلانة يكلف بها كلفا، إذا لزم حبها[(١)].

ويقال: كَلِفَ وجهه يكلفُ إذا لزمته كدرة فغيرت بشرته[(٢)].

ويقال فلان متكلف، إذا ألزم نفسه ما لم يلزمها، ومنه قوله تعالى ﴿وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[(٣)] والمتكلف للشيء الملزم به على مشقة ومثله المكلف[(٤)].

كلفه بأمر أي ألزمه إياه[(٥)].

---

(١) القاموس المحيط (مادة كلف)

(٢) ذهب الكفوي إلى أن الكلف في الوجه هو أصل كلف وقال: في الكليات (ص: ٢٩٩) التكليف: مصدر (كلفت الرجل) إذا ألزمته ما يشق عليه، مأخوذ من الكلف الذي يكون في الوجه، وهو نوع مرض يسود به الوجه؛ وإنما سمي الأمر تكليفا لأنه يؤثر في المأمور تغيير الوجه إلى العبوسة، وهو الانقباض لكراهة المشقة

(٣) [سورة ص آية ٨٤]

(٤) العين (٥/ ٣٧٢) والفروق اللغوية للعسكري (ص: ٢١٦) وجمهرة اللغة (٢/ ٩٦٩) مقاييس اللغة (٥/ ١٣٦)

(٥) مختار الصحاح (ص: ٢٧٢)

وخلاصة معاني التكليف الفرعية: الحب والتعلق، والتحمل والتجشم، كما يطلق على سواد خفيف يعلو جلد الإنسان أو الإبل، وعلى تعرض المرء لما لا يعنيه، والمشقة والعسرة[1].

❁ ❁ ❁

(١) المحكم والمحيط الأعظم (٧/ ٣٦) والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢/ ٥٣٧)

المطلب الثاني

مصطلح التكليف في القرآن الكريم

لم ترد كلمة التكليف بهذه الصيغة في كتاب الله، لكن ورد ما يشتق منها على الصيغ الآتية: (نُكَلِّفُ) ثلاث مرات و(تُكَلَّفُ) مرتين و(يُكَلِّفُ) مرتين و(المتكلفين) مرة وبهذا يتم ورودها في القرآن ثماني مرات، وسأورد هذه الآيات ثم أعلق عليها بعد ذلك.

الفرع الأول: الآيات المتضمنة لمصطلح التكليف:

وهذه الآيات الثمانية هي:

قوله عز وجل: ﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(٣).

---

(١) [سورة الأنعام آية ١٥٣]

(٢) [سورة الأعراف آية ٤١]

(٣) [سورة المؤمنون آية ٦٣]

وقوله عز وجل: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً اِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اَكْتَسَبَتْ﴾[1].

وقوله عز من قائل: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتِيهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً اِلاَّ مَآ ءَاتِيهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾[2].

وقوله جل شأنه: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ اِلاَّ وُسْعَهَا﴾[3].

وقوله سبحانه: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُومِنِينَ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[5].

الفرع الثاني: تعليق على الآيات:

أول شيء يلاحظ أن هذه الآيات جاءت بعدد آيات التكوين التي سبقت في المبحث السابق[6].

ثانيا: من الطريف القول: إن جميع الآيات التي وردت فيها كلمة التكليف،

---

(١) [سورة البقرة آية ٢٨٥]

(٢) [سورة الطلاق آية ٧]

(٣) [سورة البقرة آية ٢٣١]

(٤) [سورة النساء آية ٨٣]

(٥) [سورة ص آية ٨٤]

(٦) انظر الصفحات (٣٦، ٣٧، ٣٨) من هذا الكتاب

كلها وردت في سياق التخفيف والتيسير ورفع المشقة، عكس ما توحي به كلمة التكليف، وهذا في الآيات الست الأوائل واضح، فقد أخبرنا الله فيها بأن الإنسان لا يكلفه الله إلا ما في قدرته ووسعه، وذلك تخفيف وتيسير من الله عز وجل ورفع للكلفة والمشقة على العبد.

ولعل الآيتين الأخيرتين، لم يتجل فيهما التيسير ورفع المشقة تَجليه في الست الأوائل، ولذا أخصهما ببيان.

فمحل التخفيف والتيسير في (آية ٨٣ من سورة النساء): أن الله خفف عن نبيه بإخباره أنه غير مسؤول عن إعراض من أعرض عن الجهاد، وإنما واجبه الدعوة وتحريض المؤمنين، وليس عليه ما وراء ذلك.

وأما الآية (٨٤ من سورة ص) فذكر المفسرون له تأويلات كلها تندرج فيما ذكرنا، منها ما ذكره الرازي: «وما أنا من المتكلفين، والمفسرون ذكروا فيه وجوها، والذي يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذي أدعوكم إليه دين ليس يحتاج في معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته،... فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة التي أدعو الخلق إليها، بل كل عقل سليم وطبع مستقيم، فإنه يشهد بصحتها وجلالتها، وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله: إن هو إلا ذكر للعالمين»[١].

وقال ابن العربي: «المعنى ما ألزم نفسي ما لا يلزمني، ولا ألزمكم ما لا يلزمكم، وما جئتكم باختياري دون أن أرسلت إليكم»[٢].

---

(١) تفسير الرازي (٢٦/ ٤١٦)

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٤/ ٧٤)

ثالثا: التكليف في الآيات كلها جاء منفيا[1]، نعم، جاء بعده ما يبطل النفي، لكنه يبطل كذلك ما يراه بعض الناس داخلا في ماهية التكليف أو لازما لـه[2] أو شرطا فيه وأعني بذلك المشقة.

قال ابن القيم: «والله سبحانه إنما سمى أوامره ونواهيه: وصية، وعهدا، وموعظة، ورحمة ولم يطلق عليها اسم التكليف إلا في جانب النفي كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3].

ووقوع الوسع بعد الاستثناء من التكليف لا يوجب وقوع الاسم عليه مطلقا»[4].

وكأن ابن القيم يرمي إلى نفي وجود الكلفة والمشقة فيما طلبه الشرع من العبد، وقد سبقه إلى ذلك شيخه رحمهما الله جميعا، إلا أنه لم ينف ذلك مطلقا بل أثبت نوعا من التكليف في بعض الشريعة.

قال رحمه الله: «وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي، كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾[5] ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾[6] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَآ ءَاتَيٰهَا﴾[7] أي: وإن وقع في الأمر تكليف، فلا يكلف إلا قدر

---

(١) انظر: قاعدة جامعة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة (ص: ٣٧)

(٢) قال ابن العربي في أحكام القرآن: وَقَدْ غَلِطَ عُلَمَاؤُنَا فَقَالُوا: إِنَّهُ فِعْلُ مَا فِيهِ مَشَقَّةٌ، وَكُلُّ إِلْزَامٍ مَشَقَّةٌ، فَلَا مَعْنَى لِاشْتِرَاطِ الْمَشَقَّةِ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مَشَقَّةٌ

(٣) [سورة البقرة آية ٢٨٥]

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ١٥٧)

(٥) [سورة البقرة آية ٢٨٥]

(٦) [سورة النساء آية ٨٣]

(٧) [سورة الطلاق آية ٧]

الوسع، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفًا، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب؛ ولذات الأرواح وكمال النعيم، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه، وذكره وتوجه الوجه إليه، فهو الإله الحق الذى تطمئن إليه القلوب، ولا يقوم غيره مقامه، في ذلك أبدًا. قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾»(١).

لكن جمهور العلماء من السلف والخلف كانوا ولا يزالون يطلقون اسم التكليف على أوامر الشرع ونواهيه، ويرون أنه لا يخلو من كلفة ومشقة باعتبار أنه يخرج العبد من إرادته وهواه إلى ما يريده الشرع منه، مع الإقرار بأن مراد الشرع فيه الصلاح والرحمة وراحة القلب وسلامة البدن، وأن الخروج من ظلال الشريعة، هو خروج إلى الفساد والعنت، والشر المشقة التي ليس وراءها مشقة، ويحسن أن أسوق هنا كلاما نفيسا للفقيه الموسوعي أبي الوفاء، علي بن عقيل البغدادي الظفري، (المتوفى: ٥١٣هـ) قال رحمه الله: «فإن قيل: ليس ينضبط الحد بما ذكرتم، فإن إفطار العيد من أيام التشريق، والطيب، والاغتسال، وأخذ الزينة من اللباس للجمع والأعياد، وإزالة الأنجاس، هذه كلها من جملة تكاليف الشرع، وهي مساعدة للطبع، وملائمة للنفس، فلا تكلفة فيها، فبطل أن يكون تكليف الشرع مأخوذا من الكلفة والمشقة.

قيل: لا يخرج؛ لأن كل من أخرج الأمر والنهي عن مشيئته المطلقة إلى دخول تحت رسم، فإنه تكليف، حتى إنه يحسن أن يقول العربي: كنت بنية الصوم، فكلفني صديقي الإفطار، وكنت على شعث السفر فكلفني دخول الحمام. فإلزام الرسم تكليف وإن وافق الطبع»(٢).

---

(١) [سورة مريم آية ٦٥]

(٢) الواضح في أصول الفقه (١/ ٦٩ - ٧٠)

المطلب الثالث

الدلالات الاصطلاحية للتكليف

ذكر الأصوليون لمصطلح التكليف تعاريف مختلفة أوردها في مجموعات أربع:

المجموعة الأولى: (إلزام ما فيه مشقة)[١] (إلزام ما يشق)[٢] (إلزام ما فيه كلفة)[٣] (إِلْزَام الله عز وَجل العَبْد مَا على العَبْد فِيهِ كلفة)[٤] (الحمل على ما في فعله مشقة)[٥].

المجموعة الثانية: إلزام مقتضى خطاب الشرع[٦].

المجموعة الثالثة: (طلب ما فيه مشقة) (طلب ما فيه كلفة)[٧] (الأمر بما فيه كلفة والنهي عما في الامتناع عنه كلفة، وإن جمعتهما قلت الدعاء إلى ما فيه كلفة)[٨].

---

(١) شرح مختصر الروضة (٢/ ٤٦) الطوفي

(٢) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص: ٦٢)

(٣) الكليات (ص: ٢٩٩) نسب التعريف إلى إمام الحرمين

(٤) التلخيص في أصول الفقه (١/ ١٣٤)

(٥) المستصفى (ص: ٦٠)

(٦) شرح مختصر الروضة (١/ ١٧٦) والتحبير شرح التحرير (٣/ ١١٣٠) ومختصر التحرير شرح الكوكب المنير (١/ ٤٨٣)

(٧) المستصفى (ص: ٦٠)

(٨) البرهان في أصول الفقه (١/ ١٤) نسبها إلى القاضي أبي بكر

المجموعة الرابعة: (الخطاب بأمر أو نهي)[1] (توجيه الخطاب إلى المخاطب)[2].

وهذه التعاريف رغم ما يلوح في مجموعها من اشتراك، فإن عناصر التباين بينها ظاهرة، ومنشأ هذا التباين اختلافهم في الندب والكراهة، هل يشملهما التكليف، فمن لا يرى دخولهما عبر بالإلزام أو الحمل، ومن يرى دخولهما عبر بالطلب أو الأمر، وأما الإباحة فلا تدخل على كل حال إلا بنوع من المسامحة والتوسع، أو التأويل كقولهم يدخل على اعتبار التكليف باعتقاده مباحا، ولا يخفى ما فيه من تكلف.

والعامل الثاني الذي كان وراء تباين هذه التعاريف، اختلافهم في التكليف هل يتضمن مفهومه المشقة، فيلزم في كل تكليف شرعي، فمن رأى أن المشقة لازمة لكل تكليف عرفه بإلزام ما فيه مشقة، أو كلفة[3].

ومن رأى خلو الأوامر والنواهي الشرعية أو بعضها من المشقة، أزاح عبارة المشقة أو ما يرادفها من التعريف وقد سبق الحديث عن هذه الجزئية قريبا.

ولهذا قسمتها إلى أربع مجموعات.

المجموعة الأولى: هذه المجموعة ترى أن الندب والكراهة لا يدخلان

---

(١) رح مختصر الروضة (١/ ١٧٦)

(٢) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص: ٦٢)

(٣) التعبير بالكلفة يؤدي إلى الدور لأنه من مشتقات المحدود

في ماهية التكليف، وأن المشقة لازمة للتكليف لذا جاء تعبيرها بالإلزام أو الحمل في صدر التعريف، وبالمشقة أو الكلفة في عجزها.

المجموعة الثانية: وفيه تعريف واحد منقول من كتب الحنابلة[١] وبالرغم من أنهم عبروا بالإلزام إلا أنهم يرون دخول الندب والكراهة، بل والإباحة أيضا، لأنها ـ حسب تعليلهم ـ من مقتضيات الخطاب المذكور[٢].

المجموعة الثالثة: وهذه المجموعة لما رأت دخول الندب والكراهة، وأنهما لا يخلوان من مشقة لطلب الشارع لهما وحرمان تاركهما من الثواب؛ عبرت بالطلب الذي يشمل طلب الفعل وطلب الترك بالجزم فيهما أو بدونه، أو الأمر جازما كان أو غير جازم، كما عبرت بالمشقة أو الكلفة كذلك.

ويلاحظ في التعريف الثالث من هذه المجموعة:

أ ـ أنه عبر بالأمر والنهي، وفي ذلك إسهاب ولو اقتصر على الأمر لأغنى لكون الأمر عند الإطلاق يشمل النهي كذلك، قال ابن تيمية: «لفظ «الأمر» إذا أطلق تناول النهي ومنه قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[٣] أي أصحاب الأمر، ومن كان صاحب الأمر كان صاحب النهي،

(١) الحنابلة يذكرون التعريف الأول أي إلزام ما فيه مشقة على أنه تعريف لغوي، انظر المصادر المذكورة في الهامش الموالي

(٢) انظر: شرح مختصر الروضة (١/ ١٧٩) والتحبير شرح التحرير (٣/ ١١٣٠) ومختصر التحرير شرح الكوكب المنير (١/ ٤٨٣) والمدخل إلى مذهب الإمام أحمد لابن بدران (ص: ١٤٥) ومعالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة (ص: ٣٠٨)

(٣) [سورة النساء آية ٥٨]

ووجبت طاعته في هذا وهذا، فالنهي داخل في الأمر، وقال موسى للخضر: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِراً وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ۝٦٨ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾[1] وهذا نهي له عن السؤال حتى يحدث له منه ذكرا»[2].

ب ـ لما رام الاختصار عبر بالدعاء، وقد يرِد عليه أن الدعاء تكون من المكلف (بفتح اللام)، لا من المكلف (بكسرها)، عكس الأمر والنهي.

المجموعة الرابعة: وفيها تعريفان يتضمنان بلا شك، الندب والكراهة دون الإباحة وهو يلائم من لا يرى المشقة لازمة للتكليف، والعجب أن الحنابلة ـ وهذا من تعاريفهم ـ يطعنون فيه، لكونه لا يتضمن الإباحة، ويعوضونه بالتعريف الخامس مع أنه مصدَّر بكلمة الإلزام وهي عندي أولى بأن تنفي الإباحة من كلمة الأمر.

وهذان التعريفان الأخيران أوجه عندي فكلاهما يرضي من يدخل الندب والكراهة، بل والإباحة بأقل تكلف، كما أنه لم يجعل المشقة شرطا ولا لازما للتكليف، والأول منهما أوجه.

❁ ❁ ❁

---

(١) [سورة الكهف آية ٦٨ ـ ٦٩]

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧٥)

الفصل الثاني
الفرقان بين مفاهيم التكوين والتكليف في القرآن

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أفعال الله المتعلقة بإرادته وأمره وإذنه.

المبحث الثاني: أفعال الله المتعلقة بقضائه وهدايته وغيرهما.

المبحث الثالث: مصطلحات متعلقة بأفعال المخلوقات.

تمهيد

وردت في القرآن الكريم مصطلحات مشتركة بين مفاهيم التكوين ومفاهيم التكليف، وقد كانت سببا لزلة كثير من الأقدام، بل إن عدم التفريق بينها أدى إلى ظهور بعض الفرق الضالة في التاريخ الإسلامي، لا تزال الأمة تعاني من بعض رواسبها. كالخوارج والقدرية والجبرية، ولم أر من جمع تلك المصطلحات وزايل بين مفاهيمها لهذا ارتأيت جمع تلك المصطلحات في القرآن بما يتناسب مع حجم المبحث وهدفه.

المبحث الأول
أفعال الله المتعلقة بإرادته وأمره وإذنه

وتحته مطالب:

المطلب الأول: الإرادة التكوينية والإرادة التكليفية.

المطلب الثاني: الأمر التكويني والأمر التكليفي.

المطلب الثالث: الإذن التكويني والإذن التكليفي.

المطلب الأول

الإرادة التكوينية والإرادة التكليفية

الفرع الأول: الإرادة في اللغة والاصطلاح:

الإرادة في اللغة: أصلها من: راودته على كذا. فهي واوية قلب واوها ألفا على قول، ولهذا يقال كذلك راوده على كذا مراودة ورِوادا بكسر الراء، أي أراده. والإرادة المشيئة، وضد الكراهة[(١)].

الإرادة في الاصطلاح: عرفت الإرادة بأنها: قوة يقصد بها الشيء دون الشيء[(٢)]، وقيل: الإرادة: صفة توجب للحي حالا يقع منه الفعل على وجه دون وجه[(٣)]، وقيل الإرادة: عبارة عن معنى يوجب تخصيص الحادث بزمان دون زمان[(٤)]، وقيل غير ذلك[(٥)].

الفرع الثاني: الإرادة بين أهل السنة والمعتزلة:

ورد مصطلح الإرادة في القرآن الكريم في مواطن عديدة صفة للإنسان،

---

(١) انظر شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (٤/ ٢٦٨٥) مقاييس اللغة (٢/ ٤٥٨) ومختار الصحاح (ص: ١٣١)

(٢) مفاتيح العلوم (ص: ١٦١)

(٣) التعريفات (ص: ١٦)

(٤) المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين، للآمدي (١٢٠)

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف (ص٤٥) وجامع العلوم في اصطلاحات الفنون» (٥٣/١)

كما ورد صفة للشيطان، ونسب للجماد على سبيل المجاز، وهذا كله خارج عن موضوع المطلب.

ووردت الإرادة كذلك مرات كثيرة صفة لله عز وجل، وهي موضع نظرنا في هذا البحث، وقد تطرقت كتب الأصلين والتفسير لنزاع تاريخي قديم بين المعتزلة وأهل السنة، يطول تتبع تشعباته، غير أن من تأمل وفحص النقاش الدائر بين الفريقين، يلاحظ أن المعتزلة ـ وإن جعلوا منطلق نقاشاتهم الإرادة التكليفية فقرروا أن الإرادة تستلزم الأمر وتقتضي الحب والرضا، ولا تستلزم وقوع المراد، فهم أيضا يتحدثون في سياق مناقشاتهم عن نوع آخر من الإرادة إذ قسموا الإرادة إلى «إرادة قسر وإلجاء، وإرادة تفويض وتخيير، وتخلف المراد عن الإرادة الأولى لا يجوز عندهم لأنه عجز، وتخلفه عن الثانية جائز ليس بعجز، والمتعلق بطاعة الفاسق وإيمان الكافر هي الإرادة التفويضية دون القسرية، ومثلوا للإرادة التفويضية أن تقول لعبدك أريد منك كذا ولا أجبرك أي أنت مختار في الفعل والترك»[1].

وإذا كانت المعتزلة تنطلق في تنظيرها لمسألة الإرادة من الإرادة التكليفية ـ كما سبق ـ فإن الأشاعرة وجماهير أهل السنة ينطلقون في تنظيرهم لها من الإرادة التكوينية، ولهذا يقررون أنها لا تستلزم الأمر ولا الرضا ولا المحبة[2]،

---

(١) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (٢/ ٢١٨) وانظر المغني (٢/ ١٩٧ و٢١٨ و٢٥٧ و٢٦١)

(٢) انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد (١/ ٢٢٣) وأعلام النبوة للماوردي (ص٣١) والمستصفى (ص٦١)

وأنها تستلزم وقوع المراد[1]، لكن متأخريهم يقسمون الإرادة إلى إرادة تكوين وإرادة تكليف، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله:

«الإرادة جاءت في الشريعة على معنيين:

أحدهما: الإرادة الخلقية القدرية المتعلقة بكل مراد؛ فما أراد الله كونه كان، وما أراد أن لا يكون فلا سبيل إلى كونه...

والثاني: الإرادة الأمرية المتعلقة بطلب إيقاع المأمور به وعدم إيقاع المنهي عنه...

فالله عز وجل أمر العباد بما أمرهم به؛ فتعلقت إرادته بالمعنى الثاني[2] بالأمر؛ إذ الأمر يستلزمها لأن حقيقته إلزام المكلف الفعل أو الترك؛ فلا بد أن يكون ذلك الإلزام مرادا، وإلا لم يكن إلزاما ولا تصور له معنى مفهوم... وحاصل الإرادة الأمرية أنها إرادة التشريع، ولا بد من إثباتها بإطلاق، والإرادة القدرية هي إرادة التكوين»[3].

وما سماه الشاطبي إرادة التكوين والإرادة الخلقية القدرية؛ قريبة من حيث المفهوم من إرادة القسر والإلجاء عند المعتزلة، وهما معا بينا أنها لابد كائنة.

---

(١) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) (٨/ ١٤٨)

(٢) يريد بالمعنى الثاني الإرادة التكليفية التي سماها الإرادة الأمرية. وهو بهذا يريد الفصل في الخلاف القائم بين المعتزلة والأشاعرة، إذ يرى المعتزلة التسوية بين الإرادة والأمر فكلاهما يقتضي الآخر ويستلزمه، ويرى الأشاعرة أن الإرادة غير الأمر. فبين أن الحق في التفصيل الذي ذكر. وقد سبقه إلى هذا التفصيل ابن تيمية وغيره، بل هو كما أسلفت قول منقول عن المعتزلة

(٣) الموافقات (٣/ ٣٧٠)

غير أن أهل السنة يرون أنها صفة أزلية لله عز وجل، بينما يرى المعتزلة أنها صفة حادثة[1]، كما أنهم يختلفون في بعض تفريعاتهما.

وما سماه الإرادة الأمرية والشرعية والتكليفية هي نفسها التي سماها المعتزلة الإرادة التفويضية والتخييرية، وهي مرتبطة عند الفريقين بالأمر[2]، ومتعلقة بأفعال العبد، فتبين مما سبق أن الإرادة قسمان:

الإرادة التكوينية العامة.

الإرادة التكليفية الخاصة.

الفرع الثالث: الإرادة التكوينية:

تعريف الإرادة التكوينية: قال الجرجاني: «هي ما لا يتعلق دائما إلا بالمعدوم، فإنها صفة تخصص أمرا لحصوله ووجوده»[3]، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4].

تعريف ابن تيمية بقوله: «الإرادة الكونية وهي الإرادة المستلزِمة لوقوع المراد التي يقال فيها: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[5].

(١) انظر المغني (٦/ ٣) وشرح الأصول الخمسة (٤٤٠) والعقيدة النظامية (٣٥) آراء المعتزلة الأصولية، دراسة وتقويما (٢١١)

(٢) انظر زيادة على ما سبق؛ المغني ٦/ ٢٢٣

(٣) التعريفات (ص: ١٦)

(٤) [سورة يس آية ٨١]

(٥) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٨٨)

وعرفها أيضا بقوله: «الإرادة الكونية هي: مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكونية»[1].

وقد ركز الجرجاني في تعريفه على متعلق الإرادة الذي حصره في المعدوم، وبين أنها صفة تخصص أمرا لحصوله، وقد يعبر عن هذه الصفة كذلك بكونها تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، وهذا يدلك على أن مراده بالمعدوم الصفة النسبية، فالإرادة المتعلقة بإفناء الموجود - مثلا - إرادة متعلقة بمعدوم هو الإفناء، والإرادة المتعلقة بإيجاد المعدوم إرادة متعلقة بمعدوم كذلك هو الإيجاد، فالمعدوم الذي تعلقت به الإرادة في الموجود هو العدم، والمعدوم الذي تعلقت به الإرادة في المعدوم هو الوجود.

وعرفها ابن تيمية بمستلزَمها الذي هو وقوع المراد، وهو قيد أخرج به الإرادة التكليفية.

ويستفاد من هذه التعاريف ومما سبق أن هذه الإرادة تسمى كذلك المشيئة، والإرادة الكونية والإرادة القدرية، والإرادة الخلقية، وهي أعم من الإرادة التكليفية، إذ يدخل تحتها ما يحب الله ويرضاه، وما لا يحبه ولا يرضاه.

نماذج للآيات التي وردت فيها هذه الإرادة:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾[2].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٦٦)

(٢) [سورة الحج آية ١٦]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[1].

وقولـه سـبحانه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2] وغيرها... وهي كثيرة في القرآن الكريم.

فهذه الآيات وأمثالها فـي القـرآن الكـريم، تتحـدث عـن الإرادة التكوينيـة وهي متعلقة بجميع الكائنات، فما شـاء الله كـان، ومـا لـم يشـأ لـم يكـن، ومتـى وجدت وجد متعلقها، بعكس الإرادة التكليفية، ثم إنها كما يلاحـظ فـي الآيـات الممثل بها، تتعلق بما يحبه الله وما لا يحبه.

وهذه المسألة كثر فيها الحـديث، وتشـابه فيهـا القـول، ولـن أتعـب نفسـي ولا القارئ بنقولات من هنا وهناك لكني أرى والله أعلم، أن مجمل ما ورد في القرآن فيمـا يتعلق بهذه الإرادة، أن معنى إرادة الله الكونية هو أن الله لو شاء لأجبر الناس كلهم على الإيمان، ولم يترك لهم الخيار، ولو شاء لأجبرهم على الكفـر. لكـن لـم يـرد هـذا ولا هذا، بل أراد أمرا آخر هو ترك الخيار للمكلفين فمن شاء فليـؤمن، ومـن شـاء فليكفـر، فمن آمن فبإرادة الله الكونية آمن، إذ لو شاء الله لصرفه عن الإيمان، ومن كفر فبإرادة الله الكونية كفر، إذ لو شاء الله لمنعه من الكفر. فليس هناك شيء يحدث فـي الكـون رغـم إرادته سبحانه، وهكذا هي قضية الإرادة التكوينية في القرآن واضحة جلية.

ويؤيد هذا مـا ذكـره الشـيخ القرضـاوي قـال: «إن الآيـات التـي ذكـرت الإرادة بالمعنى الأول (التكليفي) جاءت في صورة الخبر الصريح إثباتا ونفيا، (...) أما الآيات

(١) [سورة هود آية ١٠٧]

(٢) [سورة هود آية ٣٤]

التي ذكرت الإرادة بالمعنى الكوني... فلم تجئ في مثل هذه الصورة بل جاءت في صورة الشرط: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾(١) ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾(٢) و﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾(٣) ومثل هذه الصيغة الشرطية لا تستلزم الوقوع حتما، فليس بالضرورة أن يريد الله إغواء قوم أو إضلالهم أو فتنتهم، ولو أراد ذلك ما منعه مانع ولا وقف في سبيله معترض، لأنه خالق كل شيء، والملك كله بيده.

فالآيات بهذا تقرر المبدأ فقط، ولا تخبر عن الوقوع، ولهذا لم يجئ في القرآن الكريم مثل هذا التعبير الخبري، إنما يريد الله أن يغويكم، وأولئك الذين يريد الله أن يضلهم»(٤).

الفرع الرابع: الإرادة التكليفية:

تعريف الإرادة التكليفية:

قال المناوي رحمه الله: «أراد الله كذا حكم فيه أنه كذا وليس كذا، وقد يراد بالإرادة معنى الأمر نحو أريد منك كذا ومعنى القصد»(٥).

---

(١) [سورة هود آية ٣٤]

(٢) [سورة المائدة آية ٤٣]

(٣) [سورة الأنعام آية ١٢٦]

(٤) الإيمان بالقدر. (ص: ٤٣) يوسف القرضاوي. ويرد على الشيخ فيما ذهب إليه قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٣] وقوله عز وجل ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٧٦] ويمكن توجيه الأولى بأنها نفت الإرادة، ونفي الشيء لا يستوجب إثبات عكسه، والثانية بأنه أراد الله أن لا يجعل لهم حظا في الآخرة بسبب كفرهم. والله أعلم

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٤٥)

بعض الآيات الدالة على التكليف:

من ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(1).

وقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(2).

وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(3).

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾(4).

ففي هذه الآيات رأينا أن الله يريد أن يذهب عن العباد الرجس ويطهرهم ويتم نعمته عليهم ويتوب عليهم، ويخفف عنهم ويرفع عنهم العسر والحرج، وغير ذلك، وكل هذه الأمور محبوبة ومحمودة ومرضية، غير أنها لا تقع إلا لمن آمن بالله واتبع أوامره.

وهذه هي الإرادة التكليفية لأن الله يكلف عباده بما تتعلق به، وتسمى أيضا الشرعية والدينية والأمرية، وهي تستلزم محبة الله لما يريده ويرضاه.

---

(1) [الأحزاب: ٣٣]

(2) [سورة الأنفال آية ٦٨]

(3) [سورة المائدة آية ٧]

(4) [سورة النساء آية ٢٦ ـ ٢٨]

المطلب الثاني

الأمر التكويني والأمر التكليفي

يحمل مصطلح الأمر في اللغة العربية دلالات كثيرة، متفرعة عن أصول خمسة ذكرها ابن فارس لمعاني الأمر[١].

وقد تجلى هذا الثراء المفاهيمي في استعمالات القرآن الكريم لهذا المصطلح، فجاء بمعنى طلب الفعل أو الترك، كما جاء بمعنى الحال والشأن وهي من الدلالات الفضفاضة التي يتحكم في تحديد مقاصدها السياق والقرائن، قال القرطبي رحمه الله: «قال علماؤنا: والأمر في القرآن يتصرف على أربعة عشر وجها: ثم سردها»[٢].

والوجوه التي ذكرها كلها من أمر التكوين، باستثناء اثنين، (الأول والعاشر). ولم أر القرطبي استقصى جميع ما دل عليه الأمر من المعاني الجزئية فلم يذكر مثلا الطوفان كما في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾[٣].

وقد عرف الشهرستاني أمر التكوين، بقوله: هو فعل يقع تحته المفعول[٤].

(١) انظر: مقاييس اللغة (١/ ١٣٧)

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ٨٨ ـ ٨٩)

(٣) [سورة هود آية ٤٠]

(٤) الملل والنحل (١/ ١١١)

ففسر الأمر بالفعل، كما فُسر بالفعل القولُ في قولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1] وقد أسلفنا هذه المسـألة فـي حديثنا عن الآيات التكوينية الثمان. في الفصل الأول[2].

ومثـال الأمـر التكليفـي قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3].

الأمر التكويني والتكليفي المستفاد من الصيغة:

والأمر في القرآن ـ التكوني منه والتكليفي ـ كما دل عليـه مصـطلح الأمـر دلت عليه كذلك صيغه على اختلافها كما فصل الأصوليون.

فمن أمثلة الأمـر التكـويني: قولـه تعـالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾[4].

ومن أمثلة الأمر التكليفي: قوله تعـالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[5] ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[6].

(١) [سورة يس آية ٨١]

(٢) انظر الصفحة: ٣٩

(٣) [سورة النحل آية ٩٠]

(٤) [سورة هود آية ٤٤]

(٥) [سورة البقرة آية ٤٢]

(٦) [سورة البقرة آية ٢٢٦]

وليس ما ورد في القرآن الكريم على هذا النحو من الوضوح، بل وردت فيه آيات تحتمل الأمرين، ولذا كانت محل خلاف بين المفسرين، بل ظهر آثار الاختلاف فيها في الفروع الفقهية وهذه بعض النماذج في ذلك:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا﴾[1].

من الناس من طعن في القرآن بسبب ما وقع في التاريخ في الحرم من القتل مما يناقض ما دلت عليه الآية واعتمادا على من فسرها بالأمر التكويني الذي لا يتغير ولا يتخلف.

لكن المحققين من أهل التفسير فسروا الآية بأنها من قبيل الأمر التكليفي كابن كثير وغيره.

قال الشعراوي رحمه الله: فلما حدث أن اقتحمه بعض أصحاب الأهواء، وأطلقوا النار في ساحاته[2]، وقتلوا فيه الآمنين قامتْ ضجة كبيرة تُشكِّك في هذه الآية: كيف يحدث هذا والله يقول ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا﴾[3] فأقاموا هذه الأحداث دليلاً على كذب الآية والعياذ بالله.

وهذا المسلك منهم يأتي عن عدم فهم لمعنى الأمر الكوني والأمر

---

(١) [سورة آل عمران آية ٩٧]

(٢) ومما وقع داخل الحرم من الخوف وعدم الأمن حصار الحجاج في فتنة ابن الزبير وكذا ما أحدث فيه الحسن بن بهرام الجنابي) كبير القرامطة إذ قتل بمكة آلافا من الناس وكان يقول لهم يا كلاب أليس قال لكم محمد المكي ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا﴾ [آل عمران: ٩٧] أي أمن هنا؟

(٣) [سورة آل عمران آية ٩٧]

التشريعي، فقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[1] أمر تشريعي قابلٌ لأنْ يُطاع، ولأنْ يُعصى، كأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قال: أمِّنُوا مَنْ دخل البيت، فبعض الناس امتثل للأمر، فأمَّن مَنْ في البيت الحرام، وبعضهم عصى فروَّع الناس، وقتلهم»[2].

وبناء على هذا الاختلاف اختلف الفقهاء في إقامة الحدود على من لجأ إلى الحرم وبه استدل من قال أن من لجأ إلى الحرم وقد وجب عليه حد من الحدود فإنه لا يقام عليه حتى يخرج منه، وهو قول أبي حنيفة ومن تابعه، وخالفه الجمهور، وقالوا تقام عليه الحدود من الحرم، وبه قال مالك[3].

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[4].

فُسر قوله: لا تبديل لخلق الله بالنهي عن تغيير خلق الله وفطرته التي فطر الله الناس عليها فهي طلبية في صيغة الخبر والنهي فيها تكليفي.

كما فسر بأنه أمر تكويني يخبر فيه عز وجل أن الله تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك[5].

---

(١) [سورة آل عمران آية ٩٧]

(٢) تفسير الشعراوي (١٨/ ١١١٩٥)

(٣) أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي (١/ ٣٧٣)

(٤) [سورة الروم آية ٢٩]

(٥) تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٣١٤)

الآيـة الثالثـة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾[1].

قـال الطـاهر بـن عاشـور: «وجملـة ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ تـذييل لجملة زوجناكها. وأمر الله يجوز أن يراد به ما أمر بـه مـن إباحـة تـزوج مـن كـن حلائل الأدعياء، فهو بمعنى الأمر التشريعي فيه.

ومعنى مفعولا أنه متبع ممتثل فلا يتنزه أحد عنه... ويجـوز أن يـراد الأمـر التكويني وهو ما علم أنه يكون وقدر أسباب كونه»[2].

الآية الرابعة: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾[3].

ذهب جمهور العلماء إلى منع المشرك مـن دخـول المسـجد الحـرام بنـاء على أن النهي الوارد في الآية نهي تكليفي، بينما أجازت الحنفية دخولهم وأولوا الآية بأن النهـي فيهـا تكـويني لا تكليفـي قـال عـلاء الـدين الحصـكفي الحنفـي (المتوفى: ١٠٨٨هـ) وجاز (دخول الذمي مسجدا مطلقا، وكرهـه مالـك مطلقـا، وكرهه محمد والشافعي وأحمـد فـي المسـجد الحـرام. قلنـا: **النهـي تكـويني لا تكليفي**[4]، وقال: ابن عابدين: «فمعنى لا يقربـوا: لا يخلـق الله فـيهم القربـان...

(١) [سورة الأحزاب آية ٣٧]

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٩)

(٣) [سورة التوبة آية ٢٨]

(٤) الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار (ص: ٦٦٠)

وحاصله أنه خبر منفي في صورة النهي»[1].

ملاحظة وتنبيه: لم يرد في القرآن الكريم أن الله يأمر بأمر تكويني يخالف ما عهد من الأمر التشريعي، فلم يرد فيه أن الله يأمر بالكفر أو بالفحشاء أو بغيرها؛ ولهذا فقوله عز وجل: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[2] لا يتجه تفسير الأمر فيها بالأمر التكويني كما ذهب إليه ابن القيم[3] وغيره والشيخ العثيميين من المعاصرين[4].

وإنما لا أرى تفسير الأمر في الآية بالأمر التكويني سديدا ولا هو ظاهر الآية لأمور. أولا لما سبق، من أن ذلك غير معهود في القرآن الكريم.

ثانيا: لأن الفسق هو الخروج عن الطاعة، أو الخروج عن أمر الله عز وجل فهو مرادف للعصيان فكما يصح قولنا: أمره فعصى، يصح أمره ففسق.

كما قال الشاعر:

أمرتك أمرا جازما فعصيتني فأصبحت مسلوب الإمارة نادما

ثالثا: المأمور به في الآية محذوف، وبما أنه لابد من تقديره فتقدير ما ينسجم

---

(١) رد المحتار على الدر المختار (٦/ ٣٨٧) ابن عابدين، محمد أمين الدمشقي الحنفي (المتوفى: ١٢٥٢هـ)

(٢) [سورة الإسراء آية ١٦]

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٢٨١) ورجح ما ذهب إليه بستة أوجه لا تخلوا من تكلف

(٤) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (المقدمة/ ٥٣)

مع المعهود القرآني أولى، فبدل تقدير أمرناهم بالفسق ففسقوا يقدر أمرناهم بالطاعة ففسقوا، كما قال الله عز وجل عن إبليس: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾(١).

فالملائكة أمروا بالسجود فأطاعوا وسجدوا، وإبليس أمر بالسجود ففسق.

رابعا: قول من قال: أمرناهم بالفسق ففسقوا متناقض لأن الفسق كما أسلفنا خروج عن الطاعة، فكيف فسقوا وقد أطاعوه في أمره وفعلوا ما أمروا به.

ولا يرِد على هذا الأخير أن المقصود أنهم فسقوا عن الأمر التشريعي وإن كانوا مجبرين على امتثال الأمر التكويني، لأن قوله ففسقوا نتيجة لأمرناهم فوجب أن يكون من جنسه ونوعه، وإلا آل الأمر إلى تناقض آخر.

وأود أن أختم هذا المطلب بنظرة جامعة للأمرين من حجة الإسلام الغزالي قال رحمه الله: «فكذلك أمر الأول الحق جل جلاله بالنسبة إلى وجود العقل إبداع، وبالنسبة إلى وجوده في دوامه تكميل بالفعل، بالنسبة إلى النفس تتميم وتوجيه من القوة إلى الفعل، وبالنسبة إلى الطبيعة تحريك، وبالنسبة إلى الأجسام تصريف، وبالنسبة إلى الطبائع والعناصر تعديل، وبالنسبة إلى المركبات تصوير، وبالنسبة إلى المصورات إحياء، وبالنسبة إلى الحيوان إحساس وهداية، وبالنسبة إلى العقل الإنساني تكليف وتعريف، وبالنسبة إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أمر وكلام وكلمات، وقول وكتاب ورسالات،... فالأمر الأعلى

---

(١) [سورة الكهف آية ٤٩]

بالنسبة إلى المكونات عبارة عن التكوين والإبداع، وبالنسبة إلى جزئيات المكلفين عبارة عن القول الذي هو الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والخبر والاستخبار، فظاهر الأمر التكويني أوضاع الملائكة وسوقها الموجودات إلى كمالاتها، وكمالات الموجودات قبولها الأمر، وكمالات المكلفين قبولها للثواب، فمن لم يقبل الأمر اخرج من عالم الحق، والإخراج من الحق لعن كحال الشيطان الأول إذ لم يقبل الأمر فأخرج من جنة العقل، وقيل اخرج منها فانك رجيم وذلك معنى اللعن، ومن قبل الأمر ادخل في عالم الثواب، وتحققت فيه الملكية كحال الملائكة المأمورين بالسجود إذ قبلوا فدخلوا في عالم الثواب»[1].

(١) معارج القدس في مدارج معرفه النفس (ص: ١٧٧)

المطلب الثالث

الإذن التكويني والإذن التكليفي

الإذن في اللغة: العلم والإعلام. تقول العرب قد أذنت بهذا الأمر، أي: علمت. وآذنني فلان أعلمني. والمصدر الأذن والإيذان. وفعله بإذني، أي: بعلمي، ويجوز بأمري، وهو قريب من ذلك. قال الخليل: ومن ذلك أذن لي في كذا[1]، «وأذنت له في كذا أطلقت له فعله، والاسم الإذن، ويكون الأمر إذنا وكذا الإرادة، نحو بإذن الله، وأذنت للعبد في التجارة فهو مأذون له»[2].

الفرع الأول: الإذن التكويني:

تعريف الإذن التكويني: رفع المنع وإيتاء المكنة كونا وخلقا أي من جهة سلامة الخلقة[3].

وقد وردت بمعناه آيات كثيرة منها على سبيل التمثيل:

قوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾[4].

---

(١) مقاييس اللغة (١/ ٧٧)

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/ ٩)

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٤٤) وعزا ذكره للحرالي

(٤) [سورة البقرة آية ٢١١]

وقوله عز وجل: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٢).

الفرع الثاني: الإذن التكليفي:

تعريف الإذن التكليفي: للإذن التكليفي تعاريف منها قولهم:

الإذن فك الحجر وإطلاق التصرف لمن كان ممنوعا شرعا(٣) وهذا تعريف الفقهاء.

ومنها ما ذكره المناوي بقوله: الإذن في الشيء الإعلام بإجازته والرخصة فيه(٤)، وهذا أعم وأتم.

وورد في نحو قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٥).

وقوله سبحانه: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾(٦).

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾(٧).

---

(١) [سورة الحج آية ٦٣]

(٢) [سورة البقرة آية ١٠١]

(٣) المصدر السابق ونسبه إلى ابن الكمال

(٤) ا التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٤٤) عزاه للراغب

(٥) [سورة الحج آية ٣٧]

(٦) [سورة النور آية ٣٦]

(٧) [سورة يونس آية ٥٩]

الفرع الثالث: أساليب القرآن في التعبير عن الإذنين:

وقد تتبعت مصطلح الإذن في القرآن الكريم، فوجدت أن الإذن التكويني لم يرد في القرآن الكريم إلا بصيغة الاسم ولم يرد قط فيه بصيغة الفعل، وأن كل ما ورد فيه بصيغة الفعل فإن المراد به الإذن التكليفي، سواء كان بصيغة الماضي المبني للمعلوم (أَذِن) كما في [يونس: ٥٩] الممثل بها قريبا، أو المسند إلى المفعول (أُذن) كما في [الحج: ٣٧] الممثل بها قريبا كذلك. أو المضارع (يأذن) كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾(١) أو الأمر في الذي ورد مسندا إلى رسول الله (فأذَن) وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

وكل ما ورد فيه من الإذن التكويني جاء بالصيغة الاسمية.

ولعل المتدبر يستفيد من ذلك، أن الإذن التكليفي يتعلق بأفعال العباد التي من شأنها الحدوث التجدد، ولذا ورد بصيغة الفعل الدال على التجدد والحدوث.

بينما الإذن التكويني ورد بصيغة الاسم الدالة على الثبوت، ذلك لأنه عبارة عن سنن الله الكونية الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾(٣).

---

(١) [سورة الشورى آية ١٩]

(٢) [سورة النور آية ٦٠]

(٣) [سورة الأحزاب آية ٦٢]

وإذا علمنا أن الإذن التكويني عام يشمل الخير والشر والنفع والضر، فكل ذلك لا يقع في الكون إلا بإذن الله، لكن لم يرِد أن الله أذن بضر أحد أو بإضلاله.

ولعل هذا يؤيد ما سقته في المطلب الأول من أن الله لم يخبر بالخبر الجازم أنه يريد الإضلال أو الفتنة... ويتساوق مع ما ذكرته في المطلب الثاني، أنه لم يرِد في القرآن أن الله يأمر أمرا تكوينيا بما يخالف الأمر التكليفي، واستنكافي من تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾[1] الآية بالأمر التكويني. وأن الله أمرهم بالفسق.

فعلى المسلم أن يحتاط ويتأدب مع الله، ولا ينسب إليه ما لم ينسبه الله إلى نفسه، كقول من تورط في أمر محظور: «الله هو الذي أذن لي بهذا» وقد أنكر الله على الكفار قولهم أن الله أمرهم بالفاحشة، ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

الفرع الرابع: أثر الاختلاف في حقيقة الإذن في اختلاف الفقهاء:

اختلف المفسرون في تفسير بعض الآيات هل هي من قبيل الإذن التكويني، أم الإذن التكليفي وأسوق هنا ـ على سبيل التمثيل ـ نموذجا امتد الخلاف فيه إلى الفروع الفقهية، وهو قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾[3].

---

(١) [سورة الإسراء آية ١٦]

(٢) [سورة الأعراف: آية ٢٨]

(٣) [سورة الحشر آية ٥]

ذهب مجاهد[1] وابن كثير وغيرهما من المفسرين إلى أن الإذن في الآية تكويني. قال الشنقيطي رحمه الله: «إن المسلمين نهى بعضهم بعضا عن قطع النخيل، وقالوا: إنما هو مغانم المسلمين فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطع من الإثم، وأن قطع ما قطع وترك ما ترك: فبإذن الله وليخزي الفاسقين. وعلى هذه الأقوال قال ابن كثير وغيره: إن قوله تعالى: فبإذن الله أي: الإذن القدري والمشيئة الإلهية»[2].

بينما ذهب الطبري[3] وجمهور المفسرين إلى أنه إذن تكليفي.

وقد نشأ عن هذا الاختلاف اختلاف الفقهاء في حرق أشجار العدو وإفساد ممتلكاتهم، بين من أجاز ذلك، وهم الجمهور قال أبو بكر الجصاص: وأما جيش المسلمين إذا غزوا أرض الحرب وأرادوا الخروج فإن الأوْلى أن يحرّقوا شجرهم وزروعهم وديارهم، وكذلك قال أصحابنا في مواشيهم: «إذا لم يمكنهم إخراجها ذُبحت ثم أُحرقت»،... استدلالاً بالآية وبما فعله النبي ﷺ في أموال بني النضير[4].

وذهب الحنابلة في قول إلى عدم جواز ذلك قال ابن قدامة لا يجوز؛... لأن فيه إتلافا محضا، فلم يجز، كعقر الحيوان. وبهذا قال الأوزاعي، والليث،

---

(١) تفسير مجاهد (ص: ٦٥٢)

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ٢٩) نقل هذا عن ابن كثير ورجح هو أنه من الإذن التكليفي

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٧٢)

(٤) أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٣١٧)

وأبو ثور[1]، ورأوا أن الإذن في الآية إذن تكويني لا يستلزم الإذن الشرعي، قال ابن الجوزي: واختلف المسلمون، فقال بعضهم: لا تقطعوا، فإنه مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: بل نغيظهم بقطعها، فنزلت الآية بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله تعالى[2].

ولعل مذهب الحنابلة هو الراجح، لعموم النهي عن إفساد الحرث والنسل، ولأن الأمر الكوني هو الذي يعبر عنه غالبا بالصيغة الاسمية.

وقد أحسن أبو بكر الجزائري رحمه الله إذ ذكر من هدايات الآية قولَه «فقد اجتهد المؤمنون في قطع نخل بني النضير من أجل إغاظتهم حتى ينزلوا من حصونهم. وأخطأوا في ذلك لأن قطع النخل المثمر فساد، ولكن الله تعالى لم يؤاخذهم لأنهم مجتهدون»[3].

❁ ❁ ❁

(١) المغني لابن قدامة (٩/ ٢٩١)

(٢) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٢٥٦)

(٣) أيسر التفاسير للجزائري (٥/ ٣٠٤)

المبحث الثاني
أفعال الله المتعلقة
بالقدر والهداية وغيرهما

وفيه مطالب:

المطلب الأول: الهداية والإضلال التكوينيان والتكليفيان.

المطلب الثاني: التحريم والجعل التكوينيان والتكليفيان.

المطلب الثالث: القضاء والحكم والكتابة.

المطلب الرابع: الآيات والكلمات والبعث والإرسال والإيتاء.

المطلب الأول

الهداية والإضلال التكوينيان والتكليفيان

مسألة الهداية والإضلال من المسائل العقدية التي مازالت إشكالاتها تثار في أوساط الشباب، وقد رصدت ذلك في وسط المتعلمين وغيرهم أثناء مزاولتي للتعليم ولمهمة الوعظ والإرشاد، ولهذا فإني سأتطرق لها في الفصل الرابع، أما هذا المطلب فسأقتضب فيه من الحديث ما يكفي لبيان الفرقان بين الهدايتين، ويفي بالتزييل بين الإضلالين.

الفرع الأول: الهداية التكوينية والهداية التكليفية:

أولا: تعريف الهداية:

١ ـ الهداية في اللغة: (هدى) الهاء والدال والحرف المعتل: أصلان أحدهما التقدم للإرشاد، والآخر بعثة لطف[١].

فالأول قولهم: هديته الطريق هداية، أي تقدمته لأرشده. وكل متقدم لذلك هاد.

والأصل الآخر الهدية: ما أهديت من لطف إلى ذي مودة. يقال: أهديت أهدي إهداء. والمهدى: الطبق تهدى عليه.

ومن الباب الهَدْي وهو: ما أهدي من النعم إلى الحرم قربة إلى الله تعالى.

---

(١) مقاييس اللغة (٦/ ٤٢)

٢ ـ **الهداية في الاصطلاح**: دلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب وقيل سلوك طريق يوصل إلى المطلوب[١].

تنقسم الهداية في القرآن إلى هداية تكوينية وهداية تكليفية.

ثانيا: الهداية التكوينية[٢]: لهذه الهداية مراتب في القرآن الكريم، من مرتبة أدنى وأعم إلى مرتبة أعلى وأخص وكأنها تدريج نحو المرتبة الأسمى والأكثر خصوصية أقصد مرتبة الهداية التكليفية التي سأتحدث عنها لاحقا.

المرتبة الأولى: هداية المخلوقات إلى ما يصلح به حالها، وهذه هداية عامة تدخل فيها جميع المخلوقات جمادها ونباتها وحيوانها، علويها وسفليها، فالله هو الذي هدى الكواكب لتسْبَح في أفلاكها فلا تصطدم، وهدى الحيوانات إلى مصالحها[٣]. ويدل علها قوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[٤].

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٣٤٣)

(٢) انظر روح البيان (٥/ ١٣٨) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٢٣) و(٢٤/ ٢٦٢)

(٣) فكلب الحراسة لم نصدر إليه أوامرنا بالسهر، ولم نهدده بالجوع إذا نام، ومع ذلك يقضي ليله يقظاً. وترفع الدجاجة أجنحتها عن البيض قليلاً، في الأسبوع الثالث، حتى تسمح بدخول «الأوكسجين» إلى الأفراخ في البيض، ولو ضمت البيض بشدة، لاختنق الأفراخ. ودودة الحرير تنظف بطنها جيدا قبل الدخول في «الشرنقة» حتى لا تلوث الحرير بما يخرج من بطنها. والحشرة «فكس» تُؤمِّن مستقبل بيضها قبل أن تموت عندما تحفر حفرة، ثم تصطاد جرادة، وتقوم بتخيرها جيدا، ثم تنقلها إلى الحفرة، وتضع البيض فوقها، ثم تموت، فإذا خرج الجنين من البيض، وجد غذاءه لحما طازجا حيا. إن كل شيء يؤدي دوره في الحياة على قدر. (منهج القرآن في القضاء والقدر (ص: ٣٥))

(٤) [سورة الأعلى آية ١ ـ ٣]

المرتبة الثانية: الهداية التكوينية الخاصة، المتمثلة في توفيق الله من أكرمه إلى ما يحقق سعادته الدنيوية والأخروية، وإعانتهم للسير في طريق الخير والنجاة، وهي لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقل وشرع الدين[1]. وهذه الهداية إذا منّ الله بها على عبد لن يلقى الشقاء، وهي التي نفاها الله عن نبيه في قوله تعالى إنك لا تهدي من أحببت.

ثالثا: الهداية التكليفية: وهي الهداية الشرعية أو هداية الدلالة والإرشاد، وسميناها تكليفية لأنها في الحقيقة هي هذا الدين الذي كلفنا باتباعه، فأوامر الله التكليفية ونواهيه كلها هدايات كلف العبد باتباعها، وهذا النوع من الهداية مرتبطة باختيار العبد وإرادته، فالله عز وجل هدى هداية شرعية تكليفية حتى الكفار يعني بيّن لهم سبل الهدى والرشاد، قال الله عن قوم ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[2] وهي الثابتة للنبي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3] وهي ثابتة لجميع الأنبياء والدعاة إلى الخير.

الفرع الثاني: الإضلال التكويني والتكليفي:

الضلال هو العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية. ويقال: الضلال لكل عدول عن المنهج عمدا أو سهوا، قليلا أو كثيرا[4]. وما ورد منه في

---

(١) انظر تفسير المنار (١/ ٥٤)

(٢) [سورة فصلت آية ١٦]

(٣) [سورة الشورى آية ٤٩]

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٢٢٣)

القرآن مسندا إلى الله عز وجل إنما هو إضلال تكويني وهو عبارة عن خذلان الله تعالى لمن اختار العمى على الهداية، ومنه قوله تعالى:

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[1] ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[2] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾[3] وغيرها، وخلاصة القول فإن الإضلال إذا نسب إلى الله في القرآن فهو تكويني.

وأما **الإضلال التكليفي**[4] فمعناه إضلال العبد نفسه أو غيره بسلوك طريق الضلال المنهي عنه بإرادته واختياره، وعلى هذا فإنما أوردته في هذا المبحث توسعا، ومن الآيات التي ورد فيها الإضلال والضلال بهذا المعنى قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[5].

فالضلال والهداية في الآية تكليفيان متعلقان بإرادة العبد واختياره. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[6].

---

(١) [سورة غافر آية ٣٣]

(٢) [سورة غافر آية ٣٤]

(٣) [سورة غافر آية ٧٣]

(٤) لم أجد من أطلق عليه وصف التكليفي لكني أطلقته عليه قاصدا أن العبد مكلف باجتنابه ومعلوم أن الإضافة تكون لأدنى ملابسة، وقد تكون النسبة بما ينفيه المرء ويجتنبه كنسبة نفاة القدر إليه

(٥) [سورة سبأ آية ٥٠]

(٦) [سورة المائدة آية ٧٩]

المطلب الثالث

التحريم والجعل

الفرع الأول: التحريم التكويني والتحريم التكليفي:

١ ـ تعريف التحريم: التحريم في اللغة المنع.

وفي الاصطلاح: التحريم جعل الشيء حراما قال الراغب: الحرام الممنوع منه إما بتسخير إلهي وإما بمنع قهري وإما بمنع من جهة العقل أو من جهة الشرع أو من جهة من يرتسم أمره[١].

وهذا تعريف عام لجميع أنواع التحريم، التكويني والتكليفي بل حتى ما حرمه البشر، ويمكن اختصاره وقصره على التحريم التكويني والتكليفي بقولنا:

الحرام الممنوع منه إما بتسخير إلهي أو تشريع. أو ما منعه الله بتسخير أو تشريع.

٢ ـ التحريم التكويني إذن: هو منع الله عز وجل بقضائه وقدره من أراد مما أراد، ومن ذلك منع موسى من المراضع قال المظهري: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[٢] والمراد بالتحريم المنع التكويني دون التكليفي[٣] ومنه

(١) تفسير الألوسي (٩/ ٨٦) ونحوه عند المناوي انظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ١٣٧)

(٢) [سورة القصص آية ١١]

(٣) التفسير المظهري (٧/ ١٤٩)

قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[1].

٣ ـ **التحريم التكليفي**: وهو منع شرع الله عز وجل المكلفين من بعض الأمور، مع ترك الخيار لهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾[2] ونحوها كثير.

الفرع الثاني: الجعل التكويني والجعل التكليفي:

الجعل في اللغة: جعل جعلا: صنع صنعا، وجعل أعم، لأنك تقول: جعل يأكل، وجعل يصنع كذا، ولا تقول: صنع يأكل[3]. وذكر ابن فارس أنها كلمات غير منقاسة، لا يشبه بعضها بعضا[4].

الجعل في الاصطلاح: إظهار أمر عن سبب وتصيير[5]. وقال الكفوي: الجعل: إذا تعدى إلى المفعولين يكون بمعنى التصيير، وإذا تعدى إلى مفعول واحد يكون بمعنى الخلق والإيجاد[6].

الجعل التكويني: وهو بمعنى الخلق والتصيير ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾[7].

---

(١) [سورة الأنبياء آية ٩٤]

(٢) [سورة المائدة آية ٤]

(٣) العين (١/ ٢٢٩)

(٤) مقاييس اللغة (١/ ٤٦٠)

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ١٢٧)

(٦) الكليات (ص: ٢٩)

(٧) [سورة النبأ آية ٩ ـ ١١]

الجعل التكليفي: وهو ما شرعه الله من الدين ومنه قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾[1].

قال أبو السعود: «ومعنى ما جعل ما شرع وما وضع ولذلك عُدِّيَ إلى مفعول واحد هو بَحيرة وما عطف عليها ومن مزيد لتأكيد النفي فإن الجعلَ التكوينيَّ كما يجيء تارة متعدياً إلى مفعولين وأخرى إلى واحدٍ كذلك الجعلُ التشريعيُّ يجيء مرة متعدياً إلى مفعولينِ كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾[2] وأخرى إلى واحد كَما في الآيةِ الكريمةِ السابقة»[3].

و (الجعل) من المصطلحات الخطيرة التي تحتاج إلى دراسة مصطلحية استقرائية، فقد اتكأ على هذا المصطلح بعض الفرق في قولهم بخلق القرآن قديما لأن الله قال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾[4] كما قال ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا﴾[5] وفسرت (جعلنا) فيهما (بخلقنا)، واتكأت عليه القرامطة في التشكيك في صدق قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾[6] لما انتهكوا الحرم المكي وسفكوا فيه

(١) [سورة المائدة آية ١٠٥]

(٢) [سورة المائدة آية ٩٩]

(٣) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) (٣/ ٨٦) وانظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٢٨٢)

(٤) [سورة الزخرف آية ٢]

(٥) [سورة النبأ آية ١٣]

(٦) [سورة العنكبوت آية ٦٧]

الدماء. واتكأ عليه بعض الناس في تخيلهم أن الأمة الإسلامية لا تزال أمة وسطا شاهدة خيرة، مع أنها بلغت من التخلف والانحطاط ما جعلها تابعة لا متبوعة مأمورة لا آمرة، منفعلة لا فاعلة. تتسول من غيرها قوتها بل ومنهجها ونظامها.

قال: عبد المجيد النجار: «الجعل الذي ورد في الآية[1] جعلا للوسطية والشهادة على الناس ليس هو كما يتبادر إلى بعض الأذهان جعلا تتحتم به في الواقع الوسطية والشهادة فتكون به الأمة وسطا شاهدة على الناس في كل الأحوال، مستحقة بذلك للمدح والتمجيد في كل الأحوال أيضا، بل هو جعل تكليفي، على معنى أن الأمة جعلت مكلفة بالوسطية والشهادة، فإن هي وفت بذلك التكليف تحقق لها الشهود الحضاري، فاستحقت المدح والتمجيد وإن هي أخلت به تخلف ذلك الشهود فلا تستحق منهما إلا بقدر ما هي أمة مسلمة بإطلاق، ويلحقها من المؤاخذة بقدر ما تخل به من الشهود الحضاري»[2].

❁ ❁ ❁

(١) يقصد ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٢]

(٢) فقه التحضر الإسلامي د. عبد المجيد عمر النجار

المطلب الثاني

القضاء والحكم والكتابة

الفرع الأول: القضاء التكويني والتكليفي:

أولا: تعريف القضاء: القضاء في اللغة؛ إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته(١).

وأما تعريفه في الاصطلاح فسيأتي بعد الإشارة إلى انقسامه في القرآن إلى تكويني وتكليفي.

ثانيا: القضاء التكويني: وهو عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد(٢)، ولا حيلة للعبد فيه ولا خيار، بل حكم الله به لعباده خارج إطار التكليف، فلا يند عنه مخلوق، من الدرة إلى المجرة وما دون ذلك أو فوقه، وذلك في نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾(٥).

القضاء التكليفي: وهو ما اختاره الله لعباده من منهج وأعلمهم به وحكم

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٩٩)

(٢) التعريفات (ص: ١٧٧)

(٣) [سورة سبأ آية ١٤]

(٤) [سورة الحجر آية ٦٦]

(٥) [سورة الإسراء آية ٤]

عليهم باتباعه، وجعله في حدود قدرتهم وفي إطار اختيارهم، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[1].

وقوله عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن تَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[2].

والجامع بين القضاءين انطباق المعنى اللغوي عليهما للتصاف كل منهما بالإحكام والإتقان ونفاذهما إلى جهتهما، وبلوغهما التمام والكمال.

الفرع الثاني: الحكم التكويني والحكم التكليفي:

أولا: تعريف الحكم:

١ ـ الحكم في اللغة المنع. وسمي الحكم حكما لأنه يمنع من الظلم. وسميت حكمة الدابة لأنها تمنعها، ويقال: حكمت السفيه وأحكمته، إذا أخذت على يديه، وسميت الحكمة كذلك لأنها تمنع من الجهل. وتقول: حكّمت فلانا تحكيما منعته عما يريد. وحكّم فلان في كذا، إذا جعل أمره إليه[3].

٢ ـ الحكم في الاصطلاح: الحكم: إسناد أمر إلى آخر إيجابًا أو سلبًا[4].

ثانيا: الحكم في القرآن[5]:

---

(١) [سورة الإسراء آية ٢٣]

(٢) [سورة الأحزاب آية ٣٦]

(٣) مقاييس اللغة (٢/ ٩١)

(٤) التعريفات (ص: ٩٢)

(٥) أثار الفيلسوف طه عبد الرحمن استشكال مفهوم الحكم في القرآن الكريم انظره في كتابه روح الدين من ضيق العلمانية، إلى سعة الائتمانية، ص: ٣٥٨

ورد في القرآن على ثلاثة أقسام: الحكم الكوني والحكم التكليفي ومشترك بينهما.

١ ـ الحكم التكويني: عرفه الكفوي بقوله: والحكم: الفصل والبت والقطع على الإطلاق[١].

فهو إذن ما قدره الله بإحكام وإتقان ونفده في خلقه. ومنه قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٢] أي افعل ما تنصر به عبادك وتخذل به أعداءك[٣].

٢ ـ الحكم التكليفي وهو: خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير[٤]. ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٥] وقد فصل الأصوليون فيه القول، وإنما مقصودنا هنا بيان هذا التقسيم.

٣ ـ الحكم الذي يجمعهما كقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾[٦] فهذا يتناول حكمه الكوني وحكمه الشرعي، الحكم من حيث هو حكم سواء كان شرعيا أو قدريا فإنه لله وحده، فالأحكام القدرية له، لا يقع تحريك ولا تسكين، ولا

---

(١) الكليات (ص: ٣٨٠)

(٢) [سورة الأنبياء آية ١١١]

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٢٨٠)

(٤) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص: ٦٢)

(٥) [سورة الممتحنة آية ١٠]

(٦) [سورة الكهف آية ٢٦]

خير ولا شر، ولا شيء كائن ما كان إلا بحكمه (جل وعلا) وقدرته ومشيئته. وكذلك الأحكام الشرعية لا تشريع لأحد ولا تحليل لأحد إلا له (جل وعلا) وحده، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله؛ لأنه من المعلوم أنه لا تشريع إلا للسلطة العليا[1].

الفرع الثالث: الكتابة التكوينية والكتابة التكليفية:

الكتابة في اللغة: جمع شيء إلى شيء، وقد جاءت في القرآن الكريم فعلا لله عز وجل بالمعنى التكويني القدري وجاءت بالمعنى التكليفي الشرعي:

١ ـ **الكتابة التكوينية**: وهي تشير إلى الخط الذي رسمه الله للكون ولكل جزئية من جزئياته وجرى به القلم قبل أن يخلقه الله بخمسين ألف سنة، فلا يملك أحد من خلقه أن ينحرف عنه ولو بأضأل درجة تتصور من الانحراف، فالكل سائر وفق ذلك المكتوب، ولا يعني أن هذه الكتابة مقيِّدة لحرية الإنسان في تعيين الخيارات التي تركت لإرادته، وقصارى ما تفيده أن علم الله محيط بكل ما كان وما يكون، وما سيأتيه الإنسان ويختاره بكامل حريته، ويفعله بما خلقه الله فيه من قدرات لولاها ما فعله، وأن ذلك مسجل في كتاب عنده. ومن الآيات الدالة على هذه الكتابة قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[3].

---

(١) «العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير» (١/ ٣٦٩)

(٢) [سورة الأنبياء آية ١٠٤]

(٣) [سورة المجادلة آية ٢٠]

٢ ـ **الكتابة التكليفية:** هي الأوامر والنواهي التي كلف الله عباده بتنفيذها، وعبر عنها بالكتابة إما لأنها كذلك كتبت في اللوح المحفوظ أو لأنها كتبت في كتب الوحي المنزلة على رسله ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[١] فالضمير في (فيها) راجع إلى التوراة، وقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[٢].

❁ ❁ ❁

(١) [سورة المائدة آية ٤٧]

(٢) [سورة البقرة آية ١٨٢]

المطلب الرابع

الآيات والكلمات والبعث والإرسال والإيتاء

الفرع الأول: الآيات التكوينية والآيات التكليفية:

الهمزة والياء والياء أصل واحد، وهو النظر. يقال: تأيا يتأيا تأييا، أي: تمكث... والآية: العلامة(١)، وقيل العلامة الثابتة(٢) والشخص والعبرة(٣).

الآيات التكوينية: يمكن تعريفها بما ذكره المناوي قال: الآية: العلامة الظاهرة، وحقيقته كل شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره فمتى أدرك مدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته إذ كان حكمهما واحدا، ذلك ظاهر في المحسوس والمعقول(٤).

ومن أمثلة الآيات التكوينية قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٥) وما بعدها.

---

(١) مقاييس اللغة (١/ ١٦٧)

(٢) الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٧١)

(٣) القاموس المحيط (ص: ١٢٦١)

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٦٨)

(٥) [سورة الروم آية ٢١ ـ ٢٣]

وأما الآيات التكليفية فهي آيات كتابه تعالى التي يأمر بها وينهى ويخبر ويحكم. مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1].

ومن أهم الفروق بين الآيات الكونية، والآيات التكليفية، أن الأولى خلق الله، والثانية كلام الله عز وجل وصفته.

الفرع الثاني: الكلمات التكوينية والكلمات التكليفية:

الْكلمة تقع على الْحرف الواحد من حروف الهجاء، وتقع على لفظة واحدة مؤلفة من جماعةِ حروف لها معنى، وتقع على قصيدة بكمالها وخطبة بأسرها[2].

وذهب ابن تيمية إلى أن الكلمة لا تطلق عند العرب إلا على الجملة المفيدة، وأن كل ما ورد في القرآن وفي السنة بل وسائر كلام العرب من لفظ الكلمة فإنما يراد به الجملة التامة[3].

وكلمات الله التكوينية: هي الكلمات التي يخلق بها ويكوِّن وهي التي وصفها رسول الله بأنهن لا يتجاوزهن بر ولا فاجر ومنه قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَٰتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4] وغيرها.

أما الكلمات التكليفية: فهي التي يأمر بها وينهى وهي مما يجاوزهن

---

(١) [سورة لقمان آية ١]

(٢) تهذيب اللغة (١٠/ ١٤٧)

(٣) العبودية (ص١٤٥)

(٤) [سورة يونس آية ٣٣]

الفجار والكفار كقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[1] «والمراد به القرآن وقوله ﷺ في النساء: «واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[2] أي بإباحته في دينه بقوله: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[3].

وقد اجتمع النوعان في قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[4] فكتبه كلماته التي يأمر بها وينهى ويحل ويحرم وكلماته التي يخلق بها ويُكوِّن»[5].

الفرع الثالث: البعث التكويني والبعث التكليفي:

البعث في اللغة: الإثارة[6]. هذا أصله وتختلف معانيه حسب اختلاف ما علق به[7] وبعثه على الشيء: حمله على فعله. وبعث الجند يبعثهم بعثا: وجههم[8].

١ ـ البعث التكويني: كل بعث في القرآن فهو تكويني ماعدا المتعلق

---

(١) [سورة التوبة آية ٦]

(٢) صحيح مسلم (٢/ ٨٨٦/ ١٤٧ ـ رقم الحديث (١٢١٨)

(٣) [سورة النساء آية ٣]

(٤) [سورة التحريم آية ١٢]

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٢٨٢)

(٦) مقاييس اللغة (١/ ٢٦٦)

(٧) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٨٠)

(٨) المحكم والمحيط الأعظم (٢/ ٩٦)

بالرسل فبعثهم تكليفي تشريعي، فمن التكويني، قوله تعالى ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١) فالبعث هنا مستعمل في الإلهام بالطيران إلى ذلك المكان، أي فألهم الله غراباً ينزل بحيث يراه قابيل(٢). ومنه بعث الأموات في نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾(٣) ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾(٤).

٢ ـ البعث التكليفي: وهو في القرآن الكريم كله يتعلق ببعثة الرسل صلوات الله عليهم كقوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾(٥) وغيرها كثير. وإنما سميناه تكليفيا لأنه عبارة عن تكليف الله رسله بتبليغ هداياته للمكلفين من خلقه.

الفرع الرابع: الإرسال التكويني والإرسال التكليفي:

الإرسال في اللغة معروف، والفرق بينه وبين البعث أنه يجوز أن يبعث الرجل إلى الآخر لحاجة تخصه دونك ودون المبعوث إليه، كالصبي تبعثه إلى المكتب، فتقول بعثته ولا تقول أرسلته لأن الإرسال لا يكون إلا برسالة وما يجري مجراها(٦).

---

(١) [سورة المائدة آية ٣٣]

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٧٣)

(٣) [سورة الأنعام آية ٣٧]

(٤) [سورة الإسراء آية ٥]

(٥) [سورة الجمعة آية ٢]

(٦) الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٢٨٩)

والإرسال التكويني: فمنه إرسال الريح[1] والرياح[2] والصيحة[3] والحاصب[4] الرجز[5] والسماء[6] والشواظ[7] وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[8].

وأما التكليفي فهو إرسال الرسل لإبلاغ رسالاته كقوله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾[9] وغيرها.

الفرع الخامس: الإيتاء التكويني والإيتاء التكليفي:

الإيتاء التكويني: فما ينعم الله به على العباد من ملك ورزق ورحمة فكقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[10].

وأما الإيتاء التكليفي: فهو شرائعه التي وضعها للمكلفين لاتباعها كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[11].

---

(١) [الروم: ٥٠] و[الذاريات: ٤١] [القمر: ١٩]

(٢) [الفرقان: ٤٨] و[فاطر: ٩] و[الأعراف: ٥٦] و[النمل: ٦٥] و[الروم: ٤٥] و[الروم: ٤٧]

(٣) [القمر: ٣١]

(٤) [الإسراء: ٦٨] و[العنكبوت: ٤٠] و[القمر: ٣٤] و[الملك: ١٨]

(٥) [الأعراف: ١٦٢]

(٦) [هود: ٥٢] [نوح ١١] [الأنعام: ٧]

(٧) [الرحمن: ٣٥]

(٨) [سورة مريم آية ٨٤]

(٩) [سورة المزمل آية ١٤]

(١٠) [سورة البقرة آية ٢٤٥]

(١١) [سورة الحشر آية ٧]

وقوله عز وجل: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾(١).

ويجمعهما قوله تعالى: ﴿يُؤتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٢) «فهذا يتناول النوعين فإنه يؤتيها من يشاء أمرا ودينا وتوفيقا وإلهاما»(٣).

الفرع السادس: الوحي التكويني والوحي التكليفي:

الوحي في اللغة: أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك. فالوحي: الإشارة(٤).

والوحي التكويني: إلهام الله وتوفيقه كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(٥) قال ابن قتيبة أي: ألهمها. وقيل: سخّرها(٦).

الوحي التكليفي: هو وحي الله إلى أنبيائه بشرعه ليتبع ويهتدى به، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾(٧).

۞ ۞ ۞

(١) [سورة البقرة آية ٦٢]

(٢) [سورة البقرة آية ٢٦٨]

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٢٨٣)

(٤) مقاييس اللغة (٦/ ٩٣)

(٥) [سورة النحل آية ٦٨]

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ت سعيد اللحام (ص: ٢٠٨)

(٧) [سورة الأنعام آية ٥١] و[سورة يونس آية ١٥] و[سورة الأحقاف آية ٨]

المبحث الثالث
المصطلحات المتعلقة
بأفعال المخلوقات

وفيه مطالب:

المطلب الأول: الإسلام التكويني والإسلام التكليفي.

المطلب الثاني: العبودية التكوينية والتكليفية.

المطلب الثالث: الطاعة والتسبيح والنسيان.

المطلب الرابع: الصلاة التكوينية والتكليفية ومتعلقاتها.

المبحث الثالث

المصطلحات المتعلقة بأفعال المخلوقات

إذا كانت مصطلحات المبحثين السابقين تتعلق بأفعال الله عز وجل، ففي هذا المبحث سأتعرض لبعض المصطلحات المتعلقة بأفعال الخلق، وأود قبل الحديث عن تلك المصطلحات أن أنوه بأن الضابط المطرد المميز بين ما هو تكويني، وبين ما هو تكليفي، في هذا المبحث، هو أن كل فعل يصدر من المخلوقات من غير اختيار منها، بل بقهر الله وتكوينه لها، فهو تكويني، وكل فعل يكسبه العبد باختياره، فهو فعل تكليفي، فالأول ينسب إلى أمر الله التكويني، بينما ينسب الثاني إلى أمر الله التكليفي.

ولا شك أن هذا التمييز سيساهم في بيان كثير من الحقائق القرآنية، وربما أجاب عن بعض الإشكالات التي تثار أحيانا.

المطلب الأول

الإسلام التكويني والإسلام التكليفي

الإسلام في اللغة: الانقياد(١).

واصطلاحا: قال الكفوي: والإسلام أعمال الجوارح من الطاعات(٢).

وقيل: الإسلام من الشريعة إظهار الخضوع وإظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي ﷺ وذلك يحقن الدم ويستدفع المكروه(٣).

وقد ورد في القرآن الكريم مصطلح الإسلام في مواطن كثيرة بمعنى التكليف وهو ما سبق تعريفه، ومن تلك الآيات على سبيل المثال قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٤).

أما الإسلام التكويني ويعني الانقياد لإرادة الله وقدرته، وعدم الخروج عن تصرفه وتدبيره، فقد جاء منه قوله عز وجل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ تَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٥).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: وقد اختلفوا في بيان إسلام الطوع والكره،

---

(١) مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٤٦٩)

(٢) الكليات (ص: ١١٣)

(٣) المحكم والمحيط الأعظم (٨/ ٥١٤)

(٤) [سورة آل عمران آية ٨٤]

(٥) [سورة آل عمران آية ٨٢]

فذهب بعضهم إلى أن الإسلام هنا متعلق بالتكوين والإيجاد والإعدام لا بالتكليف، أي إنه ـ تعالى ـ هو المتصرف فيهم وهم الخاضعون المنقادون لتصرفه[1].

وذكر غيره من المفسرين لها معان منها ما روي عن عامر الشعبي: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال: استقاد كلهم له[2].

وقال الرازي رحمه الله: «الإسلام، هو الاستسلام والانقياد والخضوع. إذا عرفت هذا ففي خضوع كل من في السموات والأرض لله وجوه».

ثم بين الوجه الأول بأن جميع المخلوقات مفتقرة في إيجادها إلى الله فهي بذلك خاضعة، لإرادته إيجادا وإعداما فلا يتم لأحد وجود إلا بتكوين الله، ولا إفناء إلا بإفنائه، وبين الوجه الثاني بقوله:

«الوجه الثاني: في تفسير هذه الآية أنه لا سبيل لأحد إلى الامتناع عليه في مراده، وإما أن ينزلوا عليه طوعا أو كرها، فالمسلمون الصالحون ينقادون لله طوعا فيما يتعلق بالدين، وينقادون له كرها فيما يخالف طباعهم من المرض والفقر والموت وأشباه ذلك، وأما الكافرون فهم ينقادون لله تعالى على كل حال كرها لأنهم لا ينقادون فيما يتعلق بالدين، وفي غير ذلك مستسلمون له سبحانه كرها، لأنه لا يمكنهم دفع قضائه وقدره»[3].

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٢٩١)
(٢) تفسير الطبري (٦/ ٥٦٦وما بعده)
(٣) تفسير الرازي الكبير (٨/ ٢٨٠)

وهكذا نرى أن المخلوقات كلها أسلمت لله إسلام انقياد لإرادته وقدرته وتصرفه، وهذا كاف لغير المكلفين، أما المكلفون؛ فلا يتم لهم ولا يقبل منهم إسلام إلا بالانقياد لأمره التكليفي ونهيه، ولذا أنكر الله على الكفار ابتغاءهم دينا غير الإسلام.

المطلب الثاني

العبودية التكوينية والعبودية التكليفية

الفرع الأول: العبودة في اللغة:

قال ابن فارس: «العين والباء والدال أصلان صحيحان، كأنهما متضادان، الأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ»[1].

ولفظ العبد في القرآن الكريم يأتي وصفا لمجموعة من الأنبياء، كما ورد اسما للجنس مرادا به المؤمنون، أو اسم جنس مرادا بها الناس كافة مؤمنهم وكافرهم. أو بمعنى العبد المملوك.

وورد جمع هذه الكلمة (عباد) مضافا إلى الله أو الرحمن أو إلى ضمير راجع إلى الله عز وجل.

الفرع الثاني: العبودية التكوينية:

هذه العبودية يتصف بها المؤمن والكافر لأنهما معا تحت ربوبية الله أذلاء لإرادته القدرية التكوينية، فهم عبيد ربوبيته، مقهورون تحت تصرفاته عز وجل فيهم، خلقا وتصويرا وترزيقا وإحياء وإماتة، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

---

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٢٠٥)

ومن أمثلة تلك الآيات: قوله عز وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(1).

وقوله عز وجل ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾(2).

قال ابن عثيمين رحمه الله: «والمراد هنا العبودية الكونية القدرية، أما العبودية الشرعية فلا يكون عبداً لله إلا من كان ممتثلاً لأمره، مجتنباً لنهيه، مصدقاً بخبره»(3).

الفرع الثالث: العبودية التكليفية:

هي الامتثال لأمر الله التكليفي، وطاعته والانقياد لشرعه ولا يتصف بها إلا المؤمنون، فهم بذلك أكمل عبودية إذ هم عبيد ربوبيته خاضعين ـ كغيرهم ـ لأمره التكويني، وعبيد إلهيته، خاضعين ـ وحدهم ـ لأمره التكليفي، فهم عباد الله تكليفا واختيارا كما كانوا عبادا لله تكوينا واضطرارا، وقد ذكر الشاطبي رحمه الله أن «المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا»(4).

ومن أمثلة الآيات التي وردت فيها عبودية التكليف وهي كثيرة جدا

---

(1) [سورة الأعراف آية ١٩٤]

(2) [سورة مريم آية ٩٤]

(3) تفسير العثيمين: (ص: ٨١)

(4) الموافقات (٢/ ٢٨٩)

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

وقوله عز وجل: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۝ عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾[2].

وقوله عز وجل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾[3].

الفرع الرابع: أسلوب القرآن في التعبير عن العبوديتين:

ذكر ابن القيم رحمه الله أن العباد إذا كان مقصودا بهم أهل العبادة التكليفية يضافون إلى الله إضافة تشريف وتكريم من غير قيد.

وأما وصف عبيد ربوبيته (أهل عبادة التكوين) بالعبودية فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه: إما منكرا، كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾[4].

والثاني: معرفا باللام، كقوله عز وجل: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ﴾[5].

الثالث: مقيدا بالإشارة أو نحوها، كقوله سبحانه: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾[6].

---

(١) [سورة الذاريات: آية ٥٦]

(٢) [سورة العلق آية ٩ ـ ١٠]

(٣) [سورة الفرقان آية ٦٣]

(٤) [سورة مريم آية ٩٤]

(٥) [سورة غافر آية ٣١]

(٦) [سورة الفرقان آية ١٧]

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر، كقوله عز من قائل: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم[2]، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[3].

وابن القيم يرمي في هذا البيان إلى التنويه بأن مقام العبودية من أعظم المقامات التي يرتقي إليها المكلف، ولهذا وصف الله بها رسله في أشرف المنازل والمواقف، كما أن الله يضيف المتصفين بها إلى نفسه إضافة تشريف.

لكن ذلك إنما ينسحب على العبودية التي بمعنى التكليف، أما التي بمعنى التكوين فلا مزية للإنسان فيها، إذ هو يشترك فيها مع البهائم والجمادات وجميع المخلوقات.

❖ ❖ ❖

---

(١) [سورة الزمر آية ٤٣]

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٢٦)

(٣) [سورة الزمر آية ٥٠]

المطلب الثالث

الطاعة والتسبيح والنسيان

الفرع الأول: الطاعة:

الطاعة في اللغة: قال ابن فارس: الطاء والواو والعين أصل صحيح واحد يدل على الإصحاب والانقياد. يقال: طاعه يطوعه، إذا انقاد معه ومضى لأمره. وأطاعه بمعنى طاع له. ويقال لمن وافق غيره: قد طاوعه(١).

١ ـ **الطاعة التكوينية**: الانقياد لإرادة الله تبارك وتعالى، فجميع المخلوقات منقادة لله عز وجل فهي كلها طائعة ممتثلة لأمره التكويني، وأعني بها الانقياد والخضوع التكويني، فكل مخلوق لا يملك إلا أن يمشي على الخط الذي رسمه له واضع الكون وخالقه، فالبذرة تمشي في خطها منقادة من تشققها إلى ظهور أوراقها وقيامها على ساقها، إلى أن تصبح شجرة مثمرة، وكذلك السموات والأرض وما فيهن كلها على خط الطاعة لله والانقياد له.

يقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(٢).

قال الشيخ الطاهر بن عاشور: وقوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ تفريع على استوائه إلى السماء، والمورد مورد التكوين بلا شك

---

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٤٣١)

(٢) [سورة فصلت آية ١٠]

فقوله لها وللأرض: ﴿إِيتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ كلمة إيجاد وأمر تكويني كقوله لشيء أراد وجوده: كن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1] ومجموع قوله لهما: ﴿إِيتِيَا﴾ إلخ وقولهما له: ﴿أَتَيْنَا﴾ إلخ تمثيل لصفة الإيجاد والتكوين على الفهم الساذج العرفي.

وروي هذا التفسير عن مجموعة من المفسرين، كالطبري[2] والماتريدي[3] وعزاه مكي إلى المبرد وغيرهم[4].

ملاحظة: تفسير الطاعة بأنها طاعة تكوينية يطرح إشكالا كبيرا وهو كيف

(١) [سورة يس آية ٨١]

(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٤٣٩) قال رحمه الله: (قالتا أتينا طائعين) جئنا بما أحدثت فينا من خلقك، مستجيبين لأمرك لا نعصي أمرك

(٣) تفسير الماتريدي (٩/ ٦٧) قال رحمه الله: اختلف فيه أنه على التكوين والتسخير ما ذكر من الطوع والكره، أو على حقيقة القول والأمر في ذلك؟! قال بعضهم: ذلك على التكوين والتسخير خلقه، أي: إنشاؤهما وخلقهما على إخراج ما فيهما من المنافع والأقوات والأرزاق التي جعل فيهما، وكذلك ما ذكر من الطوع والكره لا قولا منه لهما وأمرا، لكنه طبعهما وأنشأهما كذلك على حقيقة القول والأمر منه لهما؛ نحو ما ذكر لكل شيء من الجبال وغيرها: أنه يسبح لله ـ تعالى ـ على الوجهين، لكن شرط خلق الحياة التي لا بد منها للنطق والسماع؛ فعلى ذلك هاهنا. ثم ذكر القول الثاني ثم قال: والإعطاء هو إعطاء الخلقة والتكوين على ما ذكرنا

(٤) قال: المبرد هذا إخبار عن الهيئة، أي: صارتا في هيئة من قال ذلك بتكوينه تعالى لما أراد فيهما، وقيل: معناه أنه أخبرنا الله (عز وجل) بما نعرف من سرعة الإجابة طائعين فخبر عن السماوات والأرض بسرعة التكوين على ما أراد. (الهداية إلى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٤٩٣))

تكون تكوينا وقد خيرهما الله عز وجل بين الطواعية والإكراه فاختارتا الطواعية، وأمر التكوين لا خيار فيه للمأمور؟

وقد أجيب عن هذا بأنه تمثيل، قال القرطبي: وقوله: ﴿فَالَتَآ أَتَيْنَا طَآبِعِينَ﴾ فيه وجهان: أنه تمثيل لظهور الطاعة منهما، حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما.

وفي المنتخب: ثم تعلقت قدرته بخلق السماء وهي على هيئة دخان فوجدت، وخلقه للسماوات والأرض ـ على وفق إرادته ـ هيِّن عليه بمنزلة ما يقال للشيء: احضر ـ راضياً أو كارهاً ـ فيطيع(١).

٢ ـ **الطاعة التكليفية** وهي انقياد لأمر الله التكليفي، كقوله عز وجل: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢) وهي كثيرة في القرآن الكريم.

الفرع الثاني: التسبيح التكويني والتسبيح التكليفي:

التسبيح في اللغة البراءة والتنزيه والتعجب(٣).

وفي الاصطلاح: تنزيه الحق عن نقائص الإمكان والحدوث(٤).

التسبيح التكويني: المقصود به أن الكون كله يلهج بتسبيح الخالق وتنزيهه، فما من ذرة من ذرات هذا الكون إلا وتنزه الله من الشريك ومن كل ما

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم (ص: ٧٠٨)

(٢) [سورة آل عمران آية ١٣٢]

(٣) جمهرة اللغة (١/ ٢٧٨)

(٤) التعريفات (ص: ٥٧) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٩٦) دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (١/ ١٩٩)

نسبه إليه الخراصون. ومن الآيات الدالة على هذا التسبيح: قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[2].

التسبيح التكليفي: هو التسبيح الذي أمر الله به المكلفين في نحو قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾[3].

وهو ثلاثة أنواع:

أ ـ التسبيح العلمي وهو العلم بأن الله منزه من جميع النقائص ومنزه عن الشريك والشبيه.

ب ـ التسبيح العملي وهو العمل بمرضاة الله ومنه سميت الصلاة تسبيحا.

ج ـ التسبيح اللفظي وهو قول العبد سبحان الله وغيره من صيغ التسبيح، وكل ذكر متضمن لتنزيه الله وتعظيمه.

الفرع الثالث: النسيان التكويني والنسيان التكليفي:

النسيان: إغفال الشيء، وتركه وقيل وهو عزوب الشيء عن النفس بعد حضوره لها[4]، فهو ضد الذكر.

---

(١) [سورة الحشر آية ١]

(٢) [سورة الإسراء آية ٤٣ ـ ٤٤]

(٣) [سورة الأعلى آية ١]

(٤) مقاييس اللغة (٥/ ٤٢١ ـ ٤٢٢)

ورد النسيان في آيات عديدة يبدو بعضها كأنها متعارض، فقد يقول البعض كيف يخبرنا الله في آيات عن أن المرء لا يؤاخذ على ما نسي، بينما ينهانا عن النسيان في آيات أخرى، ومعلوم أن ارتكاب المنهي عنه إثم يؤاخذ عليه، وهذا الإشكال مأتاه عدم التفريق بين النسيانين، فالنسيان في القرآن على ضربين.

النسيان التكويني(١): وهو النسيان الذي لا يؤاخذ عليه المرء، ولا يكلف باجتنابه، لأنه من خصائص تكوينه، حتى قيل إن الإنسان سمي إنسانا لأنه ينسى(٢)، ولو كلف باجتنابه لكان ذلك تكليفا بالمحال. والتكليف بالمحال محال.

وفي مثل هذا قال القائل:

لقد نسيته والنسيان مغتفر وإن أول ناس أول الناس

ومن الآيات التي وردت فيه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾(٣) ومنه كذلك الآيات التي خاطب فيها الله نبيه مثل قوله عز وجل:

---

(١) ولا يتزاحم مع تفريقنا هذا بين النسيانين تفريق من قال إن أحدهما عدم الذكر، والثاني تعمد الترك، كما لا يتزاحم التفريق بين الهدايتين بأن إحداهما هداية إرشاد والثانية هداية توفيق وبين الإرادتين بأن إحداهما مشيئة والثانية إرادة، وغير ذلك في كل المصطلحات السابقة، لأن العلل لا تتزاحم، ولا ينكر اختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات

(٢) قدم الفيلسوف طه عبد الرحمن لكتابه (روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية) بمقدمة رائعة جعل نسيان الإنسان محورها ومما قال فيها: «لو خيرت في وضع تعريفه [الإنسان] فما كنت لأعرفه بغير كونه الموجود الذي ينسى أنه ينسى) (ص ١٣)

(٣) [سورة البقرة آية ٢٨٥]

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[1] وقوله عز وجل: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

فالنسيان في هاتين الآيتين إثباتا ونفيا، من قدر الله وتكوينه، خارج عن قدرة النبي واختياره[3].

وأما النسيان التكليفي: فضابطه كل نسيان كلف العبد باجتنابه وثبتت المؤاخذة عليه، وهو في القرآن كثير فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[4].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[5] وغيرهما.

---

(١) [الأعلى: الآية ٦]

(٢) [سورة البقرة آية ١٠٥]

(٣) ولهذا فاعتبار (لا) في الآية ناهية ـ والألف المقصورة زائدة لمراعاة الفاصلة على غرار قوله فأضلونا السبيلا ـ غير سديد، بل لا في الآية نافية يخبر الله نبيه أنه لا ينسى القرآن

(٤) [سورة البقرة الآية ٢٣٥]

(٥) [سورة الكهف آية ٥٦]

المطلب الرابع

الصلاة والسجود والقنوت والخشية

الفرع الأول: الصلاة التكوينية والصلاة التكليفية:

١ ـ **الصلاة في اللغة** هي الدعاء والتعظيم والإتباع[١] وتوسعوا فسموا كل دعاء صلاة، إذ كان الدعاء تعظيما للمدعو، وقيل إن حقيقة صلى حرك الصلوين، لأن المصلي يفعل ذلك، قلت: الصلوان تثنية الصلا، وهو ما عن يمين الذنب وشماله، هذا أحد معاني الصلاة في اللغة.

والثاني: الدعاء، قال الأعشى:

(وقابلها الريح في دنها وصلى على دنها وارتسم)

والثالثة: من صليت العصا بالنار، إذا لينتها وقومتها، فالمصلي كأنه يسعى في تعديلها وإقامتها.

والرابعة من صليت الرجل النار، إذا أدخلته النار، أو من جعلته يصلاها، أي يلازمها فالمصلي يدخل الصلاة ويلازمها[٢].

٢ ـ **الصلاة التكوينية**: هي صلاة الوجود كله لله عز وجل، ووردت في القرآن في قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ

(١) شرح ابن ماجه لمغلطاي (ص: ١٥٤٠) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١/ ١١٩)
(٢) ينظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١/ ١١٩)

صَـٰٓفَّـٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَاللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(١).

قال سيد قطب: «وإن الكون ليبدو في هذا المشهد الخاشع متجها كله إلى خالقه، مسبحا بحمده، قائما بصلاته؛ وإنه لكذلك في فطرته، وفي طاعته لمشيئة خالقه الممثلة في نواميسه. وإن الإنسان ليدرك - حين يشف - هذا المشهد ممثلا في حسه كأنه يراه؛ وإنه ليسمع دقات هذا الكون وإيقاعاته تسابيح لله. وإنه ليشارك كل كائن في هذا الوجود صلاته ونجواه»(٢).

٣ - **الصلاة التكليفية**: هي الصلاة المعروفة ثم الصلاة على النبي وكذلك الدعاء والاستغفار للحي أو للميت وهذه أمور معروفة مذكورة فلا نطيل بها.

الفرع الثاني: السجود التكويني والسجود التكليفي:

السجود يدل في اللغة على التطامن والذل والخضوع(٣).

وفي الاصطلاح: «مس الأرض أو ما اتصل بها من سطح محل المصلي كالسرير بالجبهة والأنف»(٤).

وهذا تعريف **للسجود التكليفي**، وقد ورد في القرآن من هذا الضرب بمعان هي: سجود الصلاة، وسجود التكريم والتحية، وسجود التلاوة، في نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(٥).

---

(١) [سورة النور آية ٤٠]

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٥٢٢)

(٣) انظر: مقاييس اللغة (٣/ ١٣٣)

(٤) شرح حدود ابن عرفة (ص: ٥٨)

(٥) [سورة مريم آية ٥٨]

أما سجود التكوين فهو خضوع وتذلل جميع الكائنات له سبحانه قال المناوي(١) مقسما السجود إلى تكليفي وتكويني: السجود:... ضربان: سجود باختيار، وليس إلا للإنسان، وبه يستحق الثواب. وسجود بتسخير وهو للإنسان والحيوان والنبات ومنه ﴿وَلِلهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلِلهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾(٣).

ويقول عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(٤).

إشكال، وإجابة عنه:

السجود في الآية الأخيرة هل هو تكويني أم تكليفي الإجابة عن هذا السؤال - كيفما كانت - تنطوي على إشكال، فإن قلنا إنه تكويني، فلما استثني الإنسان؟ والقاعدة أن الأفعال التكوينية عامة لأنها مرتبطة بالأمر القدري الذي لا يوكل إلى الاختيار، فالإنسان فيها كغيره من مخلوقات الله.

---

(١) التوقيف على مهمات - التعاريف (ص: ١٩٠)

(٢) [سورة الرعد آية ١٦]

(٣) [سورة النحل آية ٤٩]

(٤) [سورة الحج آية ١٨]

وإن قلنا إنه تكليفي، فهل الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب مكلفة؟

والجواب عن هذا ـ والله أعلم ـ أن الله خلق خلقه وأمرهم وسخرهم لتنفيذ كثير من جوانب هذا الأمر جبرا، بينما استخلف الإنسان في تنفيذ جانبا منه اختيارا، ولهذا لا يدخل الخلل دائما إلا في المنطقة التي تركت لاختيار الإنسان وإرادته، فأمر الله واحد ذو طبيعتين جبرية واختيارية، أو تكوينية وتكليفية، وإنما خوطب الإنسان بطبيعتي الأمر كليهما، لأنه هو نفسه ذو طبيعتين، طبيعة مرتبطة بالأرض يمثلها جسده المادي، ويلائمها الأمر التكويني الجبري، وطبيعة سماوية وتمثلها النفخة الروحية، ويلائمها الأمر التكليفي الموكول إلى حرية الإنسان واختياره وإرادته، ولهذا لا يقبل ولا يحسب له أي فعل ما لم ينصبغ بالطبيعتين، التكوينية المتصلة بالجانب المادي ـ وهي بالضرورة دائمة الثبوت ـ والطبيعة التكليفية الموصولة بالجانب الروحي، ولذا نفت الآية السجود عن كثير من الناس، ذلك لأن سجود الإنسان وخضوعه التكويني مع كافة الكائنات لا يكتمل ومن ثم لا يعتبر إلا بالسجود الاختياري وإلا كان سجودا بلا روح.

الفرع الثالث: القنوت التكويني والقنوت التكليفي:

القنوت في اللغة الطاعة[1]، وورد في القرآن الكريم بالمعنى التكويني، والمعنى التكليفي.

---

(١) مقاييس اللغة

فالتكويني منه ما كان متعلقا بأمر الله التكويني كقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾[1].

قال المفسرون أي مطيعون والمقصود بالطاعة هنا طاعة الأمر التكويني، «فكل من في السماوات والأرض من خلق الله مطيع في تصرفه فيما أراد تعالى ذكره، من حياة وموت، وما أشبه ذلك، وإن عصاه فيما يكسبه بقوله، وفيما له السبيل إلى اختياره وإيثاره على خلافه»[2].

أما القنوت التكليفي فهو طاعة الله في أمره ونهيه ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾[3] وقد ورد في القرآن بمعنى الصلاة أو القيام أو الدعاء فيها، قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾[4] وبمعنى الخضوع والخشوع والسكوت فيها «قال عز وجل: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾»[5].

الفرع الرابع: الخشية التكوينية والخشية التكليفية:

الخشية في اللغة: الخوف والذعر[6] وفي الاصطلاح: تألم القلب بسبب

---

(١) [سورة الروم آية ٢٥]

(٢) الطبري (٢٠/ ٩١)

(٣) [سورة الأحزاب آية ٣١]

(٤) [سورة الزمر آية ١٠]

(٥) [سورة البقرة آية ٢٣٦]

(٦) مقاييس اللغة (٢/ ١٨٤)

توقع مكروه في المستقبل، يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته. وخشية الأنبياء من هذا القبيل(١).

والفرق بين الخشية والخوف أن الخشية تستلزم تعظيم المخشي أما الخوف فلا يستلزمه(٢).

الخشية التكوينية وردت في القرآن وصفا للحجارة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾(٣).

أما الخشية التكليفية، فهي خوف المؤمن من ربه وتعظيمه له، وقال ابن القيم: الخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(٤) فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ «إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية»(٥). فالخوف حركة، والخشية انجماع، وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك له حالتان:

إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه، وهي الخشية(٦).

---

(١) التعريفات (ص: ٩٨)

(٢) الكليات (ص: ٤٢٨)

(٣) [سورة البقرة آية ٧٣]

(٤) [سورة فاطر آية ٢٨]

(٥) صحيح مسلم (٢/ ٧٧٩) ٧٤ ـ (١١٠٨) بلفظ: «أما والله، إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له»

(٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٥٠٨)

خاتمة واستنتاجات الفصل

ذكرت في هذا الفصل خمسة وعشرين مصطلحا، ستة عشر منها هي من أفعال الله عز وجل، وتسعة؛ هي من أفعال الخلق، وفي نهاية هذا الفصل أذكر خلاصات واستنتاجات لما سبق ذكره.

أولا الفروق بين المفهومين:

١. يجوز أمر المعدوم في الأمر التكويني لأن المعدوم موجود في علم الله فهو موجود بالقوة وإن كان معدوما بالفعل وأما الأمر التكليفي فلا يخاطب به المعدوم إلا على وجه الصلوحية[١].

٢. التكوين أعم باعتبارات ثلاث:

- دخول جميع المخلوقات تحته بينما التكليف خاص بالجن والإنس.
- ولأن كل موافق لخطاب التكليف، موافق بالضرورة لخطاب التكوين، ولا

---

(١) التعلق الصلوحي مقابل التعلق التنجيزي: ويسمى التعلق القديم والتعليق العقلي، أي: توجه الحكم في الأزل إلى من علم الله وجوده، مستجمعا شرائط التكليف. قال البناني: فللكلام المتعلق بفعل المكلف تعلقان صلوحي وتنجيزي، والأول قديم، والثاني حادث، بخلاف المتعلق بذات الله وصفاته فليس له إلا تعليق تنجيزي قديم «حاشية البناني ١/ ٤٨». وانظر: مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (١/ ٣٣٦) والأصل الجامع لإيضاح الدرر المنظومة في سلك جمع الجوامع (١/ ٦) وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول (١/ ٣٨)

ينعكس. فمن أطاع وافق الخطابين، ومن عصى وافق خطاب التكوين فحسب.

- ولأن خطاب التكوين يدخل فيه ما يحبه الله ويرضاه وما لا يحبه ولا يرضاه بينما لا يدخل في خطاب التكليف إلا ما يحبه الله عز وجل ويرضاه.

ولهذا يُعطف التكليف على التكوين وهذا هو المعهود في تعابير العلماء وهكذا ورد في القرآن بمصطلح الخلق والأمر (ألا له الخلق والأمر)، وهو من باب عطف الخاص على العام.

٣. الفرق باعتبار الفعلية: التكوين متعلق بأفعال الله عز وجل، بينما يتعلق التكليف بأفعال العبد. (فالتكوين فعله فيك وبك والتكليف فعلك له أو لغيره).

٤. التكوين متعلق بربوبيته وخلقه، والتكليف متعلق بإلهيته وأمره.

٥. التكوين أمر قدري ليس للعبد فيه خيار، بينما التكليف هو أمر تشريعي للعبد فيه خيار.

٦. التكوين أمر لا يتعلق به ثواب ولا عقاب من حيث إنه تكوين، والتكليف هو متعلق الثواب والعقاب.

٧. خطاب التكوين لا يتوقف على علم العبد به وفهمه بينما خطاب التكليف متوقف على العلم به وفهمه.

ثانيا: الفوائد المستخلصة:

١. أن إرادة الله التكوينية بالرغم أنها تتعلق بما يحب الله وما لا يحب، فلم يرد في القرآن أن الله يريد إضلال قوم أو فتنتهم إلا في سياق الشرط أو النفي.

٢. الأمر التكويني هو كذلك عام يشمل ما يحبه الله ويرضاه وما لا يحبه ويرضاه، ولكن لم يرد في القرآن أن الله يأمر بشيء لا يرضاه.

٣. الإذن: كل ما ورد فيه بصيغة الفعل فهو تكليفي، وأما التكويني، فلم يرد إلا بصيغة الاسم المضاف إلى الله أو إلى ضمير راجع إليه، وذلك أن التعبير الفعلي يؤذن بتعلق هذا الإذن بجزئيات أفعال المكلفين التي يتجدد حدوثها، أما الإذن التكويني فيؤذن التعبير عنه بصيغة الاسم المفرد المضاف[1] بالثبوت والعموم.

٤. الإضلال والهداية وردا في القرآن بالمعنى التكويني، مطلقين، ووردا مقيدين، فوجب حمل المطلق فيهما على المقيد.

٥. ليس المقصود بالتزييل بين مفهومي كل مصطلح، مجرد الفصل والتفكيك، والتعضية بين مفاهيم الكلمة الواحدة، بل الغاية الإبانة والتمييز حتى يوضع كل مفهوم في محله، مع استحضار أن تعبير القرآن عن تلك المعاني بألفاظ مشتركة لا بد أن تكون وراءه حكم وأسرار، نستشف بعضها من هذه الأمثلة:

فأمر الله ـ مثلا ـ واحد، يستوجب الامتثال، فكما تستجيب جميع المخلوقات لأمره التكويني ضرورة، فالأصل أن يكون الأمر التكليفي كذلك، لكن لخروج الإنسان الضال عن الفطرة، صار شاذا عن بقية الكائنات في تلقيها لأمر الله.

---

(١) المفرد المضاف من صيغ العموم بل قال الزركشي: الإضافة أدل على العموم من الألف واللام (البحر المحيط في أصول الفقه (٤/ ١٤٧)

وكذلك ـ وعلى سبيل المثال أيضا ـ البعث ورد بالمفهومين، جاء بمعنى الإحياء بعد الإماتة ـ وهو البعث التكويني ـ، وجاء في بعث الرسل ـ وهو البعث التكليفي ـ وسمي بعثا لما فيه من إحياء للأمة الضالة بعد موتها.

ومما يحسن التمثيل به كذلك الهداية، فالهداية بالمعنى التكويني إنما هي نوع من الامتداد للهداية بالمعنى التكليفي، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(1) فأهل هذه أهل تلك، واتحاد اللفظ يوحي باتحاد المصدر والمورد.

٦. ورود بعض المصطلحات محتملة للمعنيين، ربما فيه تأكيد لما سبق من أن كل مفهوم يحمل معه إيحاءات شقيقه، وورودها كذلك على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يحتمل المعنيين مع تعذر اجتماعهما، فوجب ترجيح أحدهما كالإذن في الآية الخامسة من سورة الحشر(2). والأمر من الآية ١٦ من سورة الإسراء(3).

الوجه الثاني: أن يحتمل المعنيين مع إمكانية قصدهما معا كالحكم والإيتاء في بعض مواردهما.

---

(١) [سورة محمد آية ١٨]

(٢) ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]

(٣) ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]

الوجه الثالث: أن يحتمل المعنيين وتصريف كل معنى إلى محل غير محل الأول: ومثاله السجود في الآية ١٨ من سورة الحج[1] فالثابت لغير المكلفين تكويني، والمنفي عن المكلفين تكليفي والمصطلح واحد.

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ﴾ [الحج: ١٨]

الفصل الثالث
العلاقات بين التكوين والتكليف

وتحته مباحث:

المبحث الأول: علاقة التناسق والانسجام (العلاقة التناسبية).

المبحث الثاني: علاقة الاستدلال (العلاقة الاستدلالية).

المبحث الثالث: علاقة التكامل والتوازن (العلاقة التكاملية).

المبحث الرابع: علاقة الثواب والجزاء (العلاقة السببية).

تمهيد

العلاقة بين التكوين والتكليف، تتحدد تبعا للبيئة الفكرية المؤطرة لتصورات أصحابها حيال الكون وعلاقة الإنسان به، وعلة وجود الإنسان في هذا الكون وغايتُه. وبالتصور التي تنبني عليه العلاقة بين المكوِّن (الله عز وجل) والمكلَّف (الإنسان).

وتصورات الإنسان نحو الكون يمكن أن ألخصها في أربع تصورات:

التصور الوثني.

التصور الكنسي.

التصور العلماني.

التصور الإسلامي.

فأما التصور الوثني فقد تعددت أشكاله وهو ينبني على تعدد الآلهة وكثرة المتدخلين في الأمر التكويني. ومن أبرز هذه التصورات التصور اليوناني، وهو أصل الحضارة الغربية في جانب من جوانبها، وهذا التصور مبني على الصراع بين المكلَّف (الإنسان) والمكوِّن (الإله) إذ يرى أن (الإله) «زيوس» لما خلق الإنسان رماه في الظلمات ومنع عنه النور، ووكل عليه «برومثيوس» محذرا إياه من تقديم شعلة النور التي هي رمز للمعرفة والعلم للبشر، لكن «برومثيوس» هذا استطاع أن يسرق الشعلة ويهديها إلى البشر، الشيء الذي أغضب الإله فقيد «برومثيوس» وألقاه في ظلمات «تارتاروس» ومارس عليه جميع أشكال العذاب عقوبة له على إهدائه الضياء وسر المعرفة إلى البشر.

وينتج من هذا التصور عدم إقامة أية علاقة بين تكوين الخلق وتكليف المكلف منهم، إلا علاقة الانفصال والتصادم، إن صح أن يسمى الانفصال والتصادم علاقة.

أما التصور الكنسي فبالرغم من إيمانه بوجود خالق للكون مهيمن عليه إلا أنه ملوث بالشوائب الوثنية في تصوره للإله وغاية الخلق، فحين يغضب الله في العقيدة الوثنية اليونانية لامتلاك الإنسان لسر المعرفة وسر النار المقدسة، فالإله في العقيدة الكنسية كذلك يمنع الإنسان من شجرة المعرفة حتى لا يتمكن من أن يميز الخير من الشر، «وأمر الرب الإنسان قائلا: من جميع أشجار الجنة تأكل أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، فإنك يوم تأكل منها تموت موتا»(١) ويغضب حين استطاع آدم أن يطعم من شجرة المعرفة بإيعاز من الشيطان، وهذا تتمة ما افتروه على الله:

«وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط الجنة، فنادى الرب الإله آدم، وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة، فخشيتك، لأني عريان، فاختبأت، فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟...

وقال الرب الإله: هوذا الإنسان صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن

(١) الكتاب المقدس (ص ٧١ ــ ٧٢) الرواية الثانية لخلق العالم ملا حظة ورد هذا في (الإصحاح الثاني ١٧ ــ ١٨) لكن النسخة الشرقية طبعة دار المشرق التي اعتمدتها معنونة ولم تقسم إلى إصحاحات

لعله يمد يده، ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، أو يأكل ويحيا إلى الأبد، فأخرجه الربّ الإله من جنة عدن، ليعمل في الأرض التي أخذ منها، فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن»(١).

وعلى نفس المنوال أرادت العقيدة الكنسية أن تسد على الناس جميع مصادر المعرفة والهداية إلا ما جاء من مشكاتها. فوقع التناقض بين الحقائق العلمية التي توصل إليها الإنسان وبين العقائد التي تبشر بها الكنيسة باسم الله وبين مصلحة الإنسان وأوامر الكنيسة، فلا غرابة أن تسود علاقة التصادم والتنافر بين تكوين الإنسان وتكليفه.

ويلاحظ هنا التشابه بين الأصول الوثنية والأصول الدينية للتصور الغربي، فلا غرابة أن يؤديا إلى صراع بين الإنسان ومصدر هذه التصورات وهو عندهم الدين والله ـ تعالى عما يصفون علوا كبيرا ـ هذا الصراع الذي تجسد في الثورة على الدين والكنيسة.

أما التصور العلماني فهو تصور مادي مؤسس على حقائق تجريبية تأبى الاعتراف بأي شيء لا تدركه التجربة والحس والخبرة، والنتيجة الطبيعية لهذا التصور رفض الإيمان بالله، ومن آمن منهم بالله جاء بإيمان أعور، لا يرى الله مدبرا ولا مشرعا، فيثبت له الإيجاد والتكوين دون التشريع والتكليف.

وليس هذا بالعجب في تصور أعور موصوم بالقصور في نظره، فلا يرى

(١) الكتاب المقدس العهد القديم سفر التكوين: (ص: ٧٣ ـ ٧٤) دار المشرق (الإصحاح الثالث ٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢)

الجانب الروحي في الإنسان ولا الجانب الأخروي في الحياة ولا الجانب الغيبي في الوجود.

أما التصور الإسلامي فهو ينبني على الإيمان بالله الخالق المدبر، الذي له الخلق والأمر، أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، خلق الإنسان وأحسن خلقه، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له الملائكة، وسخر له السماوات والأرض وما فيهن من أجرام ونبات وحيوانات وغير ذلك، وأكرمه بالعقل والتكليف ودعاه إلى العلم وكلفه بما لا تتحقق سعادته في الدارين إلا به، وأقام له البراهين والأدلة على ذلك، ثم وعد من خضع للبراهين واستجاب لأمر الله بالثواب، ومن جحدها واستجاب لأمر الهوى بالعذاب.

والعلاقات بين التكوين والتكليف انطلاقا من هذا التصور علاقة انسجام وتوازن وتكامل لكونهما من مصدر واحد هو الله عز وجل، ولغاية واحدة هي تحقيق السعادة للإنسان، وهي كذلك علاقة استدلال وعلاقة ثواب. وهذه العلاقات هي التي ستشكل مباحث هذا الفصل، فأتحدث في المبحث الأول عن علاقة الوحدة والانسجام، لأعرج في الثاني على علاقة الاستدلال والاستنباط، وفي المبحث الثالث أتناول علاقة التكامل والتوازن، ومن ثم أختم العلاقات في المبحث الرابع بعلاقة الثواب والجزاء. هذا؛ من غير أن أدعي الإحاطة بجميع العلاقات بين الأمرين.

وقبل سبر غور هذه المباحث أبين مقصودي من مصطلحي الربط بين التكوين والتكليف والفصل بينهما.

الوصل، والفصل، بين التكوين والتكليف، وما في معنى الوصل والفصل،

تعبير ناشئ عن التصور بأن التكوين والتكليف كلاهما من عند الله عز وجل، فإن الله يدبر هذا الكون بأمرين أمر ينفذ الله مقتضياته في خلقه مباشرة، بحيث لم يوكل أحدا على تنفيذه، وأما الأمر الثاني فهو أمر لله كذلك لكن الله وكّل الإنسان على تنفيذه، وبما أن الأول نافذ ضرورة، والثاني مرتبط بإرادة الإنسان، فالوصل والفصل بينهما لهما بعدان:

البعد الأول تصوري فالوصل بينهما إثباتهما معا لله عز وجل، وذلك بالاعتقاد الجازم بأن التكوين والتكليف كلاهما لله عز وجل، فهو الخالق والحاكم، والمدبر والمشرع. أما الفصل بين الأمرين فيكون بجعل الأول لله ـ وهو له وإن جحد المتكبرون ـ والثاني إلى الإنسان، فيكون لله الخلق وما إليه من أمر التكوين، بينما يشرع الإنسان لنفسه، فيحلل ويحرم ويمنع ويبيح.

البعد الثاني عملي وهو جعل الأمرين مرتبطين وذلك بتنفيذ أمر الله التكليفي، موازاة مع أمره التكويني، والفصل يكون بعصيان أمر الله التكليفي، ومن ثم ينفصل عن الأمر التكويني إذ يقع الأمر التكويني وحده ـ لأنه واقع ضرورة ـ دون التكليفي.

المبحث الأول
علاقة التناسق والانسجام
(التناسبية)

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التكوين والتكليف من مصدر واحد.

المطلب الثاني: انسجام التكليف مع تكوين الإنسان قدرةً وطبيعةً.

المطلب الثالث: الانسجام والتناسق بين موارد التكليف وموارد التكوين.

المطلب الأول
التكوين والتكليف من مصدر واحد

قال لي صاحبي وهو يحاورني: لا أدري لم تصرون على تطبيق أحكام وضعت أصلا لأقوام تفصلنا بهم مسافات زمانية بعيدة، ودرجات في سلم الحضارة الإنسانية، تصرون على هذا وأنتم تشاهدون الناس من حولكم يطورون تشريعاتهم في كل عقد بل في كل سنة ليواكبوا المستجدات، استرسل صاحبي في ذكر بعض الأمور التي لم يعد مقبولا قبولها، ثم ختم حديثه بعد بتنهيدة حارة بقوله: لم لا نغير نحن كذلك قوانيننا ومناهجنا لنواكب العصر ونتخلص من هذه والأثقال التي تزج بنا في ظلمات الماضي، والأوهاق التي تعيق سبيلنا نحو التقدم والانعتاق؟؟.

قلت لصاحبي لم لم تفكر في تغيير تكوين هذا العالم الذي نعيش فيه، وهذه الأرض التي لم تزل على الحالة ذاتها والدوران نفسه، بل لم لم يفكر الإنسان في تغير خلقه، ويبحث له عن شكل هندسي جديد معاصر، لم رضي بهذا الشكل الذي لازمه مئات القرون.

فإذا اعترف بعجزه عن أن يأتي بخلق غير خلق الله، فلم إذا يتجرأ على أمر الله، وكلاهما لله، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

---

(١) [سورة الأعراف آية ٥٣]

إن فاعل هذا التكوين الذي انبهر العالم ولا يزال ينبهر أمام إتقانه وحسنه، والذي لا تزال العقول البشرية عاجزة عن إدراك معظم أسراره وحقائقه، وخالق هذا الإنسان منذ ملايين السنين على الصورة التي لا تزال صالحة بل معجزة إلى يومنا هذا.

إن خالق هذا كله هو واضع هذه الأحكام، وهو أعلم بما وضع، ولماذا وضع، ولمن وضع، فعلمه محيط بجميع الكائنات كليها وجزئيها حاضرها وغائبها[1]، وبأعماق النفس البشرية وحركاتها في الزمان والمكان، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3] فهو - سبحانه - صاحب الخلق والأمر «الذي يملك أن يعدل بين الجميع وأن يجيء منهجه وشرعه مبرأ من الهوى والميل والضعف - كما أنه مبرأ من الجهل والقصور والغلو والتفريط - الأمر الذي لا يمكن أن يتوافر في أي منهج أو في أي شرع من صنع الإنسان، ذي الشهوات والميول، والضعف والهوى - فوق ما به من الجهل والقصور - سواء كان المشرع فردا، أو طبقة، أو أمة، أو جيلا من أجيال البشر... فلكل حالة من هذه الحالات أهواؤها وشهواتها وميولها ورغباتها، فوق أن لها جهلها وقصورها وعجزها عن الرؤية الكاملة لجوانب الأمر كله، حتى في الحالة الواحدة في الجيل الواحد»[4].

---

(١) البحر المحيط في التفسير (٦/ ٢٣٠)

(٢) [سورة الملك آية ١٥]

(٣) [سورة المائدة آية ٥٢]

(٤) في ظلال القرآن (٢/ ٨٩٠)

وعبثا ما يقارن العابثون بين القوانين البشرية الوضيعة الوضعية، وبين تشريع العليم الحكيم، فليقارنوا بين مصنوعاتهم ومصنوعاته عز وجل.

أو ليس يصنع الإنسان أشياء، فما ينشب أن يكتشف بعض النقصان في مصنوعاته فيعدله، وهكذا في سلسلة غير متناهية من تدارك النقص السابق، وتعديل الخطإ الفارط، مما يدل على محدودية العلم البشري وجهله، وهذه المحدودية والجهل تتجلى كذلك في المناهج والتشريعات التي يضعها والتي ما يلبث أن يكتشف ثغراتها فيعقبه بتعديلات فتغييرات...، يحسبها الغافل حيوية وذكاء، وهي في الحقيقة دلالة على حيرة الإنسان وتخبطه وقلة حيلته وقصر نظره.

لقد تعلقت إرادة الله بالتراب فكونته بشرا سويا عاقلا حكيما سميعا بصيرا مبدعا، كما اقترنت إرادته جل شأنه بالكلمة، فجعلت منها منهاجا قويما قرآنا عجبا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من اتبعه وصل، ومن حكم به عدل، ومن زاغ عنه ضل.

فقل لي بربك أيهذا المغرور الداعي إلى نسخ تشريع الله بتشريعه، واستبدال تكليفه بتكليف الله، فقل لي: ماذا يكون التراب إذا اقترنت به إرادتك، أو ليست التماثيل الصماء الخرصاء، هي أفخرَ ما صنعته يداك لما وجهت كل إرادتك وإبداعك إلى التراب، وعلى مثلها جاءت كلماتك لما اتصلت بها إرادتك، فصغ منها إن شئت تشريعات تحكم بها تماثيلك الصماء ودع للخالق خلقه. واعلم «إنّ الشريعة الإسلامية ثابتة ثبوت القوانين الكونية، فقانون الجاذبية، وقانون المدّ والجزر، وقانون تمدّد المعادن بالحرارة، كلها قوانين ثابتة، والشريعة كذلك. لأن الذي قنّن الشريعة، هو الذي قنّن القوانين الكونية. والقرآن يُؤكد هذا المعنى فيقول.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[1] فقوانين الكون ثابتة. ويقول أيضاً: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾[2] فقوانين الشريعة ثابتة أيضاً»[3]. فلا أحد يناقش في ثبوت القوانين الكونية. لأنّه أمر مشاهد. ولكنهم يناقشون ثبوت القوانين الشرعية فقط. لجهلهم أنه «من الصعب أن نُفرق بين قوانين الخَلْق، وقوانين الأَخْلَاق. لأنّ الله سبحانه ـ راعى الجانب الأخلاقي في تكوين الإنسان. فالمهندس المدني عندما يضع رسماً لإنشاء مصنع، فإنه يضع في اعتباره نوع الأغراض التي سينتجها هذا المصنع. وضمانات السلامة له. والله سبحانه وتعالى وله المثل الأعلى لما خلق الإنسان جعله مخلوقاً أخلاقياً، ووضع فيه ما يؤهله لمهمته»[4]. وبما أن «هذه البشرية ـ وهي من صنع الله ـ لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده ـ سبحانه ـ وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق، وشفاء كل داء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[5] ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[6]، ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه، ولا تسلك في أمر نفسها، وفي أمر إنسانيتها، وفي أمر سعادتها أو شقوتها... ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة

---

(١) [سورة الروم آية ٢٩]

(٢) [سورة يونس آية ٦٤]

(٣) شريعة الله يا ولدي (ص: ١١)

(٤) شريعة الله يا ولدي (ص: ١٢)

(٥) [سورة الإسراء آية ٨٢]

(٦) [سورة الإسراء آية ٩]

والآلات المادية الزهيدة، التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة... وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذي صنع الجهاز. ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه، فترده إلى المصنع الذي منه خرج، ولا أن تستفتي المبدع الذي أنشأ هذا الجهاز العجيب، الجهاز الإنساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف، الذي لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذي أبدعه وأنشأه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(١)(٢).

إن العلمانيين بدل أن يخضعوا لإرادة الله التكليفية، باتوا يتحسرون ويستشعرون الأسى إزاء وجودهم الذي ثبت بغير إرادتهم(٣)، هذا التحسر ترشح به أشعارهم وأعمالهم الأدبية. وكل إناء بالذي فيه يرشح.

واتحاد التكوين والتكليف في المصدرية ينشأ عنه تقاسمهما لعدد من الخصائص كخاصية الإتقان والإحكام وخاصية الحسن فالله عز وجل قد قدر وأمر، وصنع وشرع، وأبدع ومنع، وذلك كله بإحكام وإتقان وجمال وإحسان يقول عز من قائل متحدثا عن خلقه وصنعه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(٤) ويقول عن شرعه: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾(٥) وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ

---

(١) [سورة الملك آية ١٤ ـ ١٥]

(٢) في ظلال القرآن (١/ ١٥)

(٣) روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية طه عبد الرحمن (ص ١٩١)

(٤) [سورة النمل آية ٩٠]

(٥) [سورة البقرة آية ١٣٧]

﴿حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1] والله سبحانه خلق الإنسان وصوره في أحسن صورة وأقسم عز وجل على ذلك بمحل بعثة رسله ومهبط شرائعه[2] فقال: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾»[3]. قال الشيخ الطاهر بن عاشور: احتوت هذه السورة على التنبيه بأن الله خلق الإنسان على الفطرة المستقيمة ليعلموا أن الإسلام هو الفطرة... والتعريض بالوعيد للمكذبين بالإسلام. والإشارة بالأمور المقسم بها إلى أطوار الشرائع الأربعة[4] إيماء إلى أن الإسلام جاء مصدقا لها وأنها مشاركة أصولها لأصول دين الإسلام. والتنويه بحسن جزاء الذين اتبعوا الإسلام في أصوله وفروعه. وشملت الامتنان على الإنسان بخلقه على أحسن نظام في جثمانه ونفسه[5].

لكن ما مصير هذا الإنسان المكرم بأحسن الخلق تكوينا، وبأكمل الشرائع تكليفا؟ إن مكانته ومصيره متوقف على موقفه من **التكليف** الإلهي فإن تمرد

---

(١) [سورة المائدة آية ٥٢]

(٢) وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبيا مرسلا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، فالأول: محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم. والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمنا، وهو الذي أرسل فيه محمدا ﷺ. تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٣٤)

(٣) [سورة التين آية ١ ـ ٤]

(٤) يقصد شريعة نوح وإبراهيم وموسى ونبينا ﷺ كما في تفسيره (ص: ٤٢٢)

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٩ ـ ٤٢٠)

ورفض كان ممن له كفل في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾[1] وإن هو استجاب وترقى في سلم التكليف والتكريم والتشريف، كادحا إلى ربه، بلغ الكمال المرادَ له، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾[2] بلى سبحانه وتعالى هو أحكم الحاكمين في خلقه وتكليفه وجزائه. إن صفات العلم والحكمة والعدل والقدرة كما تتجلى في خلقه وتكوينه، تتجلى كذلك في تشريعه وتكليفه، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3] «فصفة الحكمة والعلم... هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته»[4].

فالله عز وجل خلق فزين وأتقن، وشرع فأحكم وأحسن، فما على المخلوق المكلف إلا أن يتقن العبادة والعمارة ويحسن العمل، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[5].

❁ ❁ ❁

---

(١) [سورة التين آية ٥]

(٢) [سورة التين آية ٦ ـ ٨]

(٣) [سورة يوسف آية ١٠٠ و٨٣]

(٤) الرسالة التبوكية (زاد المهاجر إلى ربه) (ص: ٦٩)

(٥) [سورة الكهف آية ٧]

المطلب الثاني

انسجام التكليف مع تكوين الإنسان قدرة وطبيعة

الفرع الأول: انسجام التكليف مع تكوين الإنسان في قدرته:

لقد رفع الله عن هذه الأمة الإصر والمشقة التي أدخلتها البدع البشرية على الدين، فلم **يكلفها** إلا ما يناسب **تكوينها** وما تحت طاقتها ووسعها، قال ابن العربي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1] هذا أصل عظيم في الدين، وركن من أركان شريعة المسلمين شرفنا الله سبحانه على الأمم بها، فلم يحملنا إصرا، ولا كلفنا في مشقة أمرا[2].

ولأجل هذا نهى الإسلام عن إرهاق النفس في العبادة وحرم بعض الممارسات التي ظن بعض الناس أنها تقربهم إلى الله عز وجل؛ مثل الوصل في الصيام، وصيام الدهر، وقيام الليل كله، والرهبنة، وترك المباحات، والنصوص في ذلك متضافرة بحيث تَكَوَّن من مجموعها أصل كلي[3].

وشرع الرخص وحث على الأخذ بها عند الحاجة، وتجنب البدع والزيادة في الدين، ونهى عن السؤال عن ما سكت عنه الشرع، مخافة أن يحرم أو

---

(١) [سورة البقرة آية ٢٨٥]

(٢) القرآن لابن العربي ط العلمية (١/ ٣٤٧)

(٣) عبر عنه الأصوليون والفقهاء بقواعد مختلفة، كالحرجُ مرفوع، والمشقة تجلب التيسير، والضرر يزال، والتكليف بما لا يطاق محال، وغيرها

يفرض، وكف ﷺ عن أعمال مخافة أن تفرض على الأمة، كما ترك بعض الأوامر لمظنة المشقة فيها، وغير ذلك.

ولهذا استشْكل ربط الأصوليين التكليف، بالمشقة عند تعريفهم للتكليف، وقد أجيب على ذلك بأجوبة لن نطيل بذكرها.

وأكتفي بكلام نفيس لابن تيمية قال رحمه الله: «إن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن، لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم: إن عبادته تكليف ومشقة وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار، أو لأجل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزلة وغيرهم؛ فإنه وإن كان فى الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس - والله - سبحانه - يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾[1] وقال ﷺ لعائشة: «أجرك على قدر نصبك[2]» - فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعي[3]، وإنما وقع ضمنا وتبعا لأسباب ليس هذا موضعها،... ولهذا لم يجئ في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح: أنه تكليف، كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة». أهـ[4].

---

(١) [سورة التوبة آية ١٢١]

(٢) مسند أحمد (٤٠/ ١٨٩) رقم) ٢٤١٥٩) وأصله عند البخاري ومسلم

(٣) انظر في تحرير هذه المسألة «الموافقات» (٢/ ٢١٠)

(٤) قاعدة جامعة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة (ص: ٣٦)

وهذا قول سديد موافق لعبارات الشارع ومقاصد الشريعة، وقد أحسن الشيخ الطاهر بن عاشور إذ عد ترك الكُلفة من المعينات على صلاح الأعمال ودوامها[١] لا من لوازمها، والفقهاء والأصوليون أيضا نصوا على أن المشقة تجلب التيسير، ولهم جولات وصولات في موضوع المشقة، وأقسامها، والمعتبر في التيسير منها وغير المعتبر.

ولذا فمن لغو الكلام بيان أن المشقة التي يجعلها الأصوليون والفقهاء من لوازم التكليف، غير المشقة[٢] التي نصوا على أنها تجلب التيسير، لكن بالرغم من تأتي التمييز بين المفهومين، يبقى إيحاء المشقة غير المرادة واردا لأن اتحاد المباني مع اختلاف المعاني ينشأ عنه من الإشكالات ما لا ينشأ عن اتحاد المعاني مع اختلاف المباني.

وقد يكون هذا الإيحاء وراء اعتقاد بعض العُبّاد في أن الثواب منوط بالمشقة، فشددوا على أنفسهم بإلزامها ما لا يلزم، وتحريمها ما لم يحرم ظنا أن ذلك مما يقربهم إلى الله[٣].

هذا مع العلم أن «ما تضمن التكليف الثابت على العباد من المشقة المعتادة أيضا ليس بمقصود الطلب للشارع من جهة نفس المشقة، بل من جهة

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام الإمام محمد الطاهر بن عاشور (ص٧١)

(٢) انظر في بيان أقسام المشاق وبيان المعتبر منها من غيره، «الموافقات» (٢/ ٢٠٧)، و«الفروق للقرافي (١/ ١١٨) «الفرق الرابع عشر بين قاعدتي المشقة المسقطة للعبادة والمشقة التي لا تسقطها)»

(٣) ينظر في هذا تلبيس إبليس لابن الجوزي في معرض حديثه عن تليس إبليس على الزهاد والعباد والصوفية من الصفحة ١٨٥ إلى ٤٨٩

ما في ذلك من المصالح العائدة على المكلف»[1] والتي تدرأ عنه مشاق ومفاسد لو لم يمتثل لذلك التكليف.

ولعل من آثار لمح صفة المشقة ـ كذلك ـ في التكليف تغليب الفقهاء جانب الاحتياط[2] على التخفيف وجعله أصلا[3] فقهيا ومرجحا عند الاختلاف[4]، وكذا تغليبهم سد الذرائع على فتحها، ومراعاة الخلاف في جانب الشدة غالبا.

وإنما أطلت في مسألة المشقة لدفع إحدى الشبه المعاصرة التي ترى في الخضوع للتكليف مشقة لا يطيقه تكوين الإنسان المعاصر، ولا ينسجم مع قدراته، التي أرهقتها الحياة.

الفرع الثاني: انسجام التكليف مع تكوين الإنسان في طبيعته:

هناك انسجام وتناسق بين طبيعة الإنسان وتكوينه وبين تكليفه وأقصد في هذا الفرع أصل التكليف وليس جزئياته.

---

(١) «الموافقات» (٢/ ٢١٥)

(٢) قال به جمهور الفقهاء المذاهب الأربعة وخاصة المالكية، وخالفهم ابن حزم وعقد الباب الرابع والثلاثون في الإحكام للرد على القائلين به ومما قال فيه: «ولا يحلّ لأحد أن يحتاط في الدين؛ فيحرِّم ما لم يحرِّم الله؛ لأنه حينئذٍ يكون مفترياً في الدين، والله تعالى أحوط علينا من بعضنا على بعض «الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٦/ ١٠)

(٣) قال السرخسي: «والأخذ بالاحتياط أصل في الشرع» (أصول السرخسي (٢/ ٢١))

(٤) قال الجويني: «إذا تعارض ظاهران أو نصان وأحدهما أقرب إلى احتياط فقد ذهب أكثر الفقهاء إلى أن الأحوط مرجح على الثاني وزعموا أن الذي يقتضيه الورع وإتباع السلامة هذا واحتجوا بأن قالوا: اللائق بحكمة الشريعة ومحاسنها الاحتياط» (البرهان في أصول الفقه (٢/ ٢٠٣))

وذلك أن الخلق في عالم الشهادة منه ما هو مادي كثيف، ويمثله جميع مخلوقات هذا العالم من أرض وسماء وما فيهما من نبات وحيوان، وغير ذلك بما فيه جسد الإنسان المخلوق من قبضة من تراب، لكن الإنسان إذا كان منجذبا بطبيعته المادية إلى الأرض وعد بهذه الطبيعة من مفردات هذه المادة الكثيفة، فإن الله عز وجل قد شرف الإنسان بنفخة إلهية تجذبه إلى السماء.

إذا كان الأمر كذلك فقد مر معنا في الفصل الأول أن أمر الله كذلك ذو طبيعتين طبيعة تكوينية وطبيعة تكليفية. فالأمر الإلهي في جانبه التكويني متصل بجميع مخلوقاته اتصالا مباشرا، أما في جانبه التكليفي فإن الإنسان أو بالأحرى النفخة والنفحة الربانية السماوية في الإنسان هي الجسر الذي تعبر منه الأخلاق والقيم الحاملة للمراد الإلهي التكليفي تجاه الإنسان نفسه ومحيطه الكوني لتصبح جزءا من الحياة(1).

فالإنسان إذن تنازعه جاذبيتان جاذبية الأرض وجاذبية السماء وتتقاسمه طبيعتان:

١ ـ طبيعة ثقيلة كثيفة يرى أصولها تحيط به من كل جانب لا يستطيع منها فكاكا، وهذه الطبيعة يناسبها أمر التكوين لأنها جرم محسوس مشاهد ولا يُتصور إنكارها، ولا تَقبل الاختلال.

٢ ـ طبيعة لطيفة خفيفة شُدت أواصرها بعالم الغيب، وهذه يناسبها أمر التكليف. إذ هي غيب يتفرع الوعي بها عن الإيمان بالغيب وهو تكليف، فمن أنكر هذه الطبيعة وعصى هذا الأمر رد إلى أسفل سافلين ـ كما أسلفنا ـ فصار

(١) انظر: الوحي والإنسان نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي أحمد العبادي ص ١٤٦

كمفرد عادي من المفردات المكونة لتلك المادة الكثيفة الكثيرة المخاطَبة بأمر التكوين. فيُخلع عنه لباس الخصوصية والتكريم، ويطرد من عالم التشريف والتكليف.

ورحم الله الشعراوي إذ يقول: «وحين تنظر إلى الإنسان تجد أن التكليف الإلهي يناسب التكوين البشري. وأنت تشترك مع الجماد في أشياء، ومع النبات في أشياء، ومع الحيوان في أشياء، وتتفوق على الكل بقدرة الاختيار التي منحك الله إياها.

ولتوضيح هذا الأمر أقول: لنفترض أن واحداً أخذك إلى مكان مرتفع ثم تركك في الجو عندئذ تسقط على الأرض، وهكذا تجد أن قانون الجماد ينطبق عليك، فليس لك إرادة أن تقول: «لا أريد أن أقع» وهكذا نرى الجمادية فيك، وانظر إلى «النمو» الذي لا تتحكم فيه ولا تقدر أن تقول: «سأنمو اليوم بزيادة في الطول قدرها نصف المليمتر» بل أنت لا تعرف كيف تنمو، وأنت لا تعرف كيف ينبض قلبك، ولا سرّ الحركات الدودية للأمعاء، ولا حركة المعدة، أو عمل الكبد، أو حركة التنفس التي بها تقوم الحياة، وكل ذلك أمور قهرية، ومن رحمة الله بنا أنها قهرية، فلو كانت اختيارية لتحكم فيها غيرك.

إذن من رحمته بنا سبحانه أن جعلنا مقهورين في هذه المسائل، ومسخرين فيها، وبعد ذلك خلق لنا الاختيار في التكليف، افعل، ولا تفعل، والتكليف من الله سبحانه وتعالى في الأفعال التي تقع من الإنسان لا في الأفعال التي تقع على الإنسان؛ لأن الأفعال التي تقع من الإنسان هي التي فيها اختيار ويبحثها العقل أولاً، لينفذها الإنسان بعد ذلك. ولذلك لا يكلف ربنا إلا العاقل الناضج؛

لأنه لا توجد قوة تقهره على غير ما يختار. أما المجنون فليس عليه تكليف؛ لأنه لم يُدرْ المسألةَ في رأسه قبل أن يفعل، وكذلك من لم ينضج؛ لأنه لم يصل إلى قوة الفهم الكامل، وكذلك المقهور على فعل بقوة إنسان أو سلطان أقوى منه»[1].

(١) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٧٢٤)

المطلب الثالث

الانسجام والتناسق بين

موارد التكليف وموارد التكوين

مر معنا في المطلب السابق أن أمر الله ذو طبيعتين تكليفية وتكوينية وأن الإنسان أيضا ذو طبيعتين طبيعة تأهله ليخاطَب بأمر التكليف، وطبيعة تجعله مخاطبا بأمر التكوين، إذا تبين هذا فمما يلفت الانتباه أن موارد التكليف والتكوين أو بعبارة أوضح مصادر تغذية الجانبين (الروح والجسد) غالبا ما ترِد في القرآن بشكل متناسق لفظا وإيرادا، مع انسجام كل منها مع طبيعة ما يغذيه من حيث التكوينُ والأصل وهذا بيان ذلك:

فأما انسجامها من حيث اللفظ فغداء الروح وغداء الجسد يتم كل منهما بالإرسال والإنزال.

فالأول بإرسال الرسل ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾(1) وإنزال الكتب ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(2).

والثاني بإرسال الرياح ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾(3)

(1) [سورة الكهف آية ٥٥]

(2) [سورة الزمر آية ٢٢]

(3) [سورة الروم آية ٤٥]

وإنـزال المـاء مـن السـماء ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾(١).

ويلاحظ التناسق بين الأفعال، فكـل مـن الرسـل والريـاح مرسـل ولقصـد موحد هو التبشير(٢)، وكل من القرآن والمطر منزل لقصد التأثير في المنزل عليه، فتهتز الأرض الخاشعة لتنبت جنات وحب الحصيد، والنخل باسـقات، ويقشـعر جلد الخشي ويلين قلبـه، وينبـت الطمأنينـة والسـكينة والإيمـان والطاعـة. يربـو الأول ويتربى الثاني.

وأما الانسجام من حيث موافقة كـل رافـد لمـا يغذيـه، فتتجلـى فـي كـون القرآن روحـا سـماويا منسـجما تمامـا مـع مـا يغذيـه (أي الـروح السـماوية فـي الإنسان)، أما الماء فهي مادة أرضية، تنسـجم تمامـا مـع الجانـب المـادي الـذي تغذيه في الإنسان المخلوق من ماء.

وأما الانسجام من حيـث الـورود، فكثيـرا مـا يقتـرن نـزول المطـر والمـاء وإرسال الرياح مع نزول القرآن وإرسال الرسل وغيرها من العبارات الدالة علـى المصدرين، في القرآن الكريم، وهذه بعض النماذج:

---

(١) [سورة فصلت آية ٣٨]

(٢) قال الإمام البقاعي: وكانت الرياح مبشرات ومنذرات كالرسل، وكانت موصـوفة بـالخير كما في الصحيح عن عائشة رضـي الله عنهـا «فلرسـول الله ﷺ حـين يلقـاه جبريـل عليـه السلام أجود بالخير من الريح المرسلة» وكانـت فـي كثـرة منافعهـا وعمومهـا إن كانـت نافعة، ومضارها إن كانت ضارة، أشبه شيء بالرسل في إنعاش قوم وإهلاك آخرين، ومـا ينشأ عنها كما ينشأ عنهم

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٨﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(1).

فتأمل كيف تحدث عن إرسال الرياح ثم عقب ذلك بإرسال الرسل بالبينات وما خلفه ذلك من نصرة المؤمنين، ثم عاد إلى الرياح المثيرة للسحاب المنبسط ليسقي جوانب الأرض وتنتشر الرحمة.

أو تحسب أن موضوع إرسال الرسل مقحم في هذا الجو بين الرياح والأمطار من غير فائدة مناسبة، كلا أوليس الرسل تبعث فتثير صحابا ثم ينبسطون على الأرض فيحيي بهم الله القلوب بعد موتها. قال الإمام البقاعي: وكانت الرياح مبشرات ومنذرات كالرسل، وكانت موصوفة بالخير كما في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها «فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الريح المرسلة»(2) وكانت في كثرة منافعها وعمومها إن

---

(1) [سورة الروم آية ٤٥ ـ ٤٩]

(2) صحيح البخاري (٣/ ٢٦) كتاب الصوم، باب: أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان =

كانت نافعة، ومضارها إن كانت ضارة، أشبه شيء بالرسل في إنعاش قوم وإهلاك آخرين، وما ينشأ عنها كما ينشأ عنهم[1].

وشبيه بهذه الآية قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[2].

فقوله عز زجل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ إشارة إلى حقيقة تكوينية لمواساة نبيه ﷺ، فالله الذي يرسل الرياح فتثير السحاب ليحيي به الأرض بعد موتها، هو الذي يرسل الهدايات إلى من يشاء وفق صنيعهم ليحيي بها القلوب بعد موتها، فما دام الأمر كذلك فلا معنى لإذهاب نفسك عليهم حسرات، فالمقارنة بين قضية الهداية والإضلال المؤشرة لحياة القلوب وموتها، وبين سوق السحاب إلى بلد دون آخر، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها، وتخلل ذلك بنهي النبي ﷺ عن التحسر.

كل ذلك من مظاهر التناسق والانسجام والترابط بين موارد الجانب التكليفي في الإنسان الذي هو الروح وموارده القرآن والهدايات الربانية. وموارد

=

رقم (١٩٠٢). صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٣) كتاب الفضائل. باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (٢٣٠٨)

(١) تفسير البقاعي (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) (١٥/ ١١٥)

(٢) [سورة فاطر آية ٨ ـ ٩]

الجانب التكويني في الإنسان الجسد وغيره من الكائنات، وموارده المطر وما تنبته الأرض.

وهذه الآية وقرائنها وهي كثيرة في القرآن الكريم تنبه على ثلاث حقائق كلها مرتبطة بقضية الإحياء.

الحقيقة الأولى: إحياء القلوب بالهداية.

الحقيقة الثانية: إحياء الأرض بالغيث.

الحقيقة الثالثة: إحياء الأموات يوم القيامة.

وإذا كانت التفاسير تركز فقط على الربط بين الحقيقة الثانية والثالثة، فإن اقتران الحقيقة الأولى بهما في كثير من الآيات قرينة قوية على أن التنصيص عليها مقصود كذلك.

قال القشيري رحمه الله: «أجرى سنّته بأنه يظهر فضله في إحياء الأرض بالتدريج فأولا يرسل الرياح ثم يأتي بالسحاب، ثم يوجّه ذلك السحاب إلى الموضع الذي يريد له تخصيصا كيف يشاء، ويمطر هناك كيف يشاء. كذلك إذا أراد إحياء قلب عبد بما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته، فيرسل أولا رياح الرجاء، ويزعج بها كوامن الإرادة، ثم ينشئ فيها سحب الاهتياج، ولوعة الانزعاج، ثم يجود بمطر ينبت في القلب أزهار البسط، وأنوار الرّوح، فيطيب لصاحبه العيش إلى أن تتمّ لطائف الأنس»(١).

وقد يقترب هذا التناسق ويشع بريقه بشكل رهيب لا يملك معه المفسر

---

(١) لطائف الإشارات القشيري (٣/ ١٩٥)

الحسم في تحديد الخط الفاصل، بين الخطابين، فمثلا قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[1].

فقوله عز وجل في هذه الآيات: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ هي آية فصَلت بين الأمرين[2] والعجيب أن المفسرين اختلفوا فيها اختلافا عجيبا فجمهورهم يرى أن ضمير (صرفناه) راجع إلى المطر، بينما بعضهم يرى أنه راجع إلى القرآن.

والعجيب أيضا أن سياقها يحتملهما، فسباقها يتحدث عن الرياح والمطر فيحتمل أن تكون تابعة له، لكن لحاقها يتحدث عن بعث الرسل والقرآن، فيحتمل أن يكون تابعا لها خصوصا وأن (القرآن) ورد في هذا اللحاق بصيغة الضمير، وهذا مما يدل عن شدة الترابط بين الموردين، وهو يحيلنا إلى ما سبق في الفصل السابق من شدة الترابط بين مفهومي التكوين والتكليف.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا

(١) [سورة الفرقان آية ٤٨ ـ ٥٢]

(٢) أقصد بالأمرين: الرياح والمطر اللذين هما من روافد الجانب المادي في الإنسان، وبين الرسل والقرآن اللذين هما من روافد الجانب الروحي في الإنسان)

وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1].

وهذا التقارن يناسب هذا السياق فالمطر والماء الذي قلنا إنه من روافد التكوين فهو في هذه الآية عكس ذلك إذ هو من أسباب الهلاك والعذاب، ذلك لأن المخاطبين بالآية كفار حقت عليهم كلمة العذاب، ولإتمام هذه الصورة المتناسقة قارن به القرآن لأنه كذلك بالرغم من كونه مورد التكليف وحياة الروح؛ إلا أن هؤلاء لا يزيدهم إلا خسارا وعنادا.

ويقول الله عز وجل في آية أخرى تبين هذا الربط المتين بين الأمرين: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٦٤ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[2].

وأكتفي للتعليق على هذه الآية بما ذكره ابن كثير، قال رحمه الله: قال تعالى لرسوله: أنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿وَهُدًى﴾ أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: لمن تمسك به، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الله الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يفهمون الكلام ومعناه[3].

(١) [سورة الأنعام آية ٧ ـ ٨]

(٢) [سورة النحل آية ٦٤ ـ ٦٥]

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٨٠)

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية مقارنا بين إحياء الأرض بالغيث الهتان، وإحياء القلوب بدلائل القرآن: «فيه إشارة إلى أنه تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل»[2].

فهذه الآيات وغيرها[3] مما قارن الله فيها بين إرسال الرياح وإنزال المطر، وإحياء الأرض، من جهة وبين إرسال الرسل، أو إنزال الوحي من جهة أخرى، وهي كثيرة في القرآن، تُجلي ذلك التساوق والتناسق والانسجام البديع بين التكوين والتكليف في الخطاب القرآني.

❁ ❁ ❁

---

(١) [سورة الحديد آية ١٥ ـ ١٦]

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٢١) وقد سبقه إلى هذا الطبري وغيره إلا أنه أحسن التعبير عنها وقال الزمخشري: هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب، وأنه يحييها كما يحيى الغيث الأرض. (الكشاف (٤/ ٤٧٨) وانظر التحرير والتنوير فقد أطال في الآية فأجاد وأفاد

(٣) وقد عددت أكثر من ثلاثين موضعا تم فيه هذا التقارن انظر مثلا [البقرة: ١٥٧ ـ ١٦٣ و٢٢ ـ ٢٣] [الأعراف: ٥٥ ـ ٥٨] [الأنفال: ١١، ١٢] [النور: ٤٢ ـ ٤٤] [لقمان: ٦ ـ ٩] [فاطر: ٢٧ ـ ٣٠] [الزمر: ٢٠ ـ ٢٢] [فصلت: ٣٨ ـ ٤١] [الجن: ١٦ ـ ١٧] وغيرها

المبحث الثاني
علاقة الاستدلال
(العلاقة الاستدلالية)

وفيه مطالب:

المطلب الأول: التمهيد للتكاليف بالأدلة التكوينية.

المطلب الثاني: خصائص الأدلة التكوينية وطرق الاستدلال بها على التكليف.

المطلب الثالث: الاستدلال على التكليف بالتكوين الفطري للإنسان.

المطلب الرابع: استنباط الأحكام التكليفية من الآيات التكوينية واستفادة الحقائق التكوينية من الأحكام التكليفية.

المبحث الثاني

علاقة الاستدلال (العلاقة الاستدلالية)

حارب القرآن الكريم كثيرا من المظاهر التي تكبل العقل البشري بأوهام الخرافات والأساطير، وتسد مداركه بأغلفة التبعية والتقليد، من أجل ذلك ربط الله في القرآن الكريم النتائج بمقدماتها الموضوعية، والمسببات بأسبابها الحقيقية، كما ربط التكاليف بأدلتها الواضحة الجلية، وهو ما سيتناوله هذا المبحث بالدرس والتحليل؛ لنرى مدى تعلق الأدلة التكوينية وارتباطها بالأحكام التكليفية، ونستبين منهج القرآن في إيرادها، كما أخص بالبيان دليل الفطرة التكويني، وفي الأخير أعرج على استنباط الأحكام التكليفية من الآيات التكوينية واستفادة الحقائق التكوينية من الآيات التكليفية.

المطلب الأول

التمهيد للتكاليف بالأدلة التكوينية

قبل أن يخاطب الله البشر بآياته التكليفية، دعاهم إلى أن يفتحوا أبصارهم وبصائرهم على الآيات التكوينية، الأنفسية والآفاقية، لعلهم يستشعرون أن وراءها خالقا قادرا كريما، عليما حكيما رحيما، فإذا انبهروا بحكمته وقدرته في خلقه، التمسوا أمره وتلقوا تكليفه بقلوب مطمئنة مؤمنة، موقنين بانطوائها على الحكمة البالغة والمصلحة المطلقة، إيقانا يصل إلى درجة الوعي الشامل بجزئيات هذه الحكمة ودقائق تلك المصلحة، وهذا واضح في أول ومضات الوحي التي طرقت سمع رسول الله ﷺ، فقبل أن يُكلف بإبلاغ الدعوة بقوله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾[1].

قبل ذلك؛ كان أول ما أنزل عليه هذه الآيات التي توجه اهتمامه وقراءته إلى دليل الخلق أو الاختراع كما أطلق عليه ابن رشد، ودليل الامتنان أو العناية حسب تعبير ابن رشد كذلك، وهما الدليلان اللذان حصر فيهما ابن رشد طريقة القرآن في الاستدلال لوجود الله[2] وهي قوله تعالى:

---

(١) [سورة المدثر آية ١-٧]

(٢) سيأتي بيان أن القرآن استدل بها على توحيده وإخلاص العبادة له لا على وجوده

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[1].

ومن نافلة القول التذكير بأن الحقائق الكونية لم تذكر في القرآن إلا مرتبطة بحكم تكليفي، فهي مذكورة لغيرها لا لذاتها، فالقرآن لم يقصد «من ذكر هذه الكونيات أن يشرح حقيقة علمية في الهيئة والفلك أو الطبيعة والكيمياء، ولا أن يحل مسألة حسابية أو معادلة جبرية، أو نظرية هندسية، ولا أن يزيد في علم الطب بابا، ولا في علم التشريح فصلا، ولا أن يتحدث عن علم الحيوان أو النبات أو طبقات الأرض إلى غير ذلك»[2] بل إنما ساقها استدلالا بها على حكم تكليفي عقدي أو عملي أو أخلاقي، ولهذا فآيات القرآن لا تكاد تأمر بواجبات تكليفية إلا مهدت لها بأدلة تكوينية أو عللتها بها. ومن هذه الواجبات التكليفية الإيمان بالله، وتوحيده وإفراده بالعبادة، والإيمان بالبعث، وغيرها كالتقوى والذكر والتسبيح والصلاة والحج.

وهذه الأدلة تتميز بالتنوع والتعدد، بشكل لا يترك لمن وعاها مندوحة عن الإيمان ما لم تحل بينه وبين الإيمان حجب الهوى والشهوات، أو يجنح بإرادته جنون العناد وسلطة النزوات، قال الخطابي رحمه الله: «وقد نصب الله تعالى الأدلة وأزاح بها العلة، ووسع من وجوهها، وكثر من عددها، فهي على اختلاف مراتبها في الوضوح والغموض، معروضة للاستدلال بها، والاستشهاد بمواضعها، فلا أحد يعقل من آحاد الناس، إلا وله في جليها مستدل، وفي

---

(١) [سورة العلق آية ١-٥]

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٥٤)

واضحها مستشهد، وإن كان نزل فهمه عن دقيقها ولطيفها، فالواجب على كل من الناس أن يبذل وسعه فيه، ويبلغ جهده في دركه، فإن الله تعالى يقول[1]: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

وهذه الأدلة القرآنية ومنهج الله في بثها في القرآن والكون أجدى وأجدر، وأغنى وأغلى، وأشمل وأكمل، وأوضح وأفصح، من الأدلة المنطقية الجافة الجامدة الغامضة على عامة الناس، التي إن صلحت للدفاع عن العقيدة، لا تصلح لتكوين عقيدة حية، تأمر وتنهى، وترشح آثارها من خلال فعل الإنسان وأخلاقه وسلوكه.

عدم انحصار الاستدلال على التكاليف العقدية:

ربما توهم بعض الناس أن الاستدلال بالآيات التكوينية في القرآن الكريم يتعلق فقط بالتكاليف العقدية، بل ربما حصره البعض في الاستدلال على وجود الله، وهنا أعرج مرة أخرى على مسلك ابن رشد في (الكشف عن مناهج الأدلة) وقد سبق أن ذكرنا أنه حصر الأدلة في دليلي العناية والاختراع، وأضيف هنا تمهيدا لما قصدته أن ابن تيمية نقل كلام ابن رشد وانتقده في ثلاثة أمور هي:

الأمر الأول: حصر الأدلة في دليلين ورأى أن أدلة القرآن أكثر من أن تحصر في دليلين.

والثاني: تقسيم الآيات التي وردت في الموضوع إلى آيات دالة على

---

(١) نقله عنه ابن تيمية في (بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ٥٠٢)

(٢) [سورة العنكبوت آية ٦٩]

العناية وآيات دالة على الاختراع، وآيات دالة عليهما معا، ورأى ابن تيمية أن كل ما دل على العناية دل على الاختراع فالقسمة ثنائية.

والثالث: تأويله لآية أخذ الميثاق من بني آدم وآية تسبيح المخلوقات لله.

وأرى أنه مما ينبغي أن يُنتقد على ابن رشد كذلك هو جعله هذين الدليلين دليلا إثبات وجود الله عز وجل، ومن تدبر القرآن وجده يستدل بهذه الأدلة على وجوب تقوى الله وإخلاص العبادة له، وغيرها من التكاليف الواجبة والمندوبة، لا لإثبات وجوده كما زعم ابن رشد متأثرا بأهل الكلام الذين انتقدهم، فأول آية أمرية حسب النزول استدلت بدليل الاختراع على واجب القراءة.

وهي قوله عز وجل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(1).

وأول آية أمرية حسب ترتيب المصحف ورد فيها دليل العناية والاختراع على واجب عبادة الله وهي قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢٠ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(2).

نعم كل آية دالةٍ على وجوب توحيد الله وعبادته هي دالةٌ ضمنا على وجود الله، لكن فرق بين قولنا تتضمن دليل إثبات الله، وبين جعل مقصودها

(1) [سورة العلق آية 1 - 2]

(2) [سورة البقرة آية 20 - 21]

الأول والهدف الذي وردت له إثباتَ وجود الله، وتخصيص أدلة أخرى غيرها لتثبيت وحدانيته، كما فعل ابن رشد رحمه الله في الكشف.

والحقيقة أن القرآن استدل بأدلة تكوينية على توحيد الله وإخلاص العبادة له والإيمان باليوم الآخر، وعلى تكاليف تعبدية كثيرة، أذكر منها:

الوضوء والصلاة: لما ذكر الله التكليف بالصلاة الوضوء في سورة المائدة أردفه بثلاثة أدلة تكوينية.

الأول: وهو دليل العناية ويتجلى في الإشارة إلى علة الوضوء وما يحققه من طهارة.

الثاني: وهو كذلك دليل العناية يتجلى في إتمام النعمة والتذكير بنعم الله الكثيرة.

الثالث: دليل الفطرة، المتجلى في الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم. قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[1] إلى الآخر الآية ثم قال بعدها مستدلا على هذا الواجب التكليفي: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[2].

(١) [سورة المائدة آية ٧]

(٢) [سورة المائدة آية ٧ ـ ٨]

قال الرازي رحمه الله: اعلم أنه تعالى لما ذكر هذا التكليف أردفه بما يوجب عليهم القبول والانقياد، وذلك من وجهين:

الأول: كثرة نعمة الله عليهم، وهو المراد من قوله ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ومعلوم أن كثرة النعم توجب على المنعَم عليه الاشتغال بخدمة المنعِم والانقياد لأوامره ونواهيه، وفيه مسألتان:... إنما قال: واذكروا نعمة الله عليكم ولم يقل نعم الله عليكم، لأنه ليس المقصود منه التأمل في أعداد نعم الله، بل المقصود منه التأمل في جنس نعم الله لأن هذا الجنس جنس لا يقدر غير الله عليه، فمن الذي يقدر على إعطاء نعمة الحياة والصحة والعقل والهداية والصون عن الآفات والإيصال إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، فجنس نعمة الله جنس لا يقدر عليه غير الله، فقوله تعالى: واذكروا نعمة الله المراد التأمل في هذا النوع من حيث إنه ممتاز عن نعمة غيره، وذلك الامتياز هو أنه لا يقدر عليه غيره، ومعلوم أن النعمة متى كانت على هذا الوجه كان وجوب الاشتغال بشكرها أتم وأكمل.

الثاني: من الأسباب التي توجب عليهم كونهم منقادين لتكاليف الله تعالى هو الميثاق الذي واثقهم به، والمواثقة المعاهدة التي قد أحكمت بالعقد على نفسه»[1].

وجمهور المفسرين على أن الميثاق هو ميثاق الفطرة الأول وهو الذي أخذه الله على بني آدم. وقال الماتريدي: «يحتمل الميثاق: ميثاق الخلقة وشهادتها؛

---

(١) تفسير الرازي (١١/٣١٨-٣١٩)

إذ خلقة كل أحد تشهد على وحدانيته وربوبيته»[1].

وقال السدي: «المراد بالميثاق الدلائل العقلية والشرعية التي نصبها الله تعالى على التوحيد والشرائع»، قال الرازي: وهو اختيار أكثر المتكلمين[2].

كما استدل على التكليف بالزكاة بأدلة تكوينية في آيات متعددة أذكر منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[3].

فالجنات والنخل والزرع والزيتون والرمان؛ كل ذلك من تكوين الله عز وجل، فوجب امتثال تكليفه فيها، فهو الذي قال لها كوني لعبدي فكانت لك اضطرارا، وقال لك على وجه التكليف: أطعني فيها وترك لك الخيار.

والآية متضمنة لدليل تكويني على أمور تكليفية ثلاثة؛ أحدها: الإباحة؛ (كلوا من ثمره) الثاني: الوجوب؛ (وآتوا حقه) والثالث: التحريم؛ (ولا تسرفوا).

ومما تجب الإشارة إليه هو أنه إذا كان أهم الأدلة التكوينية للتكليف بالعقيدة هو الخلق، فإن أهم الأدلة التكوينية بفروع الإيمان هي الهداية، والمناسبة بينهما هو أن الخلق إحياء الجسد والهداية إحياء الروح، وهو أعظم من الأول، لأنه للخاصة

---

(١) تفسير الماتريدي (٣/ ٤٧٥)

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٣١٩)

(٣) [سورة الأنعام آية ١٤٢]

أما الخلق فيشترك فيه الجميع، وبها استدل الله على التكليف بكثير من الطاعات كالصلاة والوضوء كما سبق والصوم والحج وغيرها: وأختم هذا المطلب بهذا المثال وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾(١).

فقوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي كنتم ضالين فهداكم الله، والهداية هنا هداية تكوينية، فهو دليل تكويني على وجوب التبين قال مكي بن أبي طالب: وكذلك كنتم كفاراً مثله، فهداكم الله وأعز دينكم، ومَنَّ عليكم، بالإسلام والتوبة(٢).

❁ ❁ ❁

(١) [سورة النساء آية ٩٣]

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٢/ ١٤٣٣)

المطلب الثاني
خصائص الأدلة التكوينية
وطرق الاستدلال بها على التكليف

الله تبارك وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وغرس في أعماقه الدين القويم، ودرج به في أطوار التكوين، حتى إذا بلغ مبلغ الراشدين، وجه إليه خطاب الإرشاد مرفوقا بالآيات البينات، والبصائر المبينات، والأدلة الواضحات، ليترقى به في سلم التكليف، إلى مقامات التكريم والتشريف، كادحا إلى ربه العزيز اللطيف، فكان أول تكليف وتقليد على عاتقه، الإيمان بخالقه، والاعتراف بولي نعمته ورازقه، يقول عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(1).

وتتميز الأدلة التكوينية في القرآن الكريم بخصائص منهجية أذكر منها ما يلي:

أولا: أدلة مخاطبة للعقل والوجدان:

ربط الله تكليف الإنسان بالإيمان وفروعه بأدلة تكوينية تخاطب عقل الإنسان، وقلبه، ووجدانه، ولا تترك نافذة من نوافذ مداركه إلا توغلت فيها، لتقنع العقل، وتهز القلب، وتطمئن النفس، وتدفع الإرادة إلى الحركة والفعل، ثم تنعكس هذه العقيدة على المشاعر والأفكار لتتحول إلى أفعال تعمر الكون وتغمره بالرحمة والسلام.

---

(1) [سورة فصلت آية ٥٢]

ومما تتميز به العقيدة والشريعة الإسلامية، أنها شريعة تكرم العقل وترفع قدره بل تجعله مناط التكليف، وقد وردت مشتقات كلمة العقل الفعلية في القرآن الكريم ٤٩ مرة، كلها بصيغة الفعل المضارع، إلا مرة واحدة جاء فيها بصيغة الماضي، ومن المعلوم أن الفعل وبخاصة المضارع منه يفيد التجدد والحدوث، فيستفاد من استعمال القرآن الكريم لهذه الصيغة والاقتصار عليها، أن فعل التعقل ينبغي أن يتجدد ويحدث في كل لحظة، وإزاء كل حركة أو موقف، هذا موقف الإسلام من العقل، وهو إلى جانب العقل[١] يخاطب العاطفة والوجدان، فالإسلام يخاطب الإنسان كله، «بكل جانب من جوانبه،... ويستنهضه للتفكر والتدبر والتأمل، لتتآزر جوانب الإنسان كلها للوصول إلى الحقيقة، حقيقة الألوهية، وما يترتب على معرفتها من التزامات في كل مجالات الحياة والشعور والفكر والسلوك. يخاطبه ليتدبر في آيات الخلق... خلق الكون وخلق الإنسان... هل من خالق غير الله؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[٢].

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾»[٣][٤].

---

(١) أشاد بعقلانية البراهين القرآنية منصفو علماء الغرب انظر ما نقله عنهم الشيخ القرضاوي في كتاب العقل والعلم في القرآن الكريم (ص ٦١ وما بعدها)

(٢) [سورة الطور آية ٣٣ ـ ٣٤]

(٣) [سورة لقمان آية ٩ ـ ١٠]

(٤) محمد قطب مذاهب فكرية معاصرة ص ٥٣٣

ثانيا: أدلة تكوينية مغياة بإنشاء عقيدة تتجسد في أعمال تكليفية:

ليس هدف القرآن الكريم وهو يبث الأدلة التكوينية المتضافرة المتنوعة إثبات وجود الله، أو كونه خالقا رازقا كما هو الهدف في علم الكلام، ولا هو تزويد الناس بمعاريف نظرية صرفة، لا، بل هدفه تكوين عقيدة متحركة، ينشأ عنها التزام بأصول التكاليف وفروعها، فالعقيدة والشعائر التعبدية والأعمال العمرانية، والسلوكات الأخلاقية، والقيم التربوية، كلها ينظمها القرآن الكريم في سلك واحد مع أدلتها التكوينية.

وقد أدى انفصال هذه الحقيقة عن أذهان المسلمين إلى بروز مظاهر كثيرة من التدين المشوه، بل إن بعض المؤطرين للخطاب الديني التوجيهي على اختلاف توجهاتهم ومشاربهم، لم يوفقوا في تقفي المنهج القرآني ولم يتمثلوا طريقته في تثبيت العقيدة وتقريبها وتحبيبها إلى الناس، وجعلها عقيدة تتدفق منها قيم المحبة والرحمة والتعاون والعمل، بحيث تصبح واقعا متحركا في حياة الناس.

ولهذا تسلل الخلل جراء هذا الفهم السيء إلى الدرس والوعظ الديني، فترى بعضهم مثلا يورد حديث عَائِشَةَ، رَضِيَ الله عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَحْتَجِرُ حَصِيرًا بِاللَّيْلِ فَيُصَلِّي عَلَيْهِ، وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَثُوبُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ حَتَّى كَثُرُوا، فَأَقْبَلَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ الله لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى الله مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ»(١)، فيمر مر الكرام على اللئام على الشطر الأول من الحديث وهو

---

(١) صحيح البخاري (٧/ ١٥٥) كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه. رقم (٥٨٦١)

لحمة الحديث وأسه وسداه، بينما يسهب ويطنب ويبدي ويعيد، في صفة الملل وإثباتها ونفيها عن الله، ويمر - مستطردا - من هنالك إلى صفة الخداع والمكر والنسيان ومتى تثبت لله، والفرق بينها بين الخيانة و... في لغط وإغماض وصراعات تاريخية بعيدة عن المقصد النبوي في ذكر الحديث. وأمر العقيدة في القرآن بعيد عن هذا المهيع العقيم.

ثالثا: أدلة تكوينية واضحة تنطلق من واقع الإنسان:

من المشاكل التي عانى ويعاني منها الخطاب الإسلامي المعاصر هو عدم ارتباط أدلته وحججه بالواقع، فتجد مثلا الخطيب وهو يصرخ على المنبر بتحريم الربا لأنه منهي عنها والنهي إذا عري عن القرائن دل على التحريم. أو تجده يعلم الناس العقيدة ويناقش في خلق القرآن والصفات الذاتية والفعلية. ويستدل بالمقدمات الكلامية المنطقية، فهو يتكلم في واد والناس من حوله في واد.

وبعيدا عن الأساليب الجدلية الغامضة العقيمة، انطلق القرآن الكريم لإثبات أحكامه العقدية والعملية، والاستدلال لها لإقناع المكلفين من أدلة تكوينية سهلة واضحة يفهمها راعي الإبل الأمي الهائم في الصحارى وتقنعه، كما تقنع العالم المتخصص في دقائق العلوم وتبهره، وهي علاوة على وضوحها وصلاحيتها لجمهور الناس وخاصتهم؛ مرتبطة بواقع الإنسان الذي يعيشه ويشاهده ويحسه، انطلاقا من نفسه وكيانه[1]، ونومه ويقظته، ولسانه[2] الذي يتواصل به، وزوجه الذي

(١) انظر [سورة الروم آية ٧]

(٢) انظر [سورة الروم آية ٢١]

يسكن إليها[1]، ومسكنه الذي يؤويه[2]، وأرضه التي يحرثها، وطعامه الذي يأكله، والماء الذي يشربه[3]، ولباسه الذي يواري به سوأته ويتقي به الحر والقر، وناره التي يوريها، ومطاياه[4] التي تحمله، والظل الذي يستظل به، وهذه الحدائق التي تبهجه، وهذه الأجرام التي تحيط به من كل جانب، ولو تتبعت ذلك لحشرت معظم القرآن في هذا المطلب، لكني وعلى سبيل المثال أسوق هذه الآيات من سورة عبس:

﴿قُتِلَ ٱلإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾[5].

وقد أنكر ابن رشد[6] على المتكلمين من الفرق الإسلامية مناهجهم في إثبات العقيدة الإسلامية ووصمه بالتعقيد والغموض وعدم صلاحيته لمخاطبة جمهور الناس، فوق ما بها من قصور في إثبات الخالق، ومخالفتها لطريقة القرآن وما كان عليه الصحابة، ورأى أن الطريقة القرآنية هي أوضح مقالا، وأيسر

---

(١) انظر [سورة الروم آية ٢٠]

(٢) انظر [سورة النحل آية ٨٠]

(٣) انظر [سورة الواقعة آية ٧١] و[سورة الملك آية ٣١] وغيرهما

(٤) انظر [سورة غافر آية ٧٩]

(٥) [سورة عبس آية ١٧ ـ ٣٢]

(٦) انظر كتابه (الكشف عن مناهج الأدلة، في عقائد الملة) ابن رشد (من ص ٩٨)

سبيلا، وأليق بالجمهور والعلماء جملة وتفصيلا، وأنها منحصرة في دليلين هما دليل العناية ودليل الاختراع[1].

رابعا: ربط الواجب التكليفي بأدلة تكوينية متعددة:

الله تبارك تعالى عندما يكلف بأمر معين لا يكتفي في إثباته بدليل واحد بل يسوق أدلة كثيرة متنوعة وأذكر نموذجا لهذه الخاصية يتمثل في التكليف بالإيمان بالبعث وما يقتضيه من تحمل المسؤولية، وانتظار الوقوف بين يدي رب العالمين، وهي من أهم العقائد التي لها الأثر البليغ في جميع سلوك الفرد والمجتمع وتصرفاتهما، ولإثبات القرآن هذا الواجب التكليفي وإقناع الناس به ساق طائفة من الأدلة التكوينية، منها:

الاستدلال بوقائع تكوينية مشاهدة قصة عزير[2]، قصة إبراهيم مع الطيور الأربعة[3] قصة بني إسرائيل في عدة مواقف[4].

الاستدلال بتكوين الإنسان من العدم[5].

---

(١) ومما قاله: إذا استقرئ الكتاب، وجدت [الأدلة] تنحصر في جنسين: أحدهما طرق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله، ولنسمي هذه دليل العناية. والطريق الثانية: ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات، مثل اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية والعقل، ولنسم هذا دليل الاختراع. (الكشف عن مناهج الأدلة) (ص ١١٨)

(٢) انظر: [سورة البقرة آية ٢٥٨]

(٣) انظر: [سورة البقرة آية ٢٥٩]

(٤) انظر: [سورة البقرة الآيتان ٥٤ ـ ٥٥ والآيات ٦٦ إلى ٧٢ والآية ٢٤١]

(٥) انظر: [سورة الواقعة آية ٦٠] و[سورة غافر آية ٦٧] و[سورة الحج آية ٥] و[سورة ق آية ١٥ ـ ١٦]

الاستدلال بخلق مني الإنسان[١].

الاستدلال ببنان الإنسان والقدرة على تسويته[٢].

الاستدلال بتكوين السماوات والأرض[٣].

الاستدلال بإنزال الماء من المزن وإحياء الأرض وإنبات النبات وإنشاء الشجر[٤].

الاستدلال ببعث الإنسان بعد نومه[٥]، ومن ذلك قصة أصحاب الكهف[٦].

الاستدلال بتكوين النار من الشجر الأخضر[٧].

هذا إضافة إلى أدلة أخرى غير تكوينية كالاستدلال بتنزيهه عن العبث في خلقه، وعلمه بما تحلل في الأرض من الأجساد[٨]، وحتمية إقامة العدالة بين الأنام، وبطلان التسوية بين المجرمين والمسلمين وغير ذلك.

خامسا: التنويع في صيغ الأدلة التكوينية:

ومن أساليب إقناع القرآن الإنسانَ بالعمل بالتكاليف تنويع أساليب إيراد

(١) انظر: [سورة الواقعة آية ٦١ - ٦٢] [سورة القيامة آية ٣٩]

(٢) انظر: [سورة القيامة آية ٥]

(٣) انظر: [سورة غافر آية ٥٦] و[سورة ق آية ٦ - ٧] و[سورة يس آية ٨٠]

(٤) انظر: [سورة ق آية ٩ - ١١] و[سورة الحج آية ٥]

(٥) انظر: [سورة الأنعام آية ٦١] و[سورة الزمر آية ٣٩]

(٦) انظر: [سورة الكهف آية ٢١]

(٧) انظر: [سورة يس آية ٧٩] و[سورة الواقعة آية ٧٥]

(٨) انظر: [سورة ق آية ٤]

الأدلة التكوينية، وتكييفها حسب الموقف، وحال المخاطب، فيوردها مرة في صيغة الإخبار(١)، وأخرى في صيغة الاستفهام التقريري(٢)، وطورا في صيغة الأمر(٣)، وحينا بصيغة القسم(٤)، وأحيانا في صيغة السخرية(٥)، وتارة بصيغة التحدي(٦).

سادسا: التنويع في أساليب الأدلة التكوينية:

ومن مظاهر الأسلوب الإقناعي الذي بنى عليه القرآن دعوته إلى تكليف البشرية بالإيمان وفروعه، التنويع في أساليب الأدلة التكوينية، فلا يقتصر على أسلوب واحد بل تختلف أساليبه باختلاف الهدف والسياق والمخاطب ومن الأساليب التي وردت عليه الأدلة التكوينية في القرآن مرتبطة بالأوامر التكليفية وموجبة لها:

أ ـ أسلوب الحوار، وهذا الأسلوب يأتي بدوره على أنواع مختلفة منها أمره نبيه بمحاورة المشركين مستدلا بالآيات التكوينية التي يشاهدونها كقوله عز من قائل ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم

(١) انظر مثلا سورة الروم من الآية ١٨ إلى الآية ٢٦
(٢) ينظر على سبيل المثال: [سورة النبأ آية ٦]
(٣) [سورة يونس آية ١٠١] وغيرها من الآيات التي تأمر بالنظر والسير في الأرض للوقوف على الأدلة
(٤) فواتح سورة الليل وسورة الشمس وسورة الضحى وسورة الطور
(٥) [سورة الطور الآيات ٣٣ ـ ٣٧]
(٦) [الملك الآية ٤] و[سورة الحج آية ٧١]

﴿مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1]

ومن ذلك ذكر محاورة الأنبياء لأقوامهم كمحاورة إبراهيم للذي حاجه ومحاورة موسى لفرعون وغير ذلك.

ب ـ أسلوب التفريع أو ما يشبه حسن التخلص في علم البلاغة[2]: وذلك بذكر كلية تُفرع منها جزئية ثم تُفرع من الجزئية جزئيةٌ أصغرُ منها وهكذا حتى يخلُص إلى الجزئية المستهدفة المقصودة. ومثال ذلك قوله عز وجل: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

فقد بدأ بكلية هي العلم بالغيب المطلق وهو يشمل غيب السماوات والأرض، وفرع منها جزئية صغيرة هي الأرض ببرها وبحرها، ثم ترك البحر لأنه غير مخلِّص إلى المبتغى، وفرع من الأرض أشبه جزئية بالإنسان ــ من حيث النشوء من الأرض ثم العودة إليها ليُخرَج منها تارة أخرى ـ وهو النبات وأخبر بإحاطة علمه بجميع جزئياته على اختلاف أشكالها وأحوالها. ومن ثم خلَّص إلى الإنسان وفرَّع منه جزئيات أعماله مما اكتسبه بجوارحه، ثم ختم بقوله:

(١) [سورة يونس آية ٣٤ ـ ٣٥]

(٢) انظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٣/ ١٠٢)

(٣) [سورة الأنعام آية ٦٠ ـ ٦١]

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وفيه دعوة الإنسان إلى إحسان العمل وهو الجانب التكليفي الذي سيق الدليل من أجله.

ج ـ **أسلوب الاستنباط**: وأقصد به الإتيان ب (نص) ـ وفي موضوعنا يكون آيات في الأدلة التكوينية ـ ثم يستخرج منها حقائق كلية، تتضمن أمورا تكليفية وجب على الإنسان الوفاء بها، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(١).

فهذا نموذج لما أطلقنا عليه (النص) ومنه تستنبط خمس حقائق هي:

الدليل التكويني المستنبَط منه	طريقة الاستنباط	الحقيقة المستنبطة المتضمنة للأمر التكليفي
(فإنا خلقناكم)	لا بد للخلق من خالق وما سواه باطل	الله هو الحق
اهتزاز الأرض بعد همودها	يقاس عليه	إحياء الإنسان بعد موته
خلْق الإنسان من تراب، وإخراج النبات من الأرض	يقاس عليه	بعثه منه

(١) [سورة الحج آية ٥]

الدليل التكويني المستنبَط منه	طريقة الاستنباط	الحقيقة المستنبطة المتضمنة للأمر التكليفي
فمنكم من يتوفى	فناء الإنسان دال على فناء غيره من الكائنات ومن مات فقد قامت ساعته	فالساعة حق
القادر على كل هذه الأفعال	قادر على غيرها	الله على كل شيء قدير

وهذه الحقائق هي التي وردت في الآيتين بعدها وهما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾(١).

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ذلك هذا الذي ذكرت لكم أيها الناس من بدئنا خلقكم في بطون أمهاتكم، ووصفنا أحوالكم قبل الميلاد وبعده، طفلا وكهلا وشيخا هرما، وتنبيهناكم على فعلنا بالأرض الهامدة بما ننزل عليها من الغيث، لتؤمنوا وتصدقوا بأن ذلك الذي فعل ذلك الله الذي هو الحق لا شك فيه، وأن من سواه مما تعبدون من الأوثان والأصنام باطل لأنها لا تقدر على فعل شيء من ذلك، وتعلموا أن القدرة التي جعل بها هذه الأشياء العجيبة لا يتعذر عليها أن يحيي بها الموتى بعد فنائها ودروسها في التراب، وأن فاعل ذلك على كل ما أراد وشاء من شيء قادر لا يمتنع عليه شيء أراده، ولتوقنوا بذلك أن الساعة التي وعدتكم أن أبعث فيها الموتى من قبورهم آتية لا محالة ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ يقول: لا شك في مجيئها وحدوثها، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ حينئذ من فيها

---

(١) [سورة الحج آية ٦-٧]

من الأموات أحياء إلى موقف الحساب، فلا تشكوا في ذلك، ولا تمتروا فيه»[1].

ولما كان غرضي التمثيل لا الحصر فسأكتفي بهذه الأساليب وإن كان في القرآن غيرها كالأسلوب القياسي، والأسلوب الحجاجي البرهاني والأسلوب الاستقرائي، وغيرها.

سابعا: تناسق الدليل التكويني مع التكليف المستدل له:

القرآن الكريم عندما يستدل لأمر تكليفي يسوق له أدلة تكوينية متناسقة ومنسجمة معه، فالقرآن الكريم مثلا، قبل أن يكلف بما ورد في أوائل سورة النساء ووسطها وخواتمها من أحكام تكليفية كثيرة تتعلق بالأسرة، كالزواج والتعدد والعدل بين الزوجات وحقوق الأيتام وأحكام الإرث وغيرها من أحكام الأسرة، وانسجاما مع هذه الأحكام التكليفية، مهد لها الله بدليل تكويني مرتبط بالأسرة فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[2].

وقد أشارت هذه الآية على وجازتها ـ علاوة على الزوجين ـ إلى جميع مكونات الأسرة من أصول وفروع وحواشي، وبينت أنها من خلق الله، فكان هذا دليلا تكوينيا على أن خالق الأسرة هو الأعلم بها وبما يُصلحها من أحكام وتشريعات، فوجب اتباع ما ورد في شأنها من أحكام تكليفية في معرض هذه السورة، وهكذا بقية التكاليف لمن تأملها، كالزكاة والعفو وغيرها.

---

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٥٧٢)

(٢) [سورة النساء آية ١]

المطلب الثالث

الاستدلال على التكليف بالتكوين الفطري للإنسان

تنبني الأدلة التكوينية على أن الإيمان بالله جزء من تكوين الإنسان الذي فطر الله عليه النفوس، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

والفطرة هي الخلقة التي أنشأ الله الخلق عليها من تسوية واعتدال خلقي وخُلقي، ينشأ عنها تصرفات مستقيمة، فيمشي على رجلين، فلو مشى على غيرهما كان مخالفا للفطرة الجسدية، كما يستنتج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها، فلو استنتج الشيء من غير سببه كان مخالفا للفطرة العقلية، «فوصف الإسلام بأنه فطرة معناه أنه فطرة عقلية، لأن الإسلام عقائد وتشريعات وكلها أمور عقلية أو جارية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به»(٣) ويبين هذا أن يوم القيامة حين تتجسد المعاني يحشر الكافر ـ الذي كان يمشي في الأرض منكوسا على خلاف الفطرة ـ يحشر ماشيا على وجهه، وقال الله عز وجل:

---

(١) [سورة الأعراف آية ١٧٢]

(٢) [سورة الروم آية ٢٩]

(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ الطاهر بن عاشور (ص ٦٢)

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١) وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبا على وجهه، أي: يمشي منحنيا لا مستويا على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أي: منتصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة. هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة. فالمؤمن يحشر يمشي سويا على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم»(٢).

فقد خلق الله الإنسان مستقيم البنية مستقيم الوجهة مسلما، ثم بث الله في النفس وفي الآفاق وفي الكتب المنزلة ما يحرك هذه الفطرة، وينميها.

قال روبرت هورتون كاميرون ـ وهو متخصص في التحليل الرياضي والقياس ـ «إنني أعتقد بوجود الله لأنه وهبني التميز الأخلاقي، فالجنس البشري لديه إحساس فطري بما هو خطأ وما هو صواب،... لقد كان الله هو سبحانه صاحب الفضل في هذا البرهان، فهو الذي أنزله على قلبي وجعلني أعتقد في وجوده»(٣).

والقرآن الكريم يستدل على تكليف الإنسان بتوحيد الله وإخلاص العبادة

---

(١) [سورة الملك آية ٢٣]

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ١٨١)

(٣) الله يتجلى في عصر العلم مجموعة من العلماء الأمريكيين (ص ١٠٨ ـ ١٠٩)

له بما جعله في تكوينه من الفطرة، وله في إبراز هذه الفطرة والبناء عليها أساليب متعددة؛

فأحيانا يستثيرها ويستنطق أصحابها للإقرار بها فإذا أقروا كر عليهم بأدلة تكوينية وأوامر تكليفية لا تليق لغيره سبحانه.

وأحيانا يلتقطها عندما تنبري مستصرخة عند الشدائد والكروب.

وأحيانا يعرض هذه الفطرة على لسان الكائنات المفطورة على التسبيح بحمد الله والخضوع له معرضا بالإنسان فهو أولى بالتوحيد والتسبيح لخالقه.

فمن الأول على سبيل التمثيل لا الحصر قوله عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(١).

فقد استخرج منهم الله الإقرار بدليل الفطرة التكويني، ثم بنى عليه أدلة أخرى تكوينية وهي أن أصنامهم لا تملك أن تخلق، ولا أن تضر ولا أن ترحم، وضمن ذلك كله التكليف بإخلاص الدعاء والعبادة لله والتوكل عليه وحده.

وتأمل قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾(٢).

---

(١) [سورة الزمر آية ٣٦]

(٢) [سورة يونس آية٣١ - ٣٢]

أمر الله عز وجل نبيه في هذه الآية أن يقررهم أولا بالدليل التكويني ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم...﴾ فإذا أقروا به بنى عليه الأمر بالواجب التكليفي ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ...﴾ الآية.

وهذه الطريقة من أبلغ وأقوى طرق الاحتجاج والإقناع، إذ تعتمد في مقدماتها على قناعات الآخر لتستدرجه إلى حقائق لا يستطيع نكرانها إلا بالتراجع عن قناعاته، أو بركوب موجة الجحود والتكبر.

ومن الثاني: على سبيل المثال كذلك قوله عز وجل ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٢).

فقد رصد القرآن هذه الفطرة التي برزت بشكل صارخ عند هذه المواقف الشديدة ثم بنى عليها إنكاره لتنكب الإنسان لمقتضيات التكليف بكفره وشركه.

ومن الثالث: قوله عز وجل بعد الأمر بتوحيد الله وبعد مجموعة من الأوامر التكليفية: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ يُسَبِّحُ لَهُ

(١) [سورة الإسراء آية ٦٧]

(٢) [سورة يونس آية ٢٢]

﴿... ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[1].

إن الله تبارك وتعالى بين في هاتين الآيتين وقرائنهما في كتابه أن جميع المخلوقات مفطورة على توحيده والتسبيح بحمده، والإنسان أشرف منها فوجب أن يقر بذلك، خصوصا وقد جاءه من الأدلة النقلية والعقلية ما يعضد ما فطر عليه من الإيمان والتوحيد.

فهذه بعض أساليب القرآن الكريم في إبراز الدليل التكويني الفطري لينطلق منه في إقناع الإنسان عله يستجيب للأوامر التكليفية. «وهكذا تشترك مشاهد الأرض والسماء، مع ما يقع لهم من الأحداث كل يوم، مع الأحاسيس الفطرية التي تلجئ الإنسان إلى القوة الكبرى عند الشدة... تشترك في مخاطبة الحس والخيال، ولمس البصيرة والوجدان، لتركيز عقيدة التوحيد في النفوس»[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) [سورة الإسراء آية ٤٣-٤٤]

(٢) التصور الفني في القرآن (ص: ٢٣٢)

المطلب الرابع

استنباط الأحكام التكليفية من الآيات التكوينية واستفادة الحقائق التكوينية من الأحكام التكليفية

أولا: استنباط الأحكام التكليفية من الآيات التكوينية:

الآيات التكوينية لا تتعلق تعلقا مباشرا بالأعمال التكليفية، لكن هذا لا ينفي أن تستنبط بعض الأحكام التكليفية منها.

وبداية أشير إلى اختلاف الأصوليين في عدد آيات الأحكام فقيل هي خمسمائة آية وقيل غير ذلك، والصحيح أنه إذا قصد بها كل ما يستنبط منه حكم شرعي فالحق عدم حصرها قال الطوفي متحدثا عن شروط المجتهد: أما الكتاب: فالواجب عليه أن يعرف منه ما يتعلق بالأحكام، وهو قدر خمسمائة آية، كما قال الغزالي وغيره، والصحيح أن هذا التقدير غير معتبر، وأن مقدار أدلة الأحكام في ذلك غير منحصر، فإن أحكام الشرع كما تستنبط من الأوامر والنواهي؛ كذلك تستنبط من الأقاصيص والمواعظ ونحوها، فقل أن يوجد في القرآن آية إلا ويستنبط منها شيء من الأحكام. وإذا أردت تحقيق هذا، فانظر إلى كتاب «أدلة الأحكام» للشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكأن هؤلاء الذين حصروها في خمسمائة آية إنما نظروا إلى ما قصد منه بيان الأحكام دون ما استفيدت منه، ولم يقصد به بيانها[1].

(١) شرح مختصر الروضة (٣/ ٥٧٧ ـ ٥٧٨)

والآيات التكوينية تدخل في عموم ما ذكره الطوفي رحمه الله فقد تستنبط منها أحكام تكليفية ويدل على هذا أمور منها:

أولها: ما قرره العلماء من استفادة أحكام أو أخلاق من صفات الله(١)، أو الاقتداء بأفعال الله حسب عبارة الشاطبي(٢) أو التخلق بأخلاق الله(٣) حسب عبارة الغزالي وغيره(٤).

وقد وردت الإشارة إلى هذا التخلق في القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك قوله عز جل: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾(٥).

في الآية خطابان تكليفي وهو الشق الذي تناول حكم العقوبة بالمثل، وتكويني متعلق بفعل الله وصفاته، وملخص الآية أن الله ينصر من عاقب بمثل ما عوقب به إذا بغي عليه.

فربما يُرى أن الأنسب أن تختم الآية بصفتي القوة والعزة، فلم ذيلت بصفتي العفو والمغفرة؟

---

(١) ذكرنا في تمهيد هذا البحث، أن التكوين صفة من صفات الله تتفرع منها جميع الصفات الفعلية

(٢) ينظر الموافقات (٢/ ١٦٩)

(٣) يرى ابن القيم عبارة التخلق بأسماء الله عبارة غير سديدة لأن فيه شبه بقول الفلاسفة التشبه بالإله، ورأى أن أحسن منها التعبد بأسماء الله وأحسن منهما الدعاء، انظر: بدائع الفوائد (١/ ١٦٤)

(٤) المقصد الأسنى (ص: ٤٥)

(٥) [سورة الحج آية ٥٨]

وجواب ذلك؛ أن القرآن يفسر نفسَه، والمتتبع لقرائن هذه الآية في القرآن الكريم لا شك يجد أن الإذن في العقاب بالمثل يعقبه الترغيب في الصبر والعفو والمغفرة[1]، وهي قرينة كاشفة للمقصود بتذييل الآية بالصفتين الكريمتين، قال الزمخشري: «ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي، ويعرّض مع ذلك بما كان أولى به من العفو، ويلوّح به بذكر هاتين الصفتين»[2] وقال ابن جزي: في ذكر هذين الوصفين إشعار بأن العفو أفضل من العقوبة، فكأنه حض على العفو[3].

ثانيها: ما جرى عليه المفسرون والفقهاء من استفادة أحكام تكليفية من آيات تكوينية وأذكر هنا أمثلة منها:

المثال الأول: استنباط علي رضي الله عنه: أقل مدة الحمل من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[4] وقوله ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[5].

المثال الثاني: استنباط الجصاص إسقاط العقوبة على المنافق، من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[6] ورأى أن الله لما أسقط العقوبة التكوينية عليهم في الدنيا جاز ألا يكلفنا بعقوبتهم[7]

---

(١) [سورة النحل آية ١٢٦ ـ إلى آخر السورة] و[سورة الشورى آية ٣٧ إلى ٤٠]

(٢) تفسير الزمخشري (٣/ ١٦٧)

(٣) تفسير ابن جزي (التسهيل لعلوم التنزيل) (٢/ ٤٥)

(٤) [سورة الأحقاف آية ١٤]

(٥) [سورة البقرة آية ٢٣١]

(٦) [سورة البقرة آية ١٤]

(٧) أنظر: أحكام القرآن للجصاص (١/ ٣٢)

وعلق ابن العربي على الآية بقوله: أجرى الله سبحانه أحكامه على الفائدة التي سنها إمضاء لقضاياه بالسنة التي لا تبديل لها[1].

المثال الثالث: استفادة أن الشهيد لا يغسل ولا يصلى عليه من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾[2].

قال ابن العربي رحمه الله: تعلق بعضهم في أن الشهيد لا يغسل، ولا يصلى عليه بهذه الآية؛ لأن الميت هو الذي يفعل ذلك به، والشهيد حي، وبه قال مالك والشافعي[3].

المثال الرابع: وهو مثال طريف لبعض علماء الأحناف، فقد استفاد من آية تتعلق بأمر تكويني ما لملم به شمل أسرة كادت آراء غيره من الفقهاء أن تشتتها، ذكر ابن العربي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[4].

قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الأزدي، أخبرنا القاضي أبو القاسم علي بن أبي علي القاضي المحسن عن أبيه قال: كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجه حبا شديدا قال لها يوما: أنت طالق ثلاثا إن لم تكوني أحسن من القمر، فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلقني. وبات بليلة عظيمة. ولما أصبح غدا إلى دار المنصور، فأخبره الخبر وقال: يا أمير المؤمنين، إن تم علي طلاقها تصلفت نفسي غما، وكان الموت أحب إلي من الحياة؛ وأظهر للمنصور جزعا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٢١)

(٢) [سورة البقرة آية ١٥٣]

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٦٨)

(٤) [سورة التين آية ٤]

عظيما، فاستحضر الفقهاء، واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طلقت، إلا رجلا واحدا من أصحاب أبي حنيفة، فإنه كان ساكتا، فقال له المنصور: مالك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1] يا أمير المؤمنين، الإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال؛ فأقبل على زوجك، فأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجه أن أطيعي زوجك، ولا تعصيه، فما طلقك[2].

فقد استفاد هذا الفقيه الحنفي هذا الحكم من آية تتحدث عن تكوين الإنسان ولا علاقة مباشرة لها بالأحكام التكليفية.

وهكذا فيمكن استثمار الآيات التكوينية وأفعال الله في خلقه، في استنباط أحكام تكليفية، بل ينبغي أن تعد مقاصد الله في خلقه مسلكا من مسالك[3] الكشف عن المقاصد التكليفية.

ثانيا: استفادة الحقائق التكوينية من آيات الأحكام التكليفية:

وقد استفاد ابن عباس رضي الله عنه اقتراب أجل رسول الله من سورة النصر[4]

---

(١) [سورة التين آية ١-٤]

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ٤١٥)

(٣) وهذا المسلك ربما كان لمن لا يحسن استعماله مزلقا يزل فيه استدلاله، ومن ذلك على سبيل المثال استدلال بعض الأصوليين على جواز ووقوع التكليف بما لا مصلحة فيه، بخلق الله ما لا مصلحة فيه. انظر: (الواضح في أصول الفقه) (٣/ ١٨٨)

(٤) انظر: صحيح البخاري (٦/ ١٧٩) كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ رقم الحديث: ٤٩٦٩

وأمر الله رسوله فيها بالتسبيح والاستغفار، كما استفاد ابن عقيل أن قوة الباءة عند الرجل أقوى منها عند المرأة، من تشريع إباحة التعدد والتسري للرجل، وقصر المرأة على رجل واحد قال رحمه الله: «قولهم: إن الله تعالى جعل للمرأة شهوة تزيد على شهوة الرجل بسبعة أجزاء؟ قال: لو كان كذلك ما جعل الله للرجل أن يتزوج بأربع ويتسرى بما شاء من الإماء، وضيق على المرأة فلا تزيد على رجل، ولها من القسم الربع، وحاشا حكمته أن تضيق على الأحرج وتوسع على من دونه في الحرج»[1].

ومن ذلك استفادة كثير من الحقائق المتعلقة بالصحة العضوية والنفسية، من أوامر تكليفية.

وهذا باب ينبغي أن يتصدى له علماء المسلمين في مختلف التخصصات. وهو يدخل في موضوع الإعجاز التشريعي، وهو عندي أولى بالبحث والتنقيب من الإعجاز العلمي، وذلك لما يسفر عنه من فوائد، منها طمأنينة القلب تجاه التكاليف الشرعية، ومنها التدليل على مزية الشريعة على غيرها من الأحكام الوضعية، ومنها أنه يثبت بشكل علمي مخبري توافق التكاليف الشرعية بالحقائق التكوينية، وبالرغم من هذا فلا تزال الأبحاث فيه ضعيفة وقليلة، وإلا فكل حكم شرعي لو أجريت حوله أبحاث لتم التوصل إلى حقائق كثيرة، وقد أجريت أبحاث حول الصيام والصلاة والوضوء توصلت إلى حقائق صحية مثيرة، كانت الأحكام التكليفية هي الباعث إليها.

❁ ❁ ❁

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٤١)

خلاصة المبحث

وفي نهاية هذا المبحث نستنتج أن علاقة الاستدلال من بين أهم العلاقات التي تربط بين التكوين والتكليف، ورأينا أن الاستدلال بالآيات التكوينية على الأحكام التكليفية، تنطلق وفق منهجية محددة، وتتخذ أسالب متعددةً، وتغطي كافة أنواع التكاليف الشرعية، بغية تكوين قناعة واعية لدى المكلَّف، ليُقبل على التكليف الشرعي نشيط الأركان، مطمئن الجنان. كما بين هذا المبحث أن الآيات الواردة في القرآن الكريم التي هدفها البيان والإخبار عن حقائق تكوينية، والاستدلال بها على أحكام تكليفية، يمكن أن تستفاد منها في حد ذاتها أحكام تكليفية كما تستفاد بشكل معاكس حقائق تكوينية من الأحكام التكليفية.

المبحث الثالث
علاقة التكامل والتوازن
(العلاقة التكاملية)

وتحته مطالب:

المطلب الأول: التكامل في التكوين والتكليف.

المطلب الثاني: التكامل بين تكوين الإنسان وتكليفه.

المطلب الثالث: التوازن بين التكوين والتكليف.

المبحث الثالث

علاقة التكامل والتوازن

(العلاقة التكاملية)

علاقة التكامل من بين أهم الخصائص التي يتميز بها الخطاب الإسلامي، فكثير من الثنائيات التي أقام العقل غير المؤيَّد بالوحي بينها علاقة التناقض والصراع، مثل العقل والنقل، والجسد والروح، والثابت والمتغير، والدين والسياسة، والمثالية والواقعية، والدنيا والآخرة، والغيب والشهادة وهلم جرا. (هذه الثنائيات وغيرها) لا يكتفي الخطاب الإسلامي بنفي وصمة التناقض عنها، بل يتجاوز ذلك إلى دمج أمشاجها في رحِمه، ليتولد منها فكر جامع متحد متجانس متكامل.

والتكامل في اللغة: مشتق من كمل وهو أصل صحيح يدل على تمام الشيء[1]، والكمال: التمام الذي يجزأ منه أجزاؤه، تقول: لك نصفه وبعضه وكماله. وأكملت الشيء: أجملته وأتممته[2]، والتكميل والإكمال: الإتمام. واستكمله: استتمه[3]، ويقال: كمل الشيء وتكامل وتكمّل، وأكملته وكملته واستكملته[4]،

(١) مقاييس اللغة (٥/ ١٣٩)

(٢) العين (٥/ ٣٧٨) وتهذيب اللغة (١٠/ ١٤٨)

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ١٨١٣)

(٤) مختار الصحاح (ص: ٢٧٣) أساس البلاغة (٢/ ١٤٦)

ومعنى تكامل الشيء كمل شيئا فشيئا والأشياء كمّل بعضها بعضا[1].

فالتكامل إذن؛ له ثلاث معان يأتي بمعنى الكمال فيقال كمل كمالا وتكامل تكاملا بمعنى واحد، والمعنى الثاني يطلق على وقوع كمال الشيء على التدرج، والثالث حدوث كمال الأشياء باجتماعها وتشاركها في تحقيق الكمال بحيث يُتم بعضها نقصان بعض، وهذا الأخير هو المقصود في هذا المبحث، ولأصل إلى الحديث عن التكامل بين التكليف والتكوين، في سلم متدرج، يلزم أن أتحدث أولا عن التكامل بين عناصر التكوين، والتكامل بين مكونات التكليف، ثم أَدرُج منها إلى مطلب العلاقة بين التكليف والتكوين، لأختم في المطلب الثالث بالتوازن بين التكوين والتكليف.

(١) المعجم الوسيط (٢/ ٧٩٨)

المطلب الأول

التكامل في التكوين والتكليف

تنبني هذه العلاقة على مسلمة هي أن الله وحده هو المتفرد بصفة الكمال، وأن غيره من المخلوقات، عبارة عن خلايا يشد بعضها بعضا ويكمل بعضها بعضا، لتكون جسد هذا الكون بحيث لا ينبني إلا بمجموعها، وهي علاوة على ذلك محتاجة إلى تدبير خالقها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾(١).

والكون «يشكل كلا مندمجا ومنظما يرتبط فيه كل مكون مع المكونات الأخرى عبر شبكة من العلاقات المتبادلة الدقيقة والمعقدة»(٢)، ويتجلى فيها التكامل على أنحاء مختلفة منها:

١ ـ **تكاملها من حيث الوجود**: فوجود بعضها متوقف على وجد غيره من مكونات هذا الكون، فلا يثبت وجود الأحياء مثلا على الأرض إلا بوجود الماء ووجود مكونات هذه الأرض ذاتها، ولا يستقر وجود الأرض إلا مع وجود محيطها الذي تتحرك فيه، ولا يثبت وجود هذا المحيط إلا بوجود جميع المجموعات التي تركب منها وهكذا...

٢ ـ **تكاملها في وظائفها** فكل مكون من مكونات عالم التكوين يكمل

---

(١) [سورة فاطر آية ٤١]

(٢) منظور الإسلام إلى المحافظة على البيئة، د. عبد المجيد الطريبق (ص: ٧١)

وظيفة غيره، فالشمس تشرق مثلا لتبخر المياه والرياح تهب لتثير السحاب ولينزل الماء على الأرض وهكذا في سلاسل متشابكة متشعبة الأطراف، يستحيل الوصول إلى حلقات أطرافها، كل ذلك لتحريك دواليب هذا الكون ولتستمر الحياة.

٣ ـ **تكاملها في تبادل الحاجات** «فقد عرفنا العلم الحديث كيف تتكامل المملكة الحيوانية، وكيف تصدر إحداها إلى الأخرى ما تستغني عنه، وتستورد منها ما تحتاج إليه، فهذه تتنفس ثاني أكسيد الكربون وتفرز الأكسجين، ولا تقوم حياتها بغير ذلك، والأخرى عكسها تماما، فلو كان الجميع يحتاج الأكسجين مثلا، لنفدت الكمية المخلوقة، وهلكت المملكتان معا، لكن الله الذي خلق الجميع نظم التعامل بين المملكتين على هذا النحو الرائع»[1].

٤ ـ **التكامل في التخلص من النفايات**، إن مكونات عالم التكوين تتكامل في قانون التخلص من النفايات وإعادة استخدامها، فكل نفاية تصدر من كائن في هذا الكون يتلقفها كائن آخر ليستعملها، والتداخل في هذا الأمر من الدقة والتعقيد بحيث يستعصي على أي مختبر مهما كان مستوى تنظيمه أن يتابع دورة المادة والطاقة والحرارة وغير ذلك لكائن بري واحد مثلا... فمثلا كل ما يأكله الإنسان هو جزء من كائن حي آخر نباتا كان أو حيوانا، والنفايات التي يلقي بها الإنسان مما يستعمله وكذا ما يلقي به من السبيلين مآله إلى الاستعمال من طرف غيره، حتى عندما يلقى برفاته كله إلى الأرض فإن الكائنات المحللة تباشر عملية

(١) رعاية البيئة في شريعة الإسلام د. القرضاوي ص ١٨

تبعيضها في قبره، وقاعدة استخدام النفايات هذه أساسية في استمرار الحياة»[1].

هذه بعض مظاهر التكامل في عالم التكوين أما التكامل في التكليف فسأقتصر هنا بنص جامع للفيلسوف الدكتور طه عبد الرحمن يقول فيه: (تتعلق) «أحكام الدين بعضها ببعض، بحيث يكمل بعضها بعضا، سواءا كان مؤثرا فيه أو متأثرا به، وبحيث تأتي هذه الأحكام على نسق واحد مكونة مجموعة متحدة قائمة بذاتها؛ فمعلوم أن هذه المجموعة تتضمن على وجه الإجمال، أقساما أربعة هي: أصول العقيدة، وأركان العبادة، وقوانين التعامل، وقواعد الأخلاق، فكل قسم من هذه الأقسام تتناسق عناصره فيما بينها بفضل مبدأ عام ينتظمها جميعا؛ فأركان العقيدة ينتظمها مبدأ الإيمان، وأصول العبادة ينتظمها مبدأ العمل، وقوانين التعامل ينتظمها مبدأ العدل، وقواعد الأخلاق ينتظمها مبدأ الخير، وليس هذا فحسب؛ بل إن هذه الأقسام المختلفة تبدو متلازمة فيما بينها على أكمل وجه؛ فلولا الوفاء بأركان العقيدة لما ثبت للعبادة صحتها، ناهيك عن كمالها، ولولا القيام بأحكام العبادة لما ثبت للأخلاق تمامها ناهيك عن استشرافها للأفق الروحي، ولولا اتباع قواعد الأخلاق لما ثبت للتعامل صلاحه، ناهيك عن الارتقاء بالمصالح»[2].

فتبين من خلال هذا النص أن أحكام التكليف العقدية والعملية والسلوكية متكاملة ومتداخلة بحيث لا يمكن فصل بعضها عن بعض، فالصلاة مثلا وهي عبادة لا تصح إلا بعد استفاء أركان الإيمان، فإذا صحت نهت عن الفحشاء والمنكر وأثمرت أخلاقا كريمة.

---

(١) منظور الإسلام إلى المحافظة على البيئة د. عبد الله الطريبق (ص: ٧٤)

(٢) روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية (ص: ٧٢)

فإذا ثبت التكامل بين مكونات خطاب التكليف من جهة، وبين مكونات عالم التكوين من جهة أخرى، وثبت أن الإنسان مكون من مكونات عالم التكوين لكنه ينفرد بكونه مخاطبا كذلك بأمر التكليف، فلنتحدث عن العلاقة بين تكوين الإنسان وتكليفه.

المطلب الثاني

التكامل بين تكوين الإنسان وتكليفه

والإنسان جزء من هذا الكون المتميز بالوجود الناقص المفتقر.

والنقص في أصل الطبيعة كامن   فبنو الطبيعة نقصهم لا يجحد

وقد خلق الله الإنسان على مستوى من الكمال غير الكامل، وجعله خليفة لتنفيذ أوامر الله في عالم التكوين، ووضع له من التكليف، ما يترقى به في سلم الكمال الذي لن يبلغ آخر درجاته حتى يضع قدمه في الجنة، ويرنو ببصره إلى رب العزة والجلال، والعظمة والكمال، إذن فتكوين الإنسان ناقص من عدة جوانب، ولهذا فلا سبيل لبلوغ الكمال الإنساني إلا بالخضوع للتكليف، فتكليفه يكمل تكوينه، وسأتعرض في هذا المطلب لبعض مظاهر هذا النقص الإنساني، الوارد في خطاب التكوين في القرآن الكريم، وما يكتمل به مما ورد في خطاب التكليف. وإن شئنا قلنا كيف يتكامل التكوين والتكليف في ضبط بعض قوى الإنسان وميولاته؟.

لقد أخبرنا الله في آيات تتحدث عن تكوين الإنسان، أن الإنسان خلق ظلوما جهولا، جزوعا عجولا، منوعا قتورا، متصفا بالضعف والشح والفرح والبطر عند النعمة، واليأس والكفر عند المصيبة، وقد توقف كثير من المفسرين عند هذه الصفات التكوينية للإنسان وكيف كلف بمغالبتها وأقتصر هنا على تفسيرين قال الماتريدي في تفسير قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[1] «... لكنه وإن خلقه على ما أخبر

(١) [سورة الأنبياء آية ٣٧]

جعل في وسعه رياضة نفسه حتى يصير صبورا حليما، وهو ما أخبر ﴿إِنَّ ٱلإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعاً ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً ۝٢١ إِلاَّ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[1] أخبر أنه خلقه هلوعا، ثم استثنى المصلين؛ دل أنه بالرياضة يتحول عن الحالة التي خلقه إلى حالة أخرى، وهي حالة الحلم والصبر، وكذلك ما أخبر: ﴿وَكَانَ ٱلإِنسَٰنُ قَتُوراً﴾[2]، كان كذلك في الابتداء، لكنه بالرياضة والعادة يصير سخيا جوادا، وكذلك ما قال: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[3] ثم قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[4].

أخبر أن الأنفس أحضرت الشح، ثم أخبر أن من يوق شح نفسه فله كذا؛ دل بهذا كله أنه بالرياضة والعادة يحتمل التحول إلى حالة السخاء والجود بعد ما كان شحيحا قتورا بخيلا؛ فعلى ذلك ما ذكر من العجلة والهلع والجزع فيه يحتمل بالرياضة والعادة إلى أن يصير حليما صبورا في الأمور غير ملول فيها، وليست المحنة إلا الرياضة والعادة، فأمره **أن يروض نفسه ويعودها القيام بجميع ما أمره الله، ويكفها عن جميع ما نهى عنه، فيعتاد اتباع أمره والانتهاء عن نهيه، والله الموفق**»[5].

بين الماتريدي رحمه الله من خلال تفسيره لهذه الآية، أن الإنسان وإن

(١) [سورة المعارج آية ١٩ ـ ٢٣]

(٢) [سورة الإسراء آية ١٠٠]

(٣) [سورة النساء آية ١٢٧]

(٤) [سورة التغابن آية ١٦]

(٥) تفسير الماتريدي تأويلات أهل السنة (٧/ ٣٤٥)

خلقه الله على هذه الصفات الناقصة في تكوينه، فقد جعل الله فيما كلفه به من الشريعة، ما يستدرك به نقصه ويكمله به، إذا امتثله ونفذ مقتضياته.

ويقول سيد قطب: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾[1]... فالعجلة في طبعه **وتكوينه**. وهو يمد ببصره دائما إلى ما وراء اللحظة الحاضرة يريد ليتناوله بيده، ويريد ليحقق كل ما يخطر له بمجرد أن يخطر بباله، ويريد أن يستحضر كل ما يوعد به ولو كان في ذلك ضرره وإيذاؤه. **ذلك إلا أن يتصل بالله فيثبت ويطمئن،** ويكل الأمر لله فلا يتعجل قضاءه. والإيمان ثقة وصبر واطمئنان[2].

ومن تأمل تلك الصفات التكوينية يجدها ترجع إلى صفات ثلاث قوى في تكوين الإنسان، هي القوة الدافعة (الغضبية) التي تدفع عن البشر الغوائل والضرر، والقوة الحافظة (الجنسية) التي تحفظ حياة الإنسان واستمراريتها، والقوة الجالبة (التملكية) التي تدفعه لجلب منافعه ومصالحه، وهي قوى تكوينية لابد منها لقيام الحياة الإنسانية وعمارة الأرض كما سيأتي في الفروع الثلاثة، ثم جعل في خطاب التكليف ما يضبط به هذه القوى، من أوامر ونواهي، يقول بديع الزمان سعيد النورسي: «لما لم يحدد الصانع الحكيم قوى البشر الشهوية والغضبية والعقلية بحدٍّ فطري لتأمين ترقيهم بِزَمْبَرَكِ[3] الجزء الاختياري ـ لا كالحيوانات التي حددت قواها ـ حصل انهماك وتجاوز... ثم لانهماك القوى وتجاوزها ـ بسر عدم التحديد ـ تحتاج الجماعة إلى العدالة في تبادل ثمرات

(١) [سورة الأنبياء آية ٣٧]

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٧٩)

(٣) فسرها في الهامش بالنابض

السعي» ثم بين أن هذه العدالة لا تتحقق إلا بقانون كلي وأن هذا القانون ماهو إلا الشريعة الإلهية[1]، كما وضح أن العبادة «هي الذريعة لتهذيب ميول الإنسان، وهي الوسيلة لتحيقق آماله وجعلها مثمرة ريانة... وأيضا هي السبب لتحديد قواه وإلجامها»[2].

وحاصل ما ذكره أن الله خلق في الإنسان قوى تمكنه من تحقيق مصالحه الضرورية والحاجية والتحسينية، كما شرع له من الأحكام ما يضبط به تلك القوى كي لا يكون سعيها وبالا على الإنسان.

فلنتحدث بقليل من التفصيل عن هذه الصفات التكوينية وكيف هذبها القرآن الكريم بالأحكام التكليفية.

الفرع الأول: التكامل بين التكوين والتكليف في ضبط القوة الغضبية:

من حكمة الله أن جعل في تكوين الإنسان قوة غضبية، يقدر أن يدود بها عن حياضه، ويكف يد الظالم عن طغيانه، وذلك إذا قادها العلم وانضبطت بقيود التكليف، كما يقدر أن يعتدي بها على غيره ويطغى، وهذا هو مآلها إذا كان الجهل قائدها، ولم تنضبط بقيود التكليف، يقول عز وجل ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا﴾[3] قال ابن القيم: «والإنسان خلق في الأصل ظلوماً جهولا، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويلهمه رشده،

---

(١) كليات رسائل النور (٥) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز (ص: ١٤٧)

(٢) كليات رسائل النور (٥) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز (ص: ١٤٩)

(٣) [سورة الأحزاب آية ٧٢]

فمن أراد به الخير علمه ما ينفعه، فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علمه، فخرج به عن الظلم، فالنفس تهوى ما يضرها ولا ينفعها، لجهلها بمضرته لها تارة، ولفساد قصدها تارة، ولمجموعهما تارة، وقد ذم الله تعالى في كتابه من أجاب داعي الجهل والظلم، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[2]، فأصل كل خير: هو العلم والعدل، وأصل كل شر: هو الجهل والظلم»[3]، فابن القيم يرى أن الجهل والظلم تكوينيان في الإنسان، وهو مكلف بتكميلهما بالعلم والعدل، فالإنسان خلق وهو لا يعلم شيئا، لكنه وهب وسائل العلم والمعرفة، وكل ذلك (الجهل ووسائل المعرفة) تكويني ثم كلف عند أول أمر إلهي له بمحاربة جهله بالقراءة، ثم أمر بالنظر والتفكر والتدبر والتعقل، واجتناب مثبطات العقل عن الرقي في سلم المعرفة والسمو بمدارك الإنسان عن صفات الحيوان، ثم كلف بالعمل بمقتضيات علمه لكي لا يظلم في حكمه ولا يطغى في تصرفاته، أما العلم المجرد عن العمل فلن يزحزح حامله عن دائرة الجهل والظلم[4]، فالجهل والظلم قرينان لا يفترقان ما لم

---

(١) [سورة القصص آية ٥٠]

(٢) [سورة النجم آية ٢٣]

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٣٦)

(٤) هذا ناهيك عن الأمر بالتوحيد والعدل بمختلف أنواعه ومستوياته ومجالاته، وعدم الاعتداء، وصرف قوته الغضبية في عداوة الشيطان والجهاد في سبيل الله

ينسخهما العلم والعدل، ولهذا فالحضارة التي تتبجح بالعلم وهي متقمصة لأبشع صور الظلم، هي وعلمها في أنتن أوحال الجهل والحماقة، كما يقول جود (Guide) الإنجليزي: «إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة (الجديرة بالآلهة)، ولكننا نستعملها بعقل **الأطفال والوحوش**»... «انظر إلى الطيارة التي تحلق في السماء يخيل إليك أن صانعيها كانوا في علمهم ولباقتهم وصناعتهم فوق البشر، والذين طاروا عليها أولاً لاشك أنهم كانوا في علو همتهم وعزمهم وجرأتهم أبطالاً مغاوير، ولكن انظر الآن إلى المقاصد التي استعملت لها الطيارة وتستعمل لها في المستقبل، إنما هي قذف القنابل، وتمزيق جثث الإنسان، وخنق الأحياء، وإحراق الأجساد، وإلقاء الغازات السامة، وتقطيع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشر إرباً إرباً، وهذه إما مقاصد **الحمقى** أو **الشياطين**»[1]. فما أخسه من حضارة أوصلت أصحابها إلى درجة الأطفال والوحوش والحمقى والشياطين، ذلك لأنها استصحبت معها الجهل والظلم التكوينيين، وصدق ابن القيم في قوله: «والإنسان خلق جهولا ظلوما **فالمؤمن يكمل بالعلم والعدل** وهما جماع الخير وغيره يبقى على الأصل»[2].

الفرع الثاني: التكامل بين التكوين والتكليف في ضبط القوة الجنسية:

شهوة الرفث إلى النساء، لا شك أنها أقوى شهوات الإنسان وأعظمها، هي عظيمة لأن الله أناط بها استمرارية الحياة، لكنها إن لم تنضبط قد تؤدي إلى

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص: ١٩٤) نقلا عن:
Guide to Modern Wickedness. p. 262

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٢٧٣)

فساد البشرية وهلاكها، كما وقع في حضارة اليونان[١] والرومان[٢]، وكما يقع في العصر الراهن للحضارة الغربية، وقد ميز الله الإنسان عن غيره من الحيوانات بقوة هذه الغريزة وضعف إرادته المجردة عن ضبطها، بحيث يحتاج إلى ضابط لها خارج تكوينه، أما غيره من الحيوانات، فإن الله سبحانه جعل في تكوينه صمامات عضوية تحدد الحاجة، والإشباع. فأنثى الحيوان تستغنى عن الذكر بمجرد حدوث الحمل[٣]. ولا يحدث الميل إلى السفاد لدى الحيوان إلا في «مواسم وأيام محدودة في السنة، ويرجع ذلك إلى أن الله عز وجل جعل الحيوانات مضبوطة الغرائز،... بحيث ينطفئ الميل الجنسي في غير أيام الميل الجنسي، ويفرغ الحيوان لمشاغله الأخرى.

أما الإنسان فقد ربط الحق هذا الجهاز - وهو التناسلي - مع مركز الإرادة عند الإنسان، ينظم ذلك قلة وكثرة، وضبطا وانفلاتا، حسبما تقوده إرادته، ولذا كان الإنسان الكائن الوحيد الذي سيحاسب على هذه الغريزة»[٤] يقول عز وجل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾[٥].

---

(١) انظر الحجاب لأبي الأعلى المودودي ص ١٣ إلى ١٦

(٢) انظر الحجاب ص ١٧ إلى ٢٠

(٣) سورة الواقعة ومنهجها في العقائد (ص: ٢٥)

(٤) معجزة خلق الإنسان بين الطب والقرآن (ص: ٥٤ - ٥٥) د. نبيه عبد الرحمن عثمان طبع مطابع رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة

(٥) [سورة النساء آية ٢٦ - ٢٨]

ذهب غالب المفسرين على أن المقصود بالضعف في الآية ضعف الإنسان أمام شهوة النساء[1] تماشيا مع سياق الآية.

قال الواحدي: وقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، قال ابن عباس: يريد الزنا وما لم يحل لكم. وكذلك قال مجاهد: هم الزناة، يريدون أن يزني أهل الإسلام، وهو قوله: ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

وقال ابن زيد: هم جميع أهل الباطل في دينهم. وهذا هو الأظهر من هذه الأقاويل؛ لأنه على معنى العموم الموافق لظاهر اللفظ.

وفي هذا دلالة على أن من اتبع شهوته فيما يحل لا يوصف باتباع الشهوة، ولا يطلق عليه هذا الوصف؛ لأن الله تعالى أطلق على المبطلين ممن يتبعون شهواتهم فيما لا يحل»[2].

ولهذا فلما جعل الله في تكوين الإنسان هذه الغريزة القوية لتؤزه إلى نشر بذور الإنسان التي أودعها الله في صلبه، كي تستمر خلافة الإنسان في الأرض إلى الأجل المسمى عند الله، فلما كان الأمر كذلك ولم يجعل في تكوينه ما تنضبط به ـ كما فعل بالحيوانات ـ جعل في تكليفه من الأوامر والنواهي ما يكفي بتدبير هذه الغريزة وضبطها في جميع مناحيها، حتى تؤدي رسالتها بشكل سليم، ولست هنا بصدد عرض تلك التكليفات، إذ لا تسعها مجلدات بله أن يسعها مطلب، وحسبي هنا أن أشير إلى هذا التكامل.

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٣٦٨) وتفسير الطبري جامع البيان (٨/ ٢١٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ٤٤٧)

(٢) التفسير البسيط للواحدي (٦/ ٤٦٤)

الفرع الثالث: تكامل التكوين والتكليف في ضبط القوة التملكية:

هذه القوة تعبر عنها أوصاف عديدة في القرآن الكريم منها كون الإنسان منوعا قتورا فرحا موصوفا بالشح والجزع وحب المال وغير ذلك. ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾(٣).

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى لرسوله صلوات الله عليه وسلامه: قل لهم يا محمد: لو أنكم ـ أيها الناس ـ تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتم خشية الإنفاق. قال ابن عباس، وقتادة: أي الفقر أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبدا؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾(٤) قال ابن عباس، وقتادة: أي بخيلا منوعا. وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾(٥) أي: لو أن لهم نصيبا في ملك الله لما أعطوا أحدا شيئا، ولا مقدار نقير، **والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له،**... ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز(٦).

---

(١) [سورة العاديات آية ٨]

(٢) [سورة الفجر آية ٢٢]

(٣) [سورة الإسراء آية ١٠٠]

(٤) [سورة الإسراء آية ١٠٠]

(٥) [سورة النساء آية ٥٢]

(٦) تفسير ابن كثير (٥/ ١٢٤)

وحب المال والتملك قوة جعلها الله في تكوين الإنسان، أوْكَل إليها سَوْق الإنسان نحو العمل والكسب، لعمارة الأرض والاضطلاع بمسؤولية الخلافة، ولو زهد كلنا في الدنيا ورغب عن التملك وكسب الأموال، والتمتع بطيبات الحياة، لتوقفت التنمية، وتعطلت الحرف والصناعات، وتعسر العيش، وانحلت كثير من روابط العلاقات الاجتماعية.

وكما يختل العيش والتماسك الاجتماعي عند مخالفة فطرة التملك التكوينية لدى الإنسان، كذلك يختلان إن تركت هذه القوة بلا قيود تكليفية تنظمها، حتى لا تؤدي إلى الظلم واستحواذ الأقوياء على ممتلكات الضعفاء، ولهذا وضع الله في خطاب التكليف أوامر ونواهي لتقود الإنسان إلى العدل في الكسب والإنفاق والتوزيع، **فالقوة التكوينية تسوقه وتؤزه لأجل التملك أزا، والقوة التكليفية تقوده وهو يسعى لأجل التملك وتأطره على العدل أطرا.**

المطلب الثالث

التوازن بين التكوين والتكليف

التوازن في اللغة: قال ابن فارس: الواو والزاء والنون: بناء يدل على تعديل واستقامة(١)، والوزن: ثقل شيء بشيء مثله(٢)، ووازنت بين الشيئين موازانة ووزانا. وهذا يوازن هذا، إذا كان على زنته أو كان محاذيه(٣).

والتوازن يبدو جليا فيما خلقه الله وأنشأه في عالم التكوين، وفيما أمر الله به وشرعه في خطاب التكليف، وهذا مبثوث في مظانه، لكن مقصودي في هذا المطلب، التوازن بين تكوين الإنسان وتكليفه.

وأعني بالتوازن هنا، ضبط النِّسب بين مستويات تكليف الإنسان، وقدراته التكوينية، بحيث يتعادلان، فلا يطغى جانب على جانب، بدءا؛ إذ يتدرج الإنسان في مستويات التكليف مع تدرجه في الخلق والتكوين، واستمرارا؛ إذ يخفف تكليف الإنسان كلما نالته شدة في تكوينه وخلقه.

ولهذا التوازن مجالي كثيرة أكتفي بذكر ثلاثة منها في الفروع الآتية:

الفرع الأول: توجه التكليف للإنسان على التدرج متوازنا مع تدرج تكوينه:

يمتد ضعف الإنسان وعجزه بعد الولادة مرحلة طويلة مقارنة مع غيره من

---

(١) مقاييس اللغة (٦/ ١٠٧)

(٢) العين (٧/ ٣٨٦) تهذيب اللغة (١٣/ ١٧٦)

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٢١٣)

الحيوانات، وخلال هذه المدة يمر بمراحل من النمو الجسمي والحركي والحسي والعقلي والتربوي، وذلك لأن الإنسان كائن مكلَّف، تصدر منه سلوكات إرادية وليست غريزية مثل الحيوان، وهو مسؤول عما صدر منه، فاقتضى ذلك أن يمكث مدة طويلة يكتمل فيه تكوينه الجسمي والعقلي، وخلال هذه الفترة، يعتني به خطاب التكليف دون أن يتوجه إليه، ويحيطه بالحفظ والرعاية، في نفسه وماله، ويزرع فيه بذوره بشكل غير مباشر[1]، قبل أن يتوجه إليه مباشرة بشكل تدريجي، ومتى طاق تكوينه البدني والعقلي عملا ما، كلف به لكن بأخف أحكام التكليف، وهما الندب والكراهة، دون الإيجاب، والتحريم.

قال صاحب المراقي:

قد كلف الصبي لدى الذي اعتمي ... بغير ما وجب والمحرم[2]

ودليله ما رواه ابن عباس، أن النبي ﷺ لقي ركبا بالروحاء، فقال: «من القوم؟» قالوا: المسلمون، فقالوا: من أنت؟ قال: «رسول الله»، فرفعت إليه امرأة صبيا، فقالت: ألهذا حج؟ قال: «نعم، ولك أجر»[3].

---

(١) وذلك بواسطة الأبوين وجميع أفراد الأسرة ثم المجتمع والوسط الذي يعيش فيه المؤطر بخطاب التكليف، فيتربى في وسطهم منذ ولادته وقد تشرب مبادئ التكليف،

(٢) قال صاحب النشر: شارحا هذا البيت: إن الصبي مكلف عندنا على ما صححه ابن رشد... والقرافي... والبلوغ إنما هو شرط في التكليف بالواجب والمحرم لا في الخطاب بالندب والكراهة والإباحة، فهو ووليه مندوبان إلى الفعل وماجوران، فإزالة النجاسة مثلا يخاطب بها، لا على وجه الوجوب أو السنية كالبالغ، بل على سبيل الندب فقط. (نشر البنود شرح مراقي السعود) (ص: ٢٤ ـ ٢٥)

(٣) صحيح مسلم (٢/ ٩٧٤) رقم: (١٣٣٦)

وهكذا تكتب له الحسنات، ولا تسجل عليه السيئات[١]، قال ابن بطال: اتفق أئمة الفتوى على سقوط فرض الحج عن الصبي حتى يبلغ؛ لقوله عليه السلام: (رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ)[٢] إلا أنه إذا حج به كان له تطوعا عند مالك والشافعي وجماعة من العلماء وعلى هذا المعنى حمل العلماء أحاديث هذا الباب[٣].

كما يتدرج به بحسب تكوينه البدني والعقلي كذلك في مسألة العقاب، قال الغزالي رحمه الله: «فإن قيل: فالصبي المميز مأمور بالصلاة. قلنا: مأمور من جهة الولي والولي مأمور من جهة الله تعالى، إذ قال ـ عليه السلام ـ «مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر»[٤] وذلك؛ لأنه يفهم خطاب الولي ويخاف ضربه فصار أهلا له، ولا يفهم خطاب الشارع، إذ لا يعرف الشارع، ولا يخاف عقابه إذ لا يفهم الآخرة[٥].

وهكذا حتى إذا بلغ توجه له خطاب التكليف، ويكلف في البداية

---

(١) وهذا من صور سبق رحمة الله عز وجل غضبه

(٢) سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٢رقم الحديث:) ١٤٢٣) باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد. وذكره البخاري موقوفا على علي: كتاب الحدود باب: لا يرجم المجنون والمجنونة (٨/ ١٦٥) كل ذلك بلفظ مقارب

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤/ ٥٢٨)

(٤) سنن أبي داود (١/ ١٣٣) كتاب الصلاة، باب: باب متى يؤمر الغلام بالصلاة رقم الحديث (٤٩٥) قال الألباني في صحيح أبي داود (٢/ ٤٠١ ((إسناده حسن صحيح. وقال النووي: «إسناده حسن»)

(٥) المستصفى (ص: ٦٧)

بالفروض العينية في خاصة نفسه، فإذا كمل تكوينه في جانب تعين في حقه بعض فروض الكفاية، كما يكلف بعد الزواج بما تحت رعايته، وهكذا كلما كمل تكوينه كمل معه تكليفه، فتكليف العالم يفوق تكليف العامي، وتكليف الإمام يفوق تكليف الرعية، ومن هذه الناحية كان الأنبياء أشد الناس بلاء، ثم الصالحون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. فإذا بلغ العبد مرحلة الضعف الثانية، وشرع تكوينه ينقض وأخذ عوده في الذبول، بدأت أوامر الشرع عنه تنفض، وبنود تكليفه في الأفول، حتى يمشي على الأرض وما عليه تكليف.

ومما يتعلق بهذا الفرع التوازن المتمثل في علاقة التأثر والتأثير المتبادل بين تكوين العبد وتكليفه، فكلما كان العبد قائما بمقتضيات التكليف، سلم تكوينه فأهل الطاعات أصح الناس عقولا ونفوسا وقلوبا وأبدانا، وكلما سلم تكوين الإنسان قوي تكليفه، فأهل العقول السليمة والقلوب الصحيحة والنفوس الصافية والأبدان القوية، أجدر للمسؤوليات العظام والتكاليف الجسام، ولذا كان المؤمن القوي أقرب وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

الفرع الثاني: توازن التكليف شدة وتخفيفا مع تكوين الإنسان:

وأشد ما يكون هذا الأمر ظاهرا في أحكام الرخصة.

والرخصة «ما شرع لعذر شاق، استثناء من أصل كلي يقتضي المنع، مع الاقتصار على مواضع الحاجة فيه»[1].

فهي إذن بمنظور هذا البحث؛ تخفيف طارئ ومؤقت في تكليف العبد أما

---

(١) الموافقات (١/ ٤٦٦)

بالنقصان منه، أو إبداله، أو إسقاطه، وذلك لنقصان واقع أو متوقع في تكوين العبد يشق معه القيام بالتكليف الأصلي.

يقول الشاطبي مبرزا رحمة الله بعباده، في رعاية التوازن بين تكوين العباد وتكليفهم:

«لما كان المكلف ضعيفا في نفسه، ضعيفا في عزمه ضعيفا في صبره؛ عذره ربه الذي عِلمه كذلك وخلقه عليه؛ فجعل له من جهة ضعفه رفقا يستند إليه في الدخول في الأعمال، وأدخل في قلبه حب الطاعة وقواه عليها، وكان معه عند صبره على بعض الزعازع المشوشة، والخواطر المشغبة، وكان من جملة الرفق به أن جعل له مجالا في رفع الحرج عن صدماته، وتهيئة له في أول العمل بالتخفيف، استقبالا بذلك ثقل المداومة، حتى لا يصعب عليه البقاء فيه والاستمرار عليه، فإذا دخل العبد حب الخير، وانفتح له يسر المشقة؛ صار الثقيل عليه خفيفا، فتوخى مطلق الأمر بالعبادة بقوله: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾[(1)] ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[(2)].

فكأن المشقة وضدها إضافيان لا حقيقيان،... فالأمر متوجه، وكل أحد فقيه نفسه، فإذا كان الأمر والنهي المراد بهما الرفق والتوسعة على العبد؛ اشتركت الرخص معهما في هذا القصد»[(3)].

ولما كان التوازن قائما على ضبط النسب بين كفتي التكوين والتكليف

(١) [سورة المزمل آية ٧]

(٢) [سورة الذاريات آية ٥٦]

(٣) الموافقات (٣/ ٤٢١ ـ ٤٢٢)

حتى لا ترجح واحدة وتطيش أخرى، راعى الفقهاء والأصوليون ضبط كفة التكليف من جانب بإقامته وحفظه، وكفة التكوين، فلا تستغل الرخصة فيما يعود بالتكليف بالنقض، ولا يتحمل العبد ما لا يطيق تكوينه تمسكا بالعزيمة، ولهذا قرر الفقهاء أمرين.

أولهما: أن الرخص إنما اعتبرت لإقامة التوازن حتى لا يختل الأمر بين التكوين والتكليف، بل يحفظ جانبهما معا، أما حفظ التكوين فظاهر؛ ففي الرخصة في أكل الميتة مثلا للمضطر حفظ لتكوينه، أما حفظ التكليف، فبينه الشاطبي بقوله: «الرخصة مستمدة من قاعدة رفع الحرج، كما أن العزيمة راجعة إلى أصل التكليف، وكلاهما أصل كلي؛ فالرجوع إلى حكم الرخصة وقوف مع ما مثله معتمد، لكن لما كان أصل رفع الحرج واردا على أصل التكليف ورود المكمل؛ ترجح جانب أصل العزيمة بوجه ما، غير أنه لا يخرم أصل الرجوع **لأن بذلك المكمل قيام أصل التكليف**»[1].

وإذ قد كان الأمر كذلك فإن الرخصة لا تناسب العاصي لأن في فعله هدم للتكليف وليس إقامة له، وفي هدمه إخلال بالتوازن، ولهذا جاء في القواعد الفقهية (العصيان ينافي الترخيص)[2] ولها صيغ أخرى أشهرها (الرخص لا تناط بالمعاصي)[3].

---

(١) الموافقات (١/ ٢٦٤)

(٢) انظر: القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة (٢/ ٨٨٦)

(٣) المنثور في القواعد الفقهية (٢/ ١٦٨) الأشباه والنظائر للسبكي (١/ ١٣٥) الأشباه والنظائر للسيوطي (ص: ١٣٨)

ثانيهما: إذا كان الفقهاء بينوا الضابط الأول مراعاة لجانب التكليف حتى لا يفسد، فإن الأصوليين لم يهملوا ضبط الرخص فيما يحفظ جانب تكوين العبد كذلك، ومن أجل ذلك قسموا الرخص إلى مباحة ومندوبة وواجبة[(١)]، حسب تكوين العبد وقدرته على التحمل. لكي لا يهلك المرء نفسه متعذرا بقيامه بواجب التكليف قال ابن تيمية: «فإن النفوس لا تقبل الحق إلا بما تستعين به من حظوظها التي هي محتاجة إليها، فتكون تلك الحظوظ عبادة لله وطاعة له مع النية الصالحة. ألا ترى أن الأكل والشرب واللباس واجب على الإنسان؛ حتى لو اضطر إلى الميتة وجب عليه الأكل عند عامة العلماء، فإن لم يأكل حتى مات دخل النار»[(٢)].

الفرع الثالث: التوازن بين ما جعله الله في فطرة الإنسان وتكوينه، وبينما جعله في أمره وتكليفه:

وأقصد بهذا الفرع أن الله تبارك وتعالى، جعل في تكوين الإنسان وفطرته بواعث تدفعه إلى بعض التصرفات، كما أن أوامره التكليفية كذلك بواعث تدفع المكلف إلى تصرفات معينة، ولما كان هذا وهذا من الله عز وجل وهو الذي له الخلق والأمر، فكلما أخذ باعث ما حيزا واسعا في تكوين الإنسان؛ تقلصت

(١) قال الزركشي: وقد قسمها الأصوليون إلى ثلاثة: واجبة، ومندوبة، ومباحة. فالواجبة كإساغة اللقمة بالخمر لمن غص باللقمة، وكتناول الميتة للمضطر بناء على النفوس حق الله وهي أمانة عند المكلفين، فيجب حفظها ليستوفي الله حقه منها بالتكليف. وقال ابن دقيق العيد: وهذا يقتضي أن تكون عزيمة لوجود الملزوم والتأكيد قال: ولا مانع أن يطلق عليه رخصة من وجه وعزيمة من وجه، فمن حيث قام الدليل المانع نسميه رخصة، ومن حيث الوجوب نسميه عزيمة. (البحر المحيط في أصول الفقه) (٢/ ٣٤)

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (ص: ١٠٩)

مساحته في الأوامر التكليفية بحسب ذلك، والشرط وجوابه ينعكسان، ولنمثل لهذه الحقيقة بأمثلة ثلاثة.

المثال الأول: الوصية بالوالدين والوصية بالأولاد:

عندما نقارن بين الآيات التكليفية الواردة في القرآن الكريم، الآمرة الأولاد ببر الوالدين مع ما ورد فيه من وصية الآباء بالأولاد، نجد فرقا شاسعا، فقد جاء الأمر ببر الوالدين صريحا وجازما وبعبارات قوية ومتنوعة، فوصى بالإحسان إليهما[١]، وقضى به[٢]، وأخذ عليه الميثاق[٣]، وحرم عقوقهما[٤].

بينما نجد الأولاد في القرآن الكريم يكاد لا تتعرض لهم الآيات التكليفية إلا في الحالات التي تكون فيه حالة الوالدين غير مستقرة.

فما وجدت في كتاب الله وصية الآباء بالأبناء إلا في آيتين هما[٥]: قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾[٦] وقوله ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾[٧].

---

(١) انظر [الأحقاف ١٤] و[لقمان ١٥] و[العنكبوت ٧] و[مريم ٣٢]

(٢) انظر [الإسراء ٢٣]

(٣) انظر [البقرة ٨٢]

(٤) انظر [الأنعام ١٥٢]

(٥) نعم ورد في القرآن الكريم قصص وأخبار للآباء مع الأبناء، هي من قبيل الآيات التكوينية التي قد تستفاد منها أحكام تكليفية، مثل وصايا لقمان لابنه ، وهي قصة يحكي فيه القرآن عناية أب بابنه

(٦) [سورة النساء آية ١١]

(٧) [سورة البقرة آية ٢٣١]

وما دونهما إما قصص لآباء مع أبنائهم كقصة لقمان مع ابنه ووصاياه له، وقصة نوح مع ابنه، وقصة إبراهيم مع إسماعيل، وغيرها. فهي آيات تكوينية تحكي عناية الآباء بأولادهم، وليست وصايا مباشرة من الله إلى الآباء، نعم تستفاد منها أحكام تكليفية لا لأنها أوامر تكليفية، لكن عن طريق الاقتداء والاتساء.

أو آيات عامة تشمل الأولاد وغيرهم من الأهل، كقوله ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(١).

أو في سياق الحث على حقوق الآباء وتذكر الأبناء بعناء الآباء من أجلهم، كقوله تعالى ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾(٢).

لكن هذا لا يفهم منه أن القرآن لم يعنى العناية الكافية بالأبناء، وإنما هذا من مظاهر التوازن بين ما جعله الله في الأمر التكويني، وما جعله في الأمر التكليفي، فالله الذي نزل القرآن؛ لما كون خلقه جعل في تكوينهم، وسطر في كتاب فطرهم، رحمة الأباء بأبنائهم، ويستوي في هذا الأمر الإنسان والحيوان، فحب الآدمية لولدها، ليس بأكثر من وله الناقة بفصيلها، ولا من تعلق الدجاجة بفرخها، إذن فباعث عناية الآباء بأبنائهم مغروس في تكوينهم العاطفي، وهم مجبولون عليه، ولهذا لم يركز عليه القرآن في خطابه التكليفي.

---

(١) [سورة طه آية ١٣١]

(٢) [سورة الأحقاف آية ١٤]

لكن عندما تضطرب الأمور، ويخشى أن يتدخل الدخلاء في إفساد بواعث الفطرة؛ هنا يأتي دور خطاب التكليف، ليؤكدها فيأتي الأمر للمرأة المطلقة بإرضاع وليدها حولين كاملين، قال مقاتل: «والوالدات يرضعن أولادهن **يعني إذا طلقن** حولين كاملين» والأمر هنا ضروري لأن الفطرة ربما تكدرت بالنزاع بين الأبوين، وكذلك تأتي الوصية ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾[1] لما يصبح حق هذا الولد في يد غير والده، فتأتي الوصية بحقهم في الإرث، وذلك لا يكون إلا بعد موت أحد الأبوين، قال الطبري: يقول: «يعهد إليكم ربكم إذا **مات الميت منكم وخلف أولادا ذكورا وإناثا**، فلولده الذكور والإناث ميراثه أجمع بينهم، للذكر منهم مثل حظ الأنثيين، إذا لم يكن له وارث غيرهم»، إذن فهي ليست وصية للآباء بأولادهم بل هي وصية للمجتمع بأولاده.

المثال الثاني: الحق والواجب:

القرآن الكريم يركز على الواجب، فقد اعتنى ببيانه وتفصيل أنواعه، والحث عليه وذكر ثواب من قام به، وعقوبة الإخلال به، فأوامر القرآن كلها عبارة عن واجبات ابتداء بالأمر بالتوحيد، إلى ما دون ذلك من فروع العبادات والأخلاق والسلوك، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وطاعة ولي الأمر واجب، وإطعام المسكين والأرملة واليتيم واجب، والنهي عن الإسراف واجب... إلخ. ولا أقصد بالواجب في هذا السياق معناه الأصولي، الذي يقابله الندب والإباحة والكراهة والتحريم، إنما أقصد به الواجب بمعناه عند الحقوقيين الذي يقابله الحق.

---

(١) [سورة النساء آية ١١]

ولم يعتن مثل هذه العناية بالحق، وذلك والله أعلم لإقامة التوازن بين ما هو في الفطرة وما هو في القرآن، فالله غرس في تكوين خلقه عامة وليس الإنسان وحده الباعث التي يدفعهم لتحري حقهم، والمطالبة به والدفاع عنه.

بل لما كان الإنسان بسبب قوة هذا الباعث الفطري يتعسف أو يعتدي أحيانا في المطالبة بالحق، يأتي الحق في القرآن معقَّبا بما يخفف الباعث إليه، فمثلا لما ذكر الحق في معاقبة المعتدي اشترط أن يكون بالمثل، ثم رغب في العفو والصفح، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(١) ولهذه الآية قرائن عديدة في القرآن الكريم.

المثال الثالث: المال والمآل:

لا شك أن القرآن يتضمن من الأوامر الحثيثة، بالعناية بالمآل في الدار الآخرة، ما لا يتضمنه من الحث بعمارة الأرض باكتساب الأموال وترويجها، وقد تعرض الشيخ الطاهر بن عاشور لهذه المسألة فبين أن قصد الشريعة في السمو بالإنسان إلى الفضائل النفسانية، والكمالات الأخلاقية من جانب، والداعي الشيطاني المستدرج لأهل الثروة إلى وضعها في معصية الله من جهة، «صرفا أقوال الشريعة عن الصراحة في الحث على اكتساب المال وفي بيان محاسن اكتسابه لمن أقام نفسه في مقام السعي والكد؛ لكي لا ينضم حثها إلى ما

(١) [سورة النحل آية ١٢٦ ـ ١٢٨]

في داعية النفوس من الحرص على المال، تلك الداعية التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1] وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾[2] حذرا من أن يحصل من اجتماع الداعيتين تكالب الأمة على اكتساب المال والافتتان به، معرضين عما خلا ذلك من أسباب الكمال، قال تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[3] وقال ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا﴾[4] وفي الحديث الصحيح «أخاف عليكم أن تنافسوا فيها كما تنافس الذين من قبلكم، فتهلككم كما أهلكتهم»[5]، فشبه التنافس المحذور بالتنافس الذين من قبلنا، وهو التنافس الذي تتمحض له الأمة فتنصرف عن التنافس في الفضائل والأخلاق الحميدة، وربما دحضت كثيرا من صفات الكمال سعيا وراء جلب المال، لذلك اقتنعت الشريعة في هذا الشأن بأن لم تنه الناس عن اكتساب المال من وجوهه المعروفة، وبأن بينت ما في وجوه صرفه من المصالح والمفاسد؛ رغبة ورهبة»[6].

وقد بين الشيخ من خلال هذا النص ذلك التوازن بين الدواعي الجبلية المغروسة في تكوين الإنسان، وبين الدواعي الشرعية الواردة في الأوامر التكليفية.

---

(١) [سورة الفجر آية ٢٢]

(٢) [سورة آل عمران آية ١٤]

(٣) [سورة التغابن آية ١٥]

(٤) [سورة سبأ آية ٣٧]

(٥) سنن الترمذي (٤/ ٦٤٠) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع رقم ٢٤٦٢

(٦) مقاصد الشريعة الإسلامية الطاهر بن عاشور [١٨٨ - ١٨٩]

ولما كانت الحضارة المادية العوراء منفصلة عن التكليف الإلهي؛ كانت بواعثها تكوينية حيوانية محضة، فقلبت هذه الموازين فإذا نظرنا إلى ما مثلنا به وجدنا انصراف اهتمام الحقوقيين والمشرعين إلى الأولاد ورُمي الوالدان في دار العجزة، وهكذا الحيوان يهتم بالأولاد ولكن، قلما نجده يهتم بأصوله، كما انصرف اهتمامهم إلى الاعتناء بالحق وبيان تفاصيله دون الواجب، فحل الدفاع عن الحق في الحرية مثلا؛ محل الاهتمام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، «وللرجل الثري ـ كما يقول ألكسيس كاريل ـ كل الحقوق، ففي استطاعته أن ينبذ زوجته الطاعنة في السن، ويهجر أمه المحتاجة لتقع فريسة الفقر»[1]، كما اهتمت بالكماليات المادية والمال، وضيعت الضرورات الروحية ونسيت المآل.

❃ ❃ ❃

(١) الإنسان ذلك المجهول (ص: ١٦٤)

خاتمة المبحث

وقد تبين من خلال هذا المبحث ذلك التكامل والتوازن بين التكوين والتكليف في عدة مستويات وتجليات، وتبين من خلال ما سبق أن «شريعة الله تمثل منهجا شاملا متكاملا للحياة البشرية يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية في جميع حالاتها، وفي كل صورها وأشكالها... وهو منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني، والحاجات الإنسانية، وبحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان وبطبيعة النواميس التي تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية... ومن ثم لا يفرط في شيء من أمور هذه الحياة، ولا يقع فيه ولا ينشأ عنه أي تصادم مدمر بين أنواع النشاط الإنساني، ولا أي تصادم مدمر بين هذا النشاط والنواميس الكونية، إنما يقع التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق... الأمر الذي لا يتوافر أبدا لمنهج من صنع الإنسان الذي لا يعلم إلا ظاهرا من الأمر، وإلا الجانب المكشوف في فترة زمنية معينة، ولا يسلم منهج يبتدعه من آثار الجهل الإنساني، ولا يخلو من التصادم المدمر بين بعض ألوان النشاط وبعض، والهزات العنيفة الناشئة عن هذا التصادم»[1].

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٨٩٠)

المبحث الرابع
علاقة الثواب العقاب
(العلاقة السببية)

المطلب الأول: الجزاء التكويني المعنوي على الأعمال التكليفية.

المطلب الثاني: الجزاء التكويني المادي على الأعمال التكليفية.

المبحث الرابع

علاقة والثواب العقاب

(العلاقة السببية)

العلاقة السببية من أبين وأهم العلاقات التي تربط بين التكليف والتكوين، فما من تكليف إلا وتعلقت بها مثوبة محفزة، أو عقوبة رادعة، ولهذا فليس غرضي من هذا المبحث بيان العقوبات والأجزية المقررة في التشريع الجنائي الإسلامي، بل هذا المبحث يتجه نحو دراسةٍ نظريةٍ لمفهوم الجزاء التكويني وعلاقته بالتكليف، وهذا الأمر ما علمت أحدا تطرق إليه بالبحث والدراسة، رغم سعته وغزارة مادته، وبما أن المبحث الواحد لا يسع الحديث عن جميع أنواع الأجزية التكوينية في القرآن الكريم فسأقتصر على نوعين فحسب، الأول الجزاء التكويني المعنوي، والثاني الجزاء التكويني المادي.

❁ ❁ ❁

المطلب الأول

الجزاء التكويني المعنوي

يخطئ بعض القانونيين عندما يحصر الجزاء في القاعدة الدينية في الجزاء الأخروي، والحقيقة أن الجزاء فيها أوسع وأكثر من ذلك.

فإلى جانب أقسام العقوبات التشريعية (التكليفية) التي تكفلت كتب الفقه ببيانها، ويتعلق الأمر بالحدود والقصاص والتعزيرات والديات، يضاف لها العقوبات الأدبية النفسية كالتفسيق، والهجر.

فهناك الجزاء التكويني المادي بأنواعه الكثيرة في الدنيا والآخرة، سأتحدث عن بعض قضاياه في المطلب الثاني.

وهناك الجزاء التكويني المعنوي، وبهذا فإن الجزاء في القرآن الكريم يتميز بغنائه وشموليته، وتنوعه.

وأعني بالجزاء التكويني المعنوي على الخصوص مسألة الهداية والإضلال وهما من المسائل التي تعتبر معقدة في العقائد الدينية، وقد أثارت لدى المسلمين أيضا كثيرا من الجدل العقدي الذي يفرق الأمة ولا يجمعها ولا تزال بعض إشكالات هذه المسألة تثار في زماننا المعاصر.

فمن الناس من يبدي ذلك، فيتساءل ذلك السؤال القديم الجديد، كيف يحرم الله الإنسان من الهداية ثم يعاقبه؟ ومنهم من يكبت هذا السؤال في نفسه ويستعيذ بالله من وسوسة الشيطان، مجتهدا في دفع هذا الخاطر الخطير، ومنهم

من يؤول ما ورد في ذلك من الآيات الصريحة الواضحة، بما ينسجم مع ما يرى ويريد، فيرجع الضمير مثلا في قوله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾(١) إلى الإنسان، يعني أن من شاء الضلالة أضله الله، ومن شاء الهداية هداه الله، فيسند الضلالة والهداية إلى مشيئة العبد، ومنهم من قال إن معنى الآية «أن الله سبحانه يعتبر الإنسان ضالا بعد أن يسلك مختارا طريق الضلال، ويعتبره هاديا متى سلك سبيل الهداية»(٢).

وغير ذلك مما يمكن أن يفيد أن الهداية والإضلال من فعل العبد.

ولهذا ارتأيت أن أنظر إلى هذه المسألة من زاوية أخرى، علني أجيب عن تلك الأسئلة التي تشغب على النفس المؤمنة بما يتطابق تماما مع النصوص القرآنية، ومع الفطرة والسنن الكونية، وقبل ذلك أسوق آية وأعقبها بما ورد من تفسيراتها عند المفسرين.

الفرع الأول: آية وأقوال المفسرين فيها:

يقول عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣).

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ولو شاء ربكم أيها الناس للطف بكم بتوفيق من عنده، فصرتم جميعا جماعة واحدة، وأهل ملة واحدة لا تختلفون ولا

---

(١) [سورة فاطر آية ٨]

(٢) التفسير الكاشف لجواد مغنية (شيعي) (ج٢ ص ٣٩٩)

(٣) [سورة النحل آية ٩٣]

تفترقون، ولكنه تعالى ذكره خالف بينكم، فجعلكم أهل ملل شتى، بأن وفق هؤلاء للإيمان به، والعمل بطاعته، فكانوا مؤمنين، وخذل هؤلاء فحرمهم توفيقه فكانوا كافرين، وليسألنكم الله جميعا يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم ونهاكم، ثم ليجازينكم جزاء المطيع منكم بطاعته، والعاصي له بمعصيته»[١].

وقال البقاعي: فهو: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، عدلاً منه؛ لأنه تام الملك عام الملك، ولو كان الذي أضله على أحسن الحالات، ﴿وَيَهْدِي﴾ بفضله ﴿مَن يَشَآءُ﴾، ولو كان على أخس الأحوال، فبذلك يكونون مختلفين في المقاصد، يؤم هذا غير ما يؤمه هذا، فيأتي الخلاف مع تأدية العقل إلى أن الاجتماع خير من الافتراق، فالاختلاف مع هذا من قدرته الباهرة[٢].

وقال الزمخشري: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار، وهو قادر على ذلك. ﴿وَلَٰكِن﴾ الحكمة اقتضت أن يضلّ ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر ويصمم عليه، ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾، وهو أن يلطف بمن علم أنه يختار الإيمان. يعني: أنه بنى الأمر على الاختيار، وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان والثواب والعقاب، ولم يبنه على الإجبار الذي لا يستحق به شيء من ذلك، وحققه بقوله: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ولو كان هو المضطرّ إلى الضلال والاهتداء، لما أثبت لهم عملا يسئلون عنه»[٣].

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٢٨٧)

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١١/ ٢٤٤)

(٣) تفسير الزمخشري (٢/ ٦٣١)

وقال النسفي: «﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ من علم منه اختيار الضلالة ﴿وَيَهْدِي﴾ من علم منه اختيار الهداية ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يوم القيامة فتجزون به[1].

قال الشيخ رشيد رضا: وليس معناه أن يخلق له الهداية خلقا كما خلق روحه وبدنه، ولا أنه يجبره عليها فيلصق به كارها غير مختار، وفي القرآن آيات كثيرة تدل على أن مشيئة الإضلال إنما تتعلق بأصحاب الأعمال الكسبية التي هي الضلال أو سبب الضلال، ومشيئة الهداية تتعلق بما يقابل ذلك[2].

وقال الشعراوي: «يحكم على هذا من خلال عمله بالضلال، ويحكم على هذا من خلال عمله بالهداية، مثل ما يحدث عندنا في لجان الامتحان، فلا نقول: اللجنة أنجحت فلاناً وأرسبت فلاناً، فليست هذه مهمتها، بل مهمتها أن تنظر أوراق الإجابة، ومن خلالها تحكم اللجنة بنجاح هذا وإخفاق ذاك. وكذلك الحق تبارك وتعالى لا يجعل العبد ضالاً، بل يحكم على عمله أنه ضلال وأنه ضال؛ فالمعنى إذن: يحكم بضلال من يشاء، ويحكم بهدى من يشاء»[3].

الفرع الثاني: تعليق على التفسيرات:

ومما سبق يظهر اختلاف المفسرين في توجيه هذه الآية فمنهم من يرى أن الهداية والضلالة لا يراعى فيهما حال العبد لا حالا ولا مآلا مثل البقاعي، ومنهم من ذهب إلى أن الله يهدي من علم أنه سيختار الهداية ويضل من يعلم أنه يختار

(١) تفسير النسفي (٢/ ٢٣١)

(٢) تفسير المنار (٧/ ٣٣٧)

(٣) تفسير الشعراوي (١٣/ ٨١٨٦)

الضلالة، فمعيار الهداية والإضلال مبني عنده على أمر مستقبلي. كالزمخشري والنسفي، ومنهم من ذهب إلى أن الله إنما يهدي أهل الكسب الصالح، ويضل أصحاب الكسب السيء، فمعيار الهداية عنده ما سبق من عمل العبد، بينما شذ الشعراوي ـ حسب الظاهر في كلامه ـ فذهب إلى أن الهداية من فعل العبد وأن الله إنما يحكم على فعل العبد بعد وقوعه بكونه هدى أو ضلالا.

وحسب ما انتهى إليه تتبعي لعدد كبير من التفاسير تتضمن تفاسير الأشاعرة وأهل الأثر والمعتزلة والإباضية بل حتى كتب بعض الشيعة فإن أقوالهم لا تكاد تخرج عن هذه النماذج التي ذكرتها.

ولا بد لمن توخى الوصول إلى الحقائق القرآنية في هذه القضايا وأمثالها، أن يستحضر وهو يقرأ التفاسير ما تمليه الصراعات التاريخية مع المعتزلة على كثير من المفسرين، الشيء الذي ينشأ عنه تبني آراء لكونها أجدر أن تبعد وصمة الاعتزال عنهم[١].

والذي أراه صوابا والله أعلم أن الهداية والإضلال عبارة عن جزاء تكويني، فالهداية ثواب على عمل صالح، والضلال عقاب على عمل غير صالح، وهو قريب مما ذكره الشيخ رشيد رضا، وهذا ما تدل عليه نصوص قرآنية كثيرة جدا لا يتسع المجال لجردها لكن لا مندوحة من ذكر نماذج منها، وقبل ذلك أذكر نماذج من آيات الهداية المطلقة.

(١) وقد صرح بذلك الغزالي رحمه الله في سياق حديثه عن تعليل الأحكام ورعاية المصلحة إذ قال: وإنما نبهنا عن هذا القدر كي لا ننسب إلى اعتقاد الاعتزال، ولا ينفر طبع المسترشد عن هذا الكلام خيفة التضمُّخ بعقيدة مهجورة يرسخ في نفوس أهل السنة تهجينها (شفاء الغليل ٨١)

الفرع الثالث: الآيات المطلقة:

أولا: في القرآن الكريم آيات وردت فيها الهداية والإضلال مضافان إلى المشيئة الإلهية:

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(١).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(٢).

وإذا كانت هذه الآيات مطلقة فهي في آيات أخرى بينت متعلّق هذه المشيئة، والقرآن بنية واحدة يشد بعضه بعضا ويفسر بعضه بعضا، ولا يجوز تعضية معانيه وأحكامه، بل يجب «استيعاب النسق القرآني جملة،... فهناك علاقات لا يمكن أن تكتشف إلا من خلال المعنى الكلي... فبقدر استيعاب النظرة الكلية، وبقدر التمكن من جوهر الوحدة التي ينطوي عليها النظم القرآني في معناه ومقصده، وليس فقط في شكله وبنيانه، يأتي الفهم للقرآن وافيا نافذا شاملا، يحمل دلالات توجيهية عملية بالنسبة للمخاطبين»(٣)، يقول ابن تيمية: «فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وما اخْتُصِر في مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر(٤).

---

(١) [سورة النحل آية ٩٣]

(٢) [سورة فاطر آية ٨]

(٣) مجلة الترتيل (العدد ٢ ذو القعدة ١٤٣٥) مقال: ل دة. نعيمة لبداوي تحت عنوان (أثر النظم القرآني في بناء المعاني) ص: ٧٩

(٤) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص: ٣٩)

وإذا طبقنا هذا المنهج السديد على آيات الهداية والإضلال نجد كثيرا منها جاءت متعلقة بمستحقيها تعلق العقاب بالمعصية والثواب بالطاعة.

الفرع الرابع: إثابة الطائعين بالهداية التكوينية وعقاب الفاسقين بالضلال التكويني:

أ ـ نماذج مما جاء في الجزاء بالهداية التكوينية:

من ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٥﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٦﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[3].

فهذه الآيات وغيرها من الآيات الكثيرة، تدل على حقيقتين كل منهما من الأهمية بمكان.

الحقيقة الأولى: أن الهداية فيها هداية تكوينية أي هي من فعل الله تبارك وتعالى وخلقه.

---

(١) [سورة المائدة آية ١٧ ـ ١٨]

(٢) [سورة العنكبوت آية ٦٩]

(٣) [سورة النساء آية ٦٥ ـ ٦٧]

الحقيقة الثانية: أن هذه الهداية يعطيها الله لمن جاهد في الله، واتبع رضوانه، وفعل ما وعظ وأمر به من الطاعات.

وحاصل ذلك؛ أن هذه الهداية، يهبها الله لأهل الطاعة جزاء لهم على طاعتهم لله سبحانه.

وذكر الهداية بعد الأجر العظيم في الآيات الأخيرة من باب ذكر الخاص بعد العام لأهميته، وهذا كثير في اللغة وفي القرآن. ومما يبين ما قصدنا تثبيته في هذا الفرع أنه؛ كما نجد في القرآن الكريم الجنة مشروطة بالإيمان كذلك نجد الهداية متعلقة بهذا الشرط مما يبين أنها كذلك ثواب وجزاء مثل الجنة، وكمثال على ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾(1) وقال بعدها في نفس السورة: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(2).

ب ـ نماذج مما جاء في الجزاء بالضلال التكويني:

من ذلك قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (25) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(3).

---

(1) [سورة التغابن آية 9]

(2) [سورة التغابن آية 11]

(3) [سورة البقرة آية 25-26]

وقوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾(1).

وقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(2).

فهذه الآيات تبين نماذج ممن تعلقت بهم عقوبة الضلال التكويني قال ابن القيم رحمه الله: في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾(3).

فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به، **فعاقبهم** بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدا قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(4) و﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(5).

---

(1) [سورة غافر آية ٣٤]

(2) [سورة غافر آية ٧٣]

(3) [سورة التوبة آية ١١٦]

(4) [سورة الصف آية ٥]

(5) [سورة النساء آية ١٥٤]

فـالأول: كفـر عنـاد، والثـاني: كفـر طبـع، وقولـه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(١) فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له»(٢).

الفرع الخامس: نماذج مما جاء في نفي ثواب الهداية عمن لا يستحقه:

كما وردت عشرات الآيات تنفي تعلق الهداية بأقوام لعدم استحقاقهم لها ومن ذلك على سبيل المثال:

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣).

﴿ وَاللهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٤).

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٥).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٦).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾(٧).

---

(١) [سورة الأنعام آية ١١١]

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٦٦)

(٣) [سورة البقرة آية ٢٥٧]

(٤) [سورة البقرة آية ٢٦٣]

(٥) [سورة المائدة آية ١١٠]

(٦) [سورة النحل آية ١٠٤]

(٧) [سورة الزمر آية ٤]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(١).

هذا فيما يتعلق بالهداية والإضلال فقد بينت الآيات أنهما فعلان تكوينيان من أفعال الله ـ عز وجل ـ المتعلقة بعباده ثوابا للمطيعين منهم على طاعاتهم، ولما كان الظالمون وغيرهم من العصاة لا يستحقون هذا الثواب، لذا تحجب عنهم الهداية وتحجب عنهم الجنة، كما يحجبون عن ربهم يوم القيامة، جزاء وفاقا، فقد حجبوا قلوبهم عن آيات الله، وأنفسهم عن طاعته فكان ذلك إضلالا لهم.

الفرع السادس: آيات أخرى مؤكدة لكون الهداية والضلال تكوينيين على جهة الجزاء:

وهناك آيات أخرى تتضمن معنى الهداية، فتصلح قرائن مؤكدة لهذا التفسير منها قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٣).

قال الماوردي: «معنى فرقاناً أي هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل، قاله ابن زيد وابن إسحاق»(٤).

---

(١) [سورة غافر آية ٢٨]

(٢) [سورة الحديد آية ٢٧]

(٣) [سورة الأنفال آية ٢٩]

(٤) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٢/ ٣١١)

فإن جعل النور وجعل الفرقان لمن آمن واتقى هداية لهم، وذلك ثواب تكويني يجازي به الله من وفى بشرطي التقوى والإيمان.

ومنها قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوُ انثىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمُۥٓ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(١).

قال ابن القيم في تفسير الآية: «ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، ومن طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافا مضاعفة، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هما واحدا في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه»(٢).

وبخصوص الضلال فمن ذلك مثلا قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنَ ـايَٰتِيَ أَلذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِے اِ۬لَارْضِ بِغَيْرِ اِ۬لْحَقِّ وَإِن يَّرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُومِنُواْ بِهَا وَإِن يَّرَوْاْ سَبِيلَ أَلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَّرَوْاْ سَبِيلَ أَلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾(٣) وقوله

---

(١) [سورة النحل آية ٩٧]

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ١٨٤)

(٣) [سورة الأعراف آية ١٤٦]

عز شأنه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٧ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[1].

إلى غير ذلك من الآيات التي تبين ما يعاقب الله به الفاسقين والظالمين والمنافقين من الاستهزاء والخداع والاستدراج والطبع والختم والغلف والوقر والرين وعدم الإسماع، فكلها عقوبات تكوينية إضلالية على ظلمهم وفسقهم.

الفرع السابع: الدليل من السنة النبوية:

ومن الأدلة على ما ذكرت ما صح عن النبي ﷺ من أحاديث كثيرة، تبين أن الطاعة تكون سببا إلى ما هو أعظم منها، والمعصية تكون شركا إلى ما هو أخبث منها. ومن الأمثلة على ذلك حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»[2].

فقد بين الحديث أن الله يجزي عبده المتقرب إليه بالنوافل بأن يسدد سمعه وبصره ويديه وقدميه، وتلك هي الهداية.

(١) [سورة التوبة آية ٧٧-٧٨]

(٢) صحيح البخاري (٨/ ١٠٥) كتاب الرقاق باب التواضع: رقم الحديث (٦٥٠٢)

ويدخل في هذا المعنى كل ما ورد من الأحاديث الدالة على أن الذكر يجلي القلب، وأن من أراد الخير يعان عليه، وأن الحسنات تجلب الحسنات.

وعن النبي ﷺ قال: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقا. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا»(١).

وهذا الحديث يبين أن طاعة الصدق سبب للهداية إلى البر والبر سبب للهداية إلى الجنة وأن الكذب سبب للضلال عن البر والهداية إلى الفجور والفجور سبب للهداية إلى النار.

قال الزرقاني «(فإن الصدق يهدي)... أي يوصل صاحبه (إلى البر)، أي إلى العمل الصالح الخالص، والبر اسم جامع للخير، وقيل اكتساب الحسنات. (والبر يهدي)... يوصل صاحبه (إلى الجنة)، يعني أن الصدق الذي هو بر يدعو إلى ما يكون برا مثله، وذلك يدعو إلى دخول الجنة، فهو سبب لدخولها،... («فإن الكذب يهدي إلى الفجور»)، أي يوصل إلى الميل عن الاستقامة والانبعاث في المعاصي، وهو اسم جامع لكل شر. (والفجور يهدي إلى النار)، أي يوصل إلى ما يكون سببا لدخولها، وذلك داع لدخولها»(٢).

ومنه ما رواه أبو هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، فإن زاد زادت،

---

(١) صحيح البخاري (٨/ ٢٥) كتاب الآداب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وما ينهى عن الكذب رقم: (٦٠٩٤)

(٢) شرح الزرقاني على الموطأ (٤/ ٦٤٩)

فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1][2] فهذ النكت التي ينكتها الله في قلبه عقابا له على معصيته يؤول بها أمر قلبه إلى العمى والضلال.

الفرع الثامن: الدليل الواقعي المشاهد:

ومن الأدلة القوية على ذلك ما يجده كل إنسان في نفسه، وما يعلمه في حاله، من أنه كلما واظب على أمر تيسر له وكان سببا إلى غيره، فالخطوة الثانية أيسر من الخطوة الأولى، أما الخطوة العاشرة فهي أيسر بكثير من الأولى، والعزم بعدها أقوى وأمنع من أن تفسخه العقبات، وهذا مظهر من مظاهر هداية الله للعبد، قال ابن القيم: «لا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزه إليها أزا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها»[3].

وعلى هذه الحقيقة بنى السائرون إلى الله منازلهم، بل إن الدين والتدين إنما بُنيا تشريعا وتطبيقا على ما ينسجم مع سنة الهداية التكوينية.

وعكس ذلك يجده المرء في قلبه؛ فكلما بعد عن الطاعة قسا قلبه، واشتدت عليه العبادة، وغلبه الميل إلى المعصية، «فلا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها، حتى يرسل الله إليه الشياطين، فتؤزه إليها أزا»... «فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة

---

(١) سنن ابن ماجه (٢/١٤١٨) كتاب: الزهد باب ذكر الذنوب رقم الحديث: (٤٢٤٤)

(٢) [سورة المطففين آية ١٤]

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) (ص: ٥٦)

بالكلية، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله، فيأتي بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية، مصر عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنه وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك»[1].

وبعد هذه الأدلة الواضحة يتبين أن الهداية والإضلال التكوينيين ليسا سببا للطاعات والمعاصي، بل هما نتيجة وجزاء لهما.

الفرع التاسع: فما أمر الحسنة الأولى؟

ربما يتبادر إلى الذهن سؤال يشكل معه ما قررته، مفاده إذا كانت الهداية إلى عمل صالح، أو الإضلال عنه جزاء تكوينيا على طاعة أو معصية، فما طبيعة الهداية إلى الحسنة الأولى أو السيئة الأولى اللتين لم تُسبقا بحسنة أو سيئة تكون لهما جزاء؟

يبدو عند أول وهلة أن هذا السؤال مشغب إذ يشبه قولهم: (إذا كانت البيضة هي التي سبقت الدجاجة؛ فمن الذي باضها، وإذا كانت الدجاجة فمن أين جاءت؟) وعلى الرغم من هذا فإن الأمر واضح إذ بينته الآيات والسنن التكليفية، والأحوال والسنن التكوينية.

إن رحمة الله عز وجل سبقت غضبه فقد أحسن إلى عباده حسنات كثيرة قبل أن يكلفهم بعمل الحسنات فخيره إليهم أسبق، بأن خلقهم على الفطرة والهداية العامة، ثم خلق فيهم ما يميزون به بين الحق والباطل والهداية والضلال، ثم أرسل لهم الرسل وأنزل عليهم الكتاب ليهديهم إليه صراطا مستقيما، «وأحال عليهم بداية

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) (ص: ٥٦) وانظر نحوه في (ص: ٧٨) و(ص: ٨٦)

الشروع إليه والقصد نحوه، قال ـ سبحانه ـ في الحديث القدسي: «عبدى قم إلي أمش إليك»(١) وهذا رعاية لجلال العزة وحماية لجناب العظمة: أن يكلف العبد أن يأتي سيده ثم يكون من السيد القبول والإكرام. قال ــ سبحانه ــ وتعالى ـ» ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٢) وقال ــ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(٣).

وقال ـ تعالى ـ في الحديث القدسى «يا ابن آدم قم إلى أمش إليك، وامش إلي أهرول إليك»(٤) وقال ـ سبحانه ـ أيضا «من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»(٥) إذا فابدأ(٦) «فمن اقتحم العقبة الأولى بمحض إرادته أعين على ما بعدها جزاء له، ومن أعرض بعدما تبين له الهدى عوقب بالإضلال»، فأول ما يقع من الذنوب، إنما يأتي نتيجة التخلية بينه وبين نفسه دون إضلال من الله تعالى في هذه الحال، ولا تيسير للعسرى، كل ما في الأمر أنه تركه ونفسه، وولى ما تولى كما عبر القرآن عن ذلك بأفصح عبارة

---

(١) لم أجده إلا بلفظ يا ابن آدم وسيأتي قريبا

(٢) [سورة غافر آية ٦٠]

(٣) [سورة البقرة آية ١٨٥]

(٤) مسند أحمد ط الرسالة (٢٥/ ٢٧٣ (رقم: (١٥٩٢٥) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٥/ ٣٥٩) (٢٢٨٧)

(٥) صحيح البخاري (٩/ ١٥٧ (كتاب التوحيد، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه. رقم: (٧٥٣٦) ومسلم (٤/ ٢٠٦١) رقم (٢٦٧٥)

(٦) أصول الوصول إلى الله تعالى (ص: ٦٩ ـ ٧٠)

فقــال[1]: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[2] وقد صور أحد السلف أهمية الانطلاقة الأولى مستهل كل يوم فقال: إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان، فإن ذكر الله وكبره وحمده وهلله، طرد الشيطان وتولاه الملك، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان[3].

فالله هداك النجدين وبين لك السبيلين وأعلمك بخطورة الانطلاقة الأولى التي تحدد وجهتك، وسهولتها في آن واحد، يقول عز وجل: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾[4] فهؤلاء جنت عليهم الخطوة الأولى.

ويقول عز وجل: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[5].

فالآية تتحدث عن البناء المتين الذي شيد على أس التقوى من أول يوم.

ويقول عز وجل: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[6].

---

(١) الإيمان بالقدر للشيخ يوسف القرضاوي ص ٧٩

(٢) [سورة النساء آية ١١٤]

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ١٠٧)

(٤) [سورة التوبة آية ٨٤]

(٥) [سورة التوبة آية ١٠٩]

(٦) [سورة الأنعام آية ١١١]

قال الشنقيطي: «بين سبب عدم هذا الإيمان، كأنه قال: إني قلت: إنهم لا يؤمنون، والسبب في ذلك: **أنهم أول مرة** قابلوا رسلي بالكفر والعناد والتعنت فطمست على قلوبهم وخذلتهم وطبعت عليها... فقوله: ﴿كَمَا﴾ هنا تعليلية أي: لأنهم لم يؤمنوا بالقرآن **أول مرة**؛ فلأجل ما سبق منهم من العناد والتعنت طمسنا على قلوبهم، وقلبنا أبصارهم وقلوبهم، والله (جل وعلا) مقلب القلوب... فكما أن الكفار **بادروا** إلى تكذيب الأنبياء، وكانوا قبل ذلك **قد يكونون على فطرة**، وقد يكونون معذورين اسودت قلوبهم فطبع الله عليها، وختم عليها، وقلبها عن الحق - والعياذ بالله -... وهذا هو الأظهر في معنى قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ حتى تزيغ عن إدراك الحق، ونقلب ﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ حتى تزيغ عن إدراك الحق ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ﴾ لأجل أنهم لم يؤمنوا بهذا القرآن ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ جاءهم به الرسول، فكان كفرهم وزيغهم **الأول** سببا للطبع على قلوبهم»(١).

فقد بين الشنقيطي من خلال الآية أهمية الموقف الأول للإنسان تجاه الحق الواضح، وبناء ما بعده عليه، بعد أن كان على الفطرة التي خلقه الله عليها، أو خارج طائلة التكليف، وهذا أمر كما بينته كثير من الآيات؛ أثبتته كذلك سنن الحياة، فإن المصائر مرتبطة بالموقف الأول، والقرار الأول، والوجهة تحددها الحركة الأولى والخطوة الأولى. ويكون الأمر تحت سيطرة الإنسان وفي يده عند الموقف الأول، إذ يكون أقدر على الاختيار بين البدائل، لكن بعد الاختيار وتحديد الوجهة يكون أقل قدرة، وهكذا كلما أوغل في تنفيذ خياره تضاءلت قدرته حتى يفقدها بالكلية، وأضرب لهذا الأمر مثالين واقعيين.

---

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٢/ ١٢٦ - ١٢٩ - ١٣٠)

المثال الأول: التدخين فالمرء له القدرة الكاملة في البداية على ألا يدخن، وعلى أن يدخن، فإذا اختار التدخين، رجحت كفة إحدى الخيارين على الأخرى، وتطلب الرجوع عن قراره وترك التدخين مجهودا أكثر، لكنه ليس بالصعب، فإن لم يتراجع واستمر تقلصت فرص الرجوع، وهكذا حتى ينفلت الأمر من بين يديه، حين يصبح مدمنا فلا يتراجع حتى ولو هدد بالأمراض بل رأينا من يعانون من بعض الأمراض التي يسببها التدخين ولايزال يدخن، لأنه فقد قدرته تماما، وذلك هو الضلال المبين.

المثال الثاني أنقله عن ابن القيم قال: وإذا أردت فهم هذا على الحقيقة فتأمل حال من عرضت له صورة بارعة الجمال، فدعاه حسنها إلى محبتها، فنهاه عقله وذكره ما في ذلك من التلف والعطب، وأراه مصارع العشاق عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، فعاد يعاود النظر مرة مرة، ويحث نفسه على التعلق وقوة الإرادة، ويحرض على أسباب المحبة، ويدني الوقود من النار، حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها ورمت بشررها وقد أحاطت به؛ طلب الخلاص قال له القلب: هيهات لات حين مناص وأنشده:

تولع بالعشق حتى عشق ... فلما استقل به لم يطق

رأى لجة ظنها موجة ... فلما تمكن منها غرق

فكان الترك أولا مقدورا له (...) فلما تمكن الداعي واستحكمت الإرادة قال المحب لعاذله:

يا عاذلي والأمر في يده ... هلا عذلت وفي يدي الأمر

فكان أول الأمر إرادة واختيارا ومحبة، ووسطه اضطرارا وآخره عقوبة وبلاء»[1].

ومن مظاهر سبق رحمة الله عز وجل جعله تكليفه ـ وهو نفسه هداية ـ بين هدايتين تكوينيتين هما هداية الفطرة، والهداية التي هي جزاء على اتباع الهداية التكليفية، بينما جعل الإضلال واحدا عقوبة على مخالفة طريق الهداية.

وقبل أن أختم هذا المطلب لابد من الإشارة إلى أن هناك أمورا تكوينية هي لمن تأملها من قبيل الجزاء، ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[2]. فقوله: فاذكروني تكليف وقوله عز وجل: أذكركم ثواب تكويني ومن ذلك قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[3] نسوا الله مخالفة تكليف. فنسيهم جزاء تكويني ونحوه ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[4].

وقد اتضح من خلال هذا المطلب أن الهداية والإضلال التكوينيين ما هما إلا نوع جزاء يجزي أو يجازي الله به عباده على أعمالهم، وهذا ما نطق به القرآن الكريم، وأثبتته السنة النبوية، والسنن التكوينية المشاهدة، وبهذا ترفع جميع الشبه والإشكالات التي تثار حول المسألة.

❁ ❁ ❁

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ١٣٨)

(٢) [سورة البقرة آية ١٥١]

(٣) [سورة التوبة آية ٦٧]

(٤) [سورة البقرة آية ٩]

المطلب الثاني

الجزاء التكويني المادي

وأعني به ما ينال الأفراد والجماعات في جانبهم المادي من ثواب تكويني، أو عقوبة، بحسب سلوكه حيال مقتضيات التكليف، وهذه العقوبات يقر بها المؤمن وغيره إلا أن المؤمن ينسبها إلى الله والكافر ينسبها إلى سببها المشاهد. يقول ألكسيس كاريل: «لأن الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية في مجراها الحالي، لأنهم آخذون في التدهور والانحطاط، لقد فتنهم جمال علوم الجماد. إنهم لم يدركوا أن أجسامهم ومشاعرهم تتعرض للقوانين الطبيعية وهي قوانين أكثر غموضا، وإن كانت تتساوى في الصلابة مع قوانين الدنيا... كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يتعدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم[1]، ويقول في آخر كتابه: «نعرف كيف عدينا على القوانين الطبيعية، ونعرف لماذا عوقبنا، ولماذا فقدنا طريقنا في الظلام»[2].

وهذا القانون وهذه العقوبة نفسها هي التي تحدث عنها الشيخ فريد الأنصاري بقوله: أما الإرادة القدرية التكوينية فهي شريعة قهرية لا اختيار فيها للإنسان،... ومن وظائف هذه السنة أنها تتدخل للتغيير عند فساد المجتمعات ولا يكون تدخلها إلا قهرا؛ حيث تكون في صورة زلازل أو طوفان أو حروب

(١) الإنسان ذلك المجهول (ص: ١١ ـ ١٢)

(٢) الإنسان ذلك المجهول (ص: ٣٢٧)

مدمرة أو قحط أو مجاعة، أو أمراض فتاكة لا تكاد البشرية تجد لها علاجا»[1].

الفرع الأول: علاقة الجزاء التكويني المادي بالتكليف ودليل ذلك:

هذا النوع من الجزاء من الحقائق القطعية المعروفة من الدين بالضرورة، فلا يسع المسلمَ إنكارُها، وقد قص علينا القرآن الكريم كثيرا من قصص الأمم السابقة التي أهلكها الله بسبب ذنوبها، من عقوبة إبليس بلعنه وطرده من الجنة، وعقوبة آدم بإخراجه من الجنة، مرورا بإغراق قوم نوح، وإنجاء نوح ومن آمن به، وإمطار الحجارة على قوم لوط، وإهلاك ثمود وعاد وفرعون وأهل سبأ وغيرهم[2] بعقوبات مختلفة كالغرق، والخسف، والزلازل، والصيحة، والصاعقة، وإمطار الحجارة والطاعون وتسليط جنده من الملائكة أو البشر أو الحشرات أو الرعب أو غير ذلك. وقد ربط الله ذلك بذنوب المهلكين وليس مجرد ظواهر طبيعيةٍ.

قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3].

وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[4].

---

(١) الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب (ص: ٣٦ ـ ٣٧)

(٢) انظر الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤)

(٣) [سورة العنكبوت آية ٤٠]

(٤) [سورة الأنعام آية ٧]

يرى بعض من ينكرون ربط الكوارث الطبيعية بذنوب العباد أن ما ذكر في القرآن الكريم إنما هو معجزات أيد الله بها رسله، ولا تتعلق إطلاقا بما يحدث من الزلازل والعواصف والكوارث التي لا تفرق بين عاص وطائع، ولا بين مؤمن وكافر، بل كما تحدث في ديار الكافرين كذلك تحدث في بلاد المسلمين، ثم إن ما يحدث منها في الشرق، أكثر وأشد مما يحدث في الغرب الذي هو أشد ظلما وأكثر طغيانا. وهي فوق ذلك لها أسباب طبيعية معروفة تحدث عندها ضرورةً أطاع الناس أم عصوا.

وقبل رد هذه الشبهات أذكر أن أصحاب هذا القول لم يأتوا بجديد فإن لهم سلفا يجادل في آيات الله كما يجادلون. قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[1].

وإذا خوفوا بآيات الله قالوا كما حكى عنهم القرآن الكريم ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ فكانت عاقبتهم ما ذكره الله في تتمة الآية ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

أما الجواب على هذه الشبه فسأتعرض لها من وجوه في هذه الفقرات.

أولا: أما قولهم: إنها معجزات، فغير مسلم في جميعها فمثلا فقد ذكر

(١) [سورة الرعد آية ١٣ ـ ١٤]

(٢) [سورة الأعراف آية ٩٤]

المفسرون أن الرياح التي أهلك الله بها قوم عاد كانت في موسمها وهذا فقط على سبيل المثال(١)، وأما كونها تتعلق بأقوام معينين فقد كفانا القرآن رد هذه الشبهة، فإن القرآن وهو يقص علينا تلك المثلات يحذر مشركي هذه الأمة ومذنبيها من أمثالها، فدل ذلك على أنها غير مختصة بأولئك، وإمكان وقوعها على هذه الأمة. يقول عز وجل: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(٢).

ويقول عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾(٣).

وهكذا لما تحدث الله عن قوم لوط وما أهلكهم ذيل خبرهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(٤) قال قتادة: يعني ظالمي هذه الأمة. قال: والله ما أجار منها ظالما بعد(٥). وقد حذر الله هذه الأمة من الخسف في غيرما آية(٦)، وأخبر النبي ﷺ أنه سيقع فيها في أحاديث منها ما روته عائشة رضي الله عنها، قالت: عبث رسول الله ﷺ في منامه، فقلنا: يا رسول الله صنعت شيئا في منامك لم تكن تفعله، فقال: «العجب إن ناسا من أمتي يؤمون بالبيت برجل من

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٦)

(٢) [سورة فصلت آية ١٢]

(٣) [سورة الأنعام آية ٦٦]

(٤) [سورة هود آية ٨٢]

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٤٣٩)

(٦) انظر: [النحل: ٤٥، ٤٧] [الملك: ١٧] [الإسراء: ٦٨]

قريش، قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم»، فقلنا: يا رسول الله إن الطريق قد يجمع الناس، قال: «نعم، فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مهلكا واحدا، ويصدرون مصادر شتى، يبعثهم الله على نياتهم»[1].

ثانيا: إن الله ينزل عقوبته بالأمم الظالمة في الموعد الذي شاء، ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[2] وفي الصحيحين: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»[3] وإن من أشد عقوبة الله عقوبة الإملاء والاستدراج يقول عز وجل ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[4].

ويقول عز من قائل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[5].

وإذا تبين هذا فيبطل طرح ذلك الاستكشال أصلا، خصوصا إذا علمنا أن العالم الغربي لايزال فتيا إذا قيس تاريخه بالعالم الشرقي.

ثم إن عقاب الله للعصاة لا ينحصر في نوع معين واحد، فإن ما

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٠) كتاب الفتن وأشراط الساعة باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت رقم (٢٨٨٤)

(٢) [سورة الكهف آية ٥٨]

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾... (٦/ ٧٤) (رقم الحديث ٤٦٨٦) ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٤/ ١٩٧) (رقم الحديث: ٢٥٨٣)

(٤) [سورة الأعراف آية ١٨٢ ـ ١٨٣]

(٥) [سورة آل عمران آية ١٧٨]

أهلك الله ـ مثلا ـ في الأمم الغربية الطاغية في الحرب العالمية الأولى والثانية لم يهلكه بالزلازل مثلا في دول الشرق، أضف إلى ذلك ما تعانيه من انخفاض في النمو الديموغرافي، حتى ذكرت بعض الإحصائيات أن بعضها مهدد بالانقراض لولا الهجرة إليها، قال باتريك جيه. بوكانن: «الغرب يموت لقد توقفت أممه عن التكاثر، وتوقف سكانه عن النمو وبدأوا بالانكماش، ولم يقم منذ الموت الأسود الذي حصد أرواح ثلث سكان أروبا في القرن الرابع عشر تهديد أخطر لبقاء الحضارة الأوروبية من هذا الخطر الماثل اليوم، هناك سبعة عشر بلدا أروبيا فيها جنازات دفن أكثر من احتفالات الولادة وهناك أكفان أكثر من المهود»[١].

هذا ناهيك عما ابتلوا به من التفكك الأسري والانحلال الأخلاقي والإحباط النفسي، مما جعل كثيرا من عقلائهم يطلقون صرخات إنذار وتحذير من المصير الذي تقودهم إليه حضارتهم.

يقول هانتينغتون: «الغرب... يواجه تفككا اجتماعيا بالإضافة إلى مشكلات المخدرات والجريمة، والقوة الاقتصادية تنتقل بسرعة إلى شرق آسيا»[٢].

وفوق هذا؛ فالله أعلم بعباده وهو الذي أحصى أعمالهم، وأدرى بماضي الأمم وحاضرها ومستقبلها، يثيب من يشاء ويعفو عمن يشاء، ويعاقب من يشاء

---

(١) موت الغرب (ص: ٢٧) باتريك جيه. بوكانن

(٢) صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي: لصمويل هنتينغتون (ص: ١٣٤) حقيقة أنه ساق هذا الكلام أثناء استعراضه لتصورين متناقضين للغرب، لكنه في الأخير صححهما معا

وقتما يشاء، بما يشاء، ويملي لمن يشاء، إلى الأجل الذي يشاء، وفق سننه الكونية التي لا تحابي أحدا، الجارية على مقتضى علمه المحيط، وحكمته البالغة.

أما كون الزلازل وغيرها تحدث بأسباب مادية معروفة، وأن ذلك يتنافى مع ربطها بذنوب العباد، فالحقيقة أن الحوادث في الدنيا رتبها الله على أسباب مادية، منها المعروف ومنها ما ليس بمعروف، فالمرض والشفاء والفقر والغناء وغيرها كل ذلك رتبه الله على أسباب، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، والله الذي رتبها على تلك الأسباب المادية هو الذي ربطها بأعمال خلقه ثوابا أو عقابا، كما أنه قدر أشياء ورتبها على أسباب مادية، وربطها كذلك بدعاء عباده فلا ينافي حدوثها عند أسبابها أن تكون استجابة لدعائهم، بل إن ذلك من الدلائل الواضحة، والحجج البالغة، والبراهين الدامغة، على أن الخلق والأمر كله لله.

وإنما تنطلي هذه الشبهة على القلوب الغافلة عن حقيقة علم الله، وإحاطته بكل صغيرة وكبيرة، وأن الأحداث في هذا الكون تجري وفق ذلك العلم الأزلي، قال ابن تيمية: فإذا كان الكسوف له أجل مسمى لم يناف ذلك أن يكون عند أجله يجعله الله سببا لما يقضيه من عذاب وغيره لمن يعذب الله في ذلك الوقت، أو لغيره ممن ينزل الله به ذلك كما أن تعذيب الله لمن عذبه بالريح الشديدة الباردة كقوم عاد كانت في الوقت المناسب وهو آخر الشتاء كما قد ذكر ذلك أهل التفسير وقصص الأنبياء؛ و«كان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة ــ وهو السحاب الذي يخال فيه المطر ـ أقبل وأدبر وتغير وجهه فقالت له عائشة: إن

الناس إذا رأوا مخيلة استبشروا؟ فقال: يا عائشة وما يؤمنني؟ قد رأى قوم عاد العذاب عارضا مستقبل أوديتهم فقالوا هذا عارض ممطرنا قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]»[2][3].

الفرع الثاني: أقسام الجزاء التكويني المادي:

يمكن تقسيم الجزاء التكويني إلى أنواع متعددة بحسب اعتبارات مختلفة منها:

باعتبار محل وقوعه، إلى دنيوي وأخروي، وجميع ما يقع في الآخرة من الجزاء تكويني، أما الدنيا فقد سبق أن أشرنا إلى أن الجزاء فيها ينقسم إلى تكليفي وتكويني.

وباعتبار طبيعته إلى إعجازي وجار على السنن الكونية، فالإعجازي مثل المسخ وخسوف الأرض بقارون وداره، قلب الأرض على قوم لوط، وما يبتلي الله به الأمم والأفراد من الأمراض والزلازل وغيرها من الظواهر الطبيعية.

ومثال المثوبة نجاة إبراهيم عليه السلام من النار، وفرق البحر لموسى، والجاري على السنن الكونية، نصر طالوت على جالوت وقومه ونصر المسلمين في بدر...

---

(١) [سورة الأحقاف آية ٢٣]

(٢) الحديث: صحيح البخاري (٤/ ١٠٩) كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله: (وهو الذي أرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته) رقم: (٣٢٠٦) وأخرجه صحيح مسلم (٢/ ٦١٦) في صلاة الاستسقاء باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم رقم ٨٩٩

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٦)

وباعتبار متعلَّقه إلى خاص يتعلق بالفرد، فالمؤمن يرى أن كل ما أصابه إنما هو بسبب ذنوبه، وعام يتعلق بالجماعة.

باعتبار نوعه يكون عقوبة أو ثوابا، ولكل منهما أقسام فالعقوبة مثلا وهي أنواع كثيرة كالأمراض والقحط والمجاعة والزلازل والعواصف والأمطار إلخ.

ومن أشد العقوبات التكوينية عقوبة الإملاء والاستدراج، وقد سبق ذكر ذلك مع التدليل عليه.

ومن الجزاء التكويني ما يفتح الله به على عباده من النصر والبركة والرزق الواسع وإجابة الدعاء والشفاء وتفريج الكرب، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَامُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً﴾(1) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾(2) ويقول عز من قائل رابطا طاعة يونس بما قدر الله له من نجاة: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(3).

الفرع الثالث: متى تقع العقوبة التكوينية:

لقد ربط الله الجزاء بتكليفه ربط المقدمات بالنتائج، فإذا التزم المجتمع بمقتضيات التكليف وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، أمن العقوبة ورجا الثواب العاجل والآجل، فإن تقاعس عن تنفيذ مقتضيات التكليف، وضيع الأمر بالمعروف

---

(1) [سورة الجن آية ١٦]

(2) [سورة المائدة آية ٦٨]

(3) [سورة الصافات آية ١٤٣ ـ ١٤٤]

والنهي عن المنكر، وانتُهكت المحارم وكثر الخبث واستفحل المرض، وأهمل القانون التكليفي، تدخل القانون التكويني وطبقت بنوده الزجرية على المجتمع بمسه بالعذاب كي يزدجر ويتضرع، أو بإهلاكه واستبدال غيره به، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾(١) وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾(٢).

وعن زينب بنت جحش، رضي الله عنها أن النبي ﷺ، دخل عليها فزعا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»(٣).

عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه، قال: لما فتحت قبرص فُرِّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء... ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟!، فقال: «ويحك يا جبير!، ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى»(٤).

---

(١) [سورة الأعراف آية ١٦٥]

(٢) [سورة هود آية ١١٧]

(٣) صحيح البخاري (٤/ ١٣٨) رقم الحديث ٣٣٤٦ باب قصة يأجوج، ومأجوج كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم رقم: ٢٨٨٠

(٤) أخرجه أحمد في (الزهد، ١/ ١٤٢)،

وما تعاني منه الإنسانية اليوم سواء المنتسبة منهم للإسلام وغيرهم، من قتل واضطراب في الأنفس ينشأ عنها انتشار الأمراض النفسية والعضوية، وفشو الأوبئة والأوجاع التي لم تكن معروفة، واضطراب في الآفاق تنشأ عنه العواصف والزلازل والحروب، وغيرها من الكوارث ما هو إلا عقوبات لمخالفة التكليف، وانتهاك المحرمات. يقول ألكسيس كاريل: (وهذا هو السبب في أن الأسر والأمم والأجناس التي لم تعرف كيف تميز بين الحلال والحرام تتحطم في الكوارث، فمرض الحضارة والحرب العالمية نتيجتان ضمنيتان لانتهاك حرمة النواميس الكونية)(١).

وقد وردت آيات في القرآن الكريم يدل ظاهرها أن المؤمنين الصالحين مأمونون من تلك العقوبات، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

ووردت أخرى يدل ظاهرها على أنها تصيب الظالم وغيره، مثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٣).

والظاهر لمن جمع نصوص هذه المسألة أن الصالحين إذا قاموا بواجب الأمر

---

(١) مجلة البيان (١/ ٧٥) نقله محمد العبدة في مقالة: معالم حول كتابة التاريخ الإسلامي عن تأملات في سلوك الإنسان لأليكسيس كاريل ص: ٤١

(٢) [سورة يونس آية ١٠٢ ـ ١٠٣]

(٣) [سورة الأنفال آية ٢٥]

بالمعروف والنهي عن المنكر[1] يعني إذا كانوا مصلحين ينجون بل قد يكونون سبب نجاة غيرهم، كما نجى الله الأنبياء والذين معهم في الهلاك، قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[2] وقال الله تعالى: عن أصحاب السبت: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[3].

أما إذا كثر الخبث وقل المصلحون وانتشر الداء في جسد المجتمع، فإن العقاب يعم الجميع فيكون كفارة للصالحين ورحمة للأطفال حتى لا ينشئوا داخل مجتمع موبوء فيصابوا بأمراضه. والله أعلى وأعلم.

---

(١) للمزيد ينظر في المسألة: فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٦٠ ـ ٦١)

(٢) [سورة الأنبياء آية ٩]

(٣) [سورة الأعراف آية ١٦٥]

خاتمة الفصل

وقد أبرز هذا الفصل أهم العلاقات التي تربط التكوين بالتكليف، والتكليف بالتكوين، بدءا بصدورهما من مصدر واحد، وتميزهما بالتناسق والانسجام، والتكامل والتوازن، وفي نفس السياق بين أن التكليف الإلهي له معقبات من بين يديه ومن خلفه، فكما أنه ممهد بمؤيِّدات تكوينية، تؤز العقل والبدن إلى العمل، وتلك المؤيدات هي عبارة عن أدلة التكليف، وهي في حد ذاتها علة سببية للقيام بمقتضى التكليف، فهو ـ أعني التكليف ـ كذلك معقب بمؤيد تكويني يزعج النفس إلى طلب الفوز والنجاة، وهي المثوبات والعقوبات التكوينية والفطرية الدنيوية والأخروية، وهي في حد ذاتها علة غائية للقيام بمقتضى التكليف.

الفصل الرابع
آثار العلاقة بين التكوين والتكليف

المبحث الأول: أثر طبيعة العلاقة بين التكوين والتكليف في علاقة المكلف بالمكون.

المبحث الثاني: أثر الربط بين التكوين والتكليف في حفظ الأسرة.

المبحث الثالث: أثر علاقة التكليف والتكوين في حفظ إنسانية الإنسان.

المبحث الرابع: أثر ربط التكوين بالتكليف في حفظ كرامة المرأة.

المبحث الخامس: أثر التكوين والتكليف في تزكية العبد والعودة به إلى ربه طيبا طاهرا.

تمهيد

لقد تجلى من خلال استعراض مصطلحات التكوين والتكليف، خلال المبحث الثاني، وفي بيان العلاقة بين التكوين والتكليف في المبحث الثالث، ذلك الترابط المتين بينهما ولذا فإنه لا يمكن تحقيق الاستقرار والسلام في عالم التكوين ما لم ينضبط بأمر التكليف، يقول البروفيسور والروائي الروسي المشهور (سولجنتسين) «لقد عشت طول عمري تحت ظل نظام حكم يفتقر إلى العدالة الموضوعية، وأعرف كم هو فظيع ذلك، ولكن المجتمع الذي لا يملك أي معايير أو مقاييس أخرى غير القانون الوضعي... مجتمع تحتقر فيه قيمة الإنسان إن يد القانون مهما كانت طائلة هي باردة ذات طابع رسمي جامد لا يمكن أن يكون لها تأثير حقيقي في مناهضة الجريمة والشر، ومتى كانت علاقات الناس نسيجا لا تربطه إلا خيوط قانونية تولد من الانحطاط الأدبي والخلقي [ما] يشل أنبل ما في الإنسان»(1).

وهكذا تكون الثمار المرة لمن فصل بين التكوين والتكليف، فقد تحدث (سولجنتسين) عن تجربة مريرة انتهى به إلى الإقرار بأن التكليف الذي لم يأت عن مصدر فوق البشر، لا يمكن أن يحقق العدالة الموضوعية في الكون، بل هو يمزق الإنسان ويسلخه من إنسانيته وكرامته، ويأتي على ما تبقى لديه من رصيد أخلاقي، ونبل أدبي.

---

(1) أزمة الحضارة الغربية والبديل الإسلامي (ص ١٧و ١٨) د. عبد القادر طاش، كتاب المختار بدون أية معلومات أخرى

وفي هذا الفصل سأتعرض بحول الله عز وجل لآثار هذه العلاقة بشكل تنازلي فأبدأ بالعام ثم الخاص فالأخص وأقصد الكون ثم الأسرة ثم الإنسان ذكرا وأنثى.

المبحث الأول
أثر طبيعة العلاقة
بين التكوين والتكليف
في علاقة المكلف بالمكون

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أثر الفصل بين التكوين والتكليف في تصور الكون والتعامل معه.

المطلب الثاني: أثر الوصل بين التكوين والتكليف في تصور الكون والتعامل معه.

المبحث الأول

أثر طبيعة العلاقة بين التكوين والتكليف

في علاقة المكلف بالمكون

سبق الحديث في الفصل السابق عن التكامل بين التكوين والتكليف، وهذه العلاقة - في حالة قيامها أو إنعدامها - لها آثار مباشرة في تصور الكون وفي طبيعة التعامل معه، وسأتعرض لذلك في المطلبين الآتيين.

المطلب الأول
آثار الفصل بين التكوين والتكليف
في تصور الكون والتعامل معه

في البداية قالت الملائكة لله عز في علاه لما توجهت إرادته سبحانه وتعالى إلى خلق آدم ليجعله خليفة في الأرض: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(١).

فلما علَّم الله آدم الأسماء كلها، علِمت الملائكة بعد ذلك فضله بما آتاه الله من علم. ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٠ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢).

ويمكن أن نستخلص من هذه القصة أن البشرية عندما تنحرف عما علمها الله، فمصيرها الصراع والنزاع والفساد وسفك الدماء كما قالت الملائكة، وأن العالم عندما ينفصل عن الوحي الإلهي، تغشاه ظلمات الظلم، ويصطلى بلهيب العنصرية والكراهية كما هو مشاهد.

وهذا ما تلخصه الحضارة الغربية عندما حرفت وانحرفت عن تعاليم الله عز وجل، ورأت أن العلاقة بين مكونات الكون هي علاقة حرب وصراع، صراع

(١) [سورة البقرة آية ٢٩]

(٢) [سورة البقرة آية ٣٠-٣١]

بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، وبين الفرد والمجتمع[1]، صراع بين الرجل والمرأة، وبين الولد ووالده، وبين الأسود والأبيض، صراع بين الدين والعلم، وبين الحاكم والمحكوم.

وأن الحق للقوي فهو الذي يقهر الطبيعة ويغزو الفضاء وينتزع الحقوق، فالحقوق انطلاقا من هذا التصور تنتزع ولا تعطى.

يقول فيلب فينكس: «أن الطبيعة عدو للإنسان، بما يحدث من زلازل وبراكين وحرائق وعواصف، وبالتالي فإن الطبيعة ميدان للقتال، والبقاء فيه للأقوى، وأن قانون الحياة هو الحرب الدائمة، وعن طريق الصراع يزول غير القادرين.

ولأن الطبيعة عدو للإنسان تقدمت الإنسانية هذا التقدم الكبير، والحضارة هي نتيجة انتصار الإنسان على الطبيعة وقهرها، والثقافة تتعارض مع الطبيعة، والهدف من الكفاح الإنساني أن يخلق دنيا جديدة، معارضة للطبيعة، يعمل فيها الإنسان على هدم كلما يتصف بالوحشية من قوة وحيوان، أو إخضاعه لقوة الإنسان وعظمة الإنسان»[2].

ولم تقتصر هذه العقيدة على مجال معين، بل هي الأصل الجذري للتنظير في غالب المجالات إن لم أقل في كل المجالات.

---

(١) انظر: ظاهرة الصراع في الفكر الغربي بين الفردية والجماعية لأبي زيد بن محمد مكي، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، ١٤٢٩/ ٢٠٠٨

(٢) (السبق التربوي مفهومه ومنهجه ومعالمه في ضوء المنهج الإسلامي (ص: ٤٧١) نقلا عن: فيلب. هـ. فلسفة التربية، ص (٢٨٩ ـ ٢٩٢)

فهي التي تؤطر نظرية (الغاية تبرر الوسيلة) في المجال السياسي.

والنظرية الهغلية[1] في مجال فلسفة التاريخ.

ونهاية التاريخ في نفس المجال.

(وموت الإله) في المجال الفلسفي.

ونظرية التطور في المجال العلمي البيولوجي.

وصراع الحضارات في المجال الثقافي الحضاري.

وتقسيم طبقات المجتمع إلى بورجوازية وبلوريتاريا في المجال الاقتصاد.

وتقسيم العالم إلى محور الخير ومحور الشر... إلخ.

فهذا نتشيه يتحدث عن شعوره إبان مشاركته التطوعية في الحرب الألماني ضد فرنسا معبرا عن أن الحرب والقوة وهيمنة الأقوياء على المستضعفين، هو السبيل إلى تحقيق الحياة المثلى للإنسان.

«شعرت للمرة الأولى أن أقوى وأسمى قوة لكي يحيا الإنسان لا توجد في الصراع من أجل البقاء، ولكن في غريزة القوة المطلقة، ونزعة الحرب المهيمنة»[2].

فهو لا يشبع ساديته الصراع من أجل البقاء بل يدعو إلى استعمال القوة

---

(١) نسبة إلى هيكل Hegl قامت نظريته على قضاء العصر الجديد على القديم عن طريق الصراع مع مكوناته،

(٢) الأسرة في الغرب (ص: ١٢٧) نقلا عن:

Strathern P. Vrgin books Itid. 2001. P. 12

المطلقة، ويعني بـالإطلاق أن لا تتقيـد بقيـود أخلاقيـة ولا قانونيـة، ولهـذا فهـو يرفض ما تركته المسيحية من قيم الحب والرحمة والتواضع ويرى أن ذلـك قـيم العبيد والضعفاء[1].

وفي هذا السياق يرى فوفينارج «الطبيعة بأنها صراع وحشي من أجـل الغلبـة والسيطرة، ويرى المسـاواة علـى أنهـا وهـم وخـداع: السـائد بـين الملـوك، وبـين الشعوب، وبين الأفراد، أن الأقوى يرتـب لنفسـه حقوقـاً علـى الأضـعف، ونفـس القاعدة متبعة بين الحيوانات والكائنات غير الحية، وهكـذا يجـري كـل شـيء فـي الكون بالعنف. وهذا النظام... هو أعم وأثبت وأهم قانون في الطبيعة»[2].

وفي نفس الاتجاه يرى هوبز: أن الإنسان كائن شـرير جبـان فاسـد خبيـث وهو لا يذعن إلا إذا خاف ولا يحب السلام... ويقول: «الإنسان للإنسان ذئـب، والكل في حرب ضد الكـل، والواحـد فـي حـرب ضـد المجمـوع والحيـاة إذن مجال للقوة الباطشة بالنسبة إلى الأقوياء وللخداع والمكر والتحايل بالنسبة إلـى الضعفاء»[3].

وفـي البيـان الشـيوعي[4] الـذي أصـدره مـاركس وأنكلـز «إن تـاريخ كـل

---

(١) انظر المرجع نفسه (ص: ١٢٦)

(٢) قصة الحضارة وول ديورانت ترجمة محمد علي أبودرة الجزء الثاني من المجلد التاسع (٣٦) ص: ١٤٦

(٣) الموسوعة السياسية مادة (هوبز توماس (٧/ ١٦٦ العمود ٢)

(٤) البيان الشيوعي هو البيان الشهير الذي وضعه كارل ماركس وفريديريك أنغلز أصدراه في لندن سنة ١٨٤٨

المجتمعات الماضية هو تاريخ الصراع الطبقي فيها»[1] ويلاحظ في العبارة صيغة الشمول والكلية التي لا تقبل الاستثناء، فالصراع عام وشامل عموديا وأفقيا.

«وقد غلبت فكرة الصراع على الفكر الأوربي في جميع المراحل التي مر بها، وأدت الشعوب الأوربية ثمنا فادحا لهذه الغلبة القسرية حيث عانت أشد المعاناة من الحروب الأهلية فيما بينها، كانت آخرها الحرب العالمية الثانية التي أضرمت شرارتها عقيدة عنصرية ونزعة استبدادية اصطبغتا بصبغة الصراع القانية»[2].

كما عانى ويعاني العالم وبخاصة الإسلامي منه إلى اليوم آثار هذه العقيدة الوحشية الراسخة في العقل الغربي.

وإذا كان الخيال اليوناني المتشبع بروح الصراع قد انصرف إلى صراعات الماضي بين الآلهة، فإن وريثه قد وسع نطاق معاركه ولم يكتف بالصراع بين الإنسان في الأرض، بل اتجه بواسطة الخيال العلمي نحو المستقبل، وخارج الكرة الأرضية، ليتخيل حروبا طاحنة بين الإنسان والكائنات الفضائية. ضمنها روايات[3] وقصص وأعمال درامية سنمائية كثيرة جدا. شكلت بدورها مصدر تشويش عانى منه المربون، وانصبغت آثارها على نفوس الناشئة والمراهقين.

---

(١) الموسوعة السياسية؛ مادة (الطبقات الاجتماعية ٣/ ٧٦٦ العمود ٢) وانظر في نفس الكتاب والجزء (مادة: الصراع الطبقي ص ٦٣٢)

(٢) العالم الإسلامي في عصر العولمة (ص ١١٢)

(٣) من ذلك رواية حرب العوالم لهربرت جورج ويلز، وغزو أديسون للمريخ لغاريت بوتنام ومربوا الجرثومة لروبرت بوتر وغيرها

ولا ينكر أن الحضارة الغربية حققت على المستوى المادي انجازات كبيرة استفادت منها البشرية، وكان من الممكن ـ ليس أن تستفيد منها البشرية فحسب بل ـ أن تتخطى بفضلها كثيرا من الأزمات التي تعيشها اليوم.

لكن على العكس من ذلك كانت تلك المنجزات المادية وراء أزمات وكوارث مازالت البشرية تعاني منها ومن آثارها.

وما ذلك إلا لكونه لم يجعل المنهج الإلهي مهيعه، والوحي إمامه وقائده، «فكل خروج عن منهج الله عز وجل فيه إهانة لهذا الإنسان، وفيه تدنيس له... فالذي يخرج في تعامله فردا كان أو جماعة عن منهج الله عز وجل هو في الحقيقة يصير بذلك لئيما غير كريم، ويعامل الآخر معاملة لئيمة ليست كريمة، وبما أن ضد الكرم الإهانة ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[1] ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾[2].

فكل خروج عن منهج الله عز وجل فيه إهانة للنفس نفسها، وفيه إهانة للآخر الإنسان المعامل، ومخالفة للأصل الأول، ومخالفة لمقتضى الفطرة، ومخالفة لتكريم الله لآدم، ولتكريم الله لبني آدم»[3].

❁ ❁ ❁

(١) [سورة الحج آية ١٨]

(٢) [سورة الفجر آية ١٥ ـ ١٨]

(٣) مظاهر تكريم الإنسان في القرآن الكريم. د. الشاهد البوشيخي (ص٣٩)

المطلب الثاني

آثار الوصل بين التكوين والتكليف في تصور الكون والتعامل معه

إذا كانت هذه هي العلاقة التي تربط المتمرد عن التكليف الإلهي بعالم التكوين، فإن الملتزم بأمر التكليف تربطه مع عالم التكوين علاقة حب وتكامل وتوازن وتعاون تتجلى في مظاهر كثيرة منها:

التكامل والتعاون على إقامة صرح العبودية لله عز وجل: فالإنسان المؤمن تجمعه مع الكون أعظم صفة يعتز بها وهي العبودية لرب العالمين، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[1].

وتجمعهما أعظم هوية يعتز المسلم بتعريفه بها وهي الإسلام ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[2].

ويشاركه هذا الكون في إقامة أركان هذا الإسلام من توحيد وصلاة وزكاة وصوم وتلبية في الحج ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[3].

---

(١) [سورة مريم آية ٩٤]

(٢) [سورة آل عمران آية ٨٢]

(٣) [سورة النور آية ٤٠]

يقول المناوي متحدثا عن تعبد الكون كله بشعيرة الزكاة: «واعلم بأن الوجود كله متعبد لله بالزكاة. انظر إلى الأرض التي هي أقرب الأشياء إليك، تجدها تعطي أقرب الخلق إليها وهم من على ظهرها جميع بركاتها، لا تبخل عليهم بشيء مما عندها، وكذا النبات يعطي ما عنده، وكذا الحيوان والسماء والأفلاك، الكل متعاون بعضه لبعض لا يدخر شيئا مما عنده في طاعة الله، لأن الوجود كله فقير بعضه إلى بعض، قد لزم الفقر وشملته الحاجة، فعطف بعضه على بعض، وإعطاؤه ما عنده هو زكاته، فمانع الزكاة قد خالف أهل السماء والأرض وجميع الموجودات، فلذلك وجب قتاله وقهره في الدنيا وأدخل النار في العقبى»[1].

فيا لله ما أرق هذا النص وأورقه، وأدقه وأصدقه، لقد انتشى له روحي، واقشعر منه جلدي، وأنا أقرأه مستحضرا الكم الهائل من حديث فلاسفة الغرب وعلمائهم عن الكون، حديثا مشحونا بمصطلحات الصراع، والعداوة، والقهر، والعنف، والقوة والبطش، فبنوا كياناتهم وعلومهم وعلاقاتهم مع غيرهم على هذه الاقتناعات، وهم يرون أنها سنة كونية وقانون طبيعي، وأن ما يناقضها استثناء، بينما يعبر هذا النص عن منظور المتشبعين بأمر التكليف المتمثل في كون الأصل في الكون؛ هو التكامل والتآزر، والتراحم والتلاحم، والتعاون والتعاطف، وتلك هي السنة التكوينية والتكليفية معا، ومن حاد عنه استثناء يجب قهره ليرجع عن القهر إلى أصل التراحم والتعاون، وإلا كان مصيره في الدنيا والآخرة إبعاده عن الرحمة التي أبعدها هو في سلوكه ومعاملاته.

---

(١) فيض القدير (٥/ ٥٠٥)

فهكذا يشارك هذا الكون الإنسان في فريضة الزكاة وكـذلك الصـيام، نعـم فليس الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يصوم بل تشاركه جميـع الكائنـات الحيـة في الكون إذ تمر بفترة صوم، وقد حاول الباحثون تفسير هذه الظاهرة علميا؛ فلم يتوصلوا إلى أكثر من أن هذه المخلوقات التي تعيش على الفطرة يعتبـر صـومها ظاهرة فسيولوجية، أي مرتبطة بوظائف الأعضاء وعوامل البيئة. وأطلقـوا عليهـا (ظاهرة البيات)[1].

وقد بين النبي كذلك أن الحاج إذا لبى لبى معه كل من حوله في حلقة ذكر تتسع حتى تشمل الأرض كلها. فعن سهل بن سـعد السـاعدي، عـن رسـول الله، قال: «ما من ملب يلبي، إلا لبى، ما عن يمينه وشـماله، مـن حجـر، أو شـجر، أو مدر، حتى تنقطع الأرض، من هاهنا وهاهنا»[2].

فالكون من هذا المنطلق أخ للإنسان وحبيب له، تربطهما أواصر العبوديـة والتوحيد والإيمان، والإسـلام، يسـبحان معـا ويسـجدان ويلبيـان، ومـن هنـا لا عجـب أن نجـد رسـول الله ﷺ يخاطـب جبـل أحـد، بقولـه: «**هـذا جبـل يحبنـا ونحبه**»[3]. ولا عجب أن ينادي الحجر والشجر لأخيه المسلم «**يـا مسـلم (وفـي**

---

(١) مجلة الأزهر جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ أبريل مايو ٢٠١٣م ج ٦ السنة ٨٦

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب التلبية (٢/ ٩٧٤) رقـم الحـديث: ٢٩٢١ صـححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ١٠٠٥)

(٣) عن أنس بن مالـك رضـي الله عنـه، أن رسـول الله ﷺ طلـع لـه أحـد فقـال: وذكـر الحـديث صحيح البخاري (٥/ ١٠٣) كتاب أحاديث الأنبياء باب. رقـم الحـديث: (٤٠٨٤) وصـحيح مسلم (٢/ ٩٩٣) كتاب الحـج، بـاب فضـل المدينـة، ودعـاء النبـي ﷺ فيهـا بالبركـة، وبيـان تحريمها، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمها، رقم الحديث (١٣٦٥)

لفظ يا عبد الله) هذا يهودي ورائي تعال فاقتله»[1] فكلاهما مسلم وعبد لله.

التكامل من أجل ترسيخ الإيمان بالله عز وجل: فالمؤمن كما تربطه علاقة الاستهداء والاسترشاد بالآيات التكليفية في الكتاب المسطور، كذلك تربطه هذه العلاقة بالآيات التكوينية في الكتاب المنظور، إذ يستهدي ويستدل بها على قدرة الله وعظمته وحكمته، ولهذا كان رسول الله ـ ﷺ يطالع الكتابين ويفتتح بالقراءة فيهما يومه، فعن ابن عباس رضي الله عنه: «أنه بات عند نبي الله ﷺ ذاتَ ليلة، فقام نبي الله ﷺ من الليل، فخرج فنظر في السماء، ثم تلا هذه الآية التي في آل عمران ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ حتى بلغ ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2] ثم رجعَ إلىَ البيت فتسوّك وتوضأ، ثم قام فصلى، ثم اَضطجع، ثم رجع أيضاً فنظر في السماء، ثم تلا هذه الآية، ثم رجع فتسوّك وتوضأ، ثم قام فصلى، ثم اضطجع، ثم رجع أيضاً فنظر في السماء، ثم تلا هذه الآية، ثم رجع فتسوّك وتوضأ، ثم قام فصلى»[3].

وكما تتكامل الآيات التكوينية في الكتاب المنظور، مع الآيات التكليفية في

(١) صحيح البخاري (٤/ ٤٢) كتاب الجهاد والسير، باب قتل اليهود، رقم الحديث (٢٩٢٦) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٣٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء

(٢) [سورة آل عمران آية ١٩١]

(٣) مسند أحمد (٣/ ١٣١) وهذا لفظه وأخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب إن في خلق السموات الآية (٦/ ٤١) رقم: (٤٥٦٩) ومسلم (١/ ٢٢١) باب السواك رقم (٤٨ ـ ٢٥٦)

الكتاب المسطور لتثبيت الإيمان في قلب العبد؛ كذلك تتكامل في غرس صفة الرغبة والرهبة والخوف والرجاء في قلبه، وهذه الصفات هي بواعث العمل، ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالآيَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾(١).

ومن مظاهر التكامل أن الكون مأمور أمر تكوين أن يسخَّر للإنسان، كما أن الإنسان مأمور أمر تكليف بعمارة الكون، ومنهي عن الإضرار به والإفساد فيه، فنهي عن تبذير خيرات الكون أو إفساد ثرواته، كإفساد الثروة النباتية لغير مصلحة، أو قتل حيوان من غير منفعة، أو تلويث مكون من مكوناتها، وبهذين الأمرين المتكاملين يتحقق الصلاح للإنسان والكون، قال الرازي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾(٢) معناه ولا تفسدوا شيئا في الأرض، فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس بالقتل وبقطع الأعضاء، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ووجوه الحيل، وإفساد الأديان بالكفر والبدعة، وإفساد الأنساب بسبب الإقدام على الزنا واللواطة وسبب القذف، وإفساد العقول بسبب شرب المسكرات، وذلك لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة: النفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول. فقوله: ولا تفسدوا منع عن إدخال ماهية الإفساد في الوجود، والمنع من إدخال الماهية في الوجود يقتضي المنع من جميع أنواعه وأصنافه، فيتناول المنع من الإفساد في هذه الأقسام الخمسة، وأما قوله: بعد إصلاحها فيحتمل أن يكون المراد بعد أن

(١) [سورة الإسراء آية ٥٩]

(٢) [سورة الأعراف آية ٥٥]

أصلح خلقتها على الوجه المطابق لمنافع الخلق والموافق لمصالح المكلفين»[1].

فالله أصلح الأرض إذ خلقها على ما يناسب المكلفين، ثم أرسل الرسل وأنزل الكتب لإدامة هذا الصلاح.

﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي اِ۬لاَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ اَ۬لْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ اَ۬للَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي اِ۬لاَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2].

وقد تجلى من خلال هذا المبحث أن التكليف الإلهي عندما ينفصل عن عالم التكوين، فإن الأمر يؤول إلى ما ذكرته الملائكة من الإفساد وسفك الدماء.

أما إذا اتصل التكليف بالتكوين فإن العلاقة بين جميع مكونات هذا الكون تؤول إلى علاقة حب وتكامل وتوازن وتعاون.

وتتحول الحياة من حلبة للصراع والحِمام، وغابة تأكل فيها النسور الحمام، ومائدة يستحوذ فيها الأقوياء اللئام، على حقوق الضعفاء والأيتام، إلى روضة غناء تداعب فيها رياح الرحمة الآكام، لتتساقط ثمرات المحبة والوئام، وتلقي عليها شمس الوحي السلام، وتمسح عنها سجف الظلام، لتزفها إلى عيون المسبحين بحمد خالق الأنام، ذي العزة والمهابة والجلال والإكرام.

❖ ❖ ❖

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٨٣)

(٢) [سورة الأعراف آية ٧٣]

المبحث الثاني
أثر الربط بين التكوين والتكليف في حفظ الأسرة

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: خطاب التكوين المتعلق بالأسرة في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: خطاب التكليف المتعلق بالأسرة وارتباطه بطبيعة تكوينها.

المطلب الثالث: أثر الفصل بين التكليف والتكوين على الأسرة.

المبحث الثاني
أثر الربط بين التكوين والتكليف في حفظ الأسرة

لم يفصل القرآن الكريم في باب من المعاملات كما فصل في موضوع الأسرة، وهذا مؤشر على أهمية الأسرة، وثبات أحكامها وأنها ليست أحوالا شخصية، بل هي قضية تهم الأمة بل البشرية عامة. وغايتنا في هذا المبحث بيان آثار الفصل والوصل بين الحقائق التكوينية التي كون الله عليها الأسرة والأحكام التكليفية المؤسسة للنظام التشريعي الذي نظم الله به هذه الأسرة، وذلك في مطالب ثلاثة.

أبرز في الأول منها تناول القرآن الكريم لهذه الأسرة من الجانب النظري الواصف لطبيعة تكوين هذه الأسرة.

وتعرضت في المطلب الثاني للنظام التشريعي التكليفي، المنظم لها، من حيث مراعاته لحقائقها وطبيعتها التكوينية.

وختمت في المطلب الثالث، ببيان الآثار السلبية التي تنتج عن تنظيم الأسرة بأحكام وضعية لا تراعي الحقائق التكوينية للأسرة، وهو ما سميته بالفصل بين خطاب التكوين وخطاب التكليف.

المطلب الأول

خطاب التكوين المتعلق بالأسرة في القرآن الكريم

تناول خطاب التكوين الأسرة في آيات كثيرة، سأتعرض في هذا المطلب لبعضها:

فمن ذلك أن القرآن الكريم بين أن الأسرة هي الخلية الأولى للبشرية، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(١).

كما بين أنها الإطار الفطري لالتقاء الرجل بالمرأة، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢) وقد أشارت الآية إلى الدعائم الأساسية لتكوين الأسرة وكلها تكوينية من خلق الله وجعله.

الأولى: قيامها على شطري النفس البشرية الذكر والأنثى: يقول عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾(٣) فلا تتشكل هذه الأسرة إلا على نمط واحد يتم برباط أخلاقي بين الرجل والمرأة، أي أنها تقوم على التكامل لا

---

(١) [سورة النساء آية ١]

(٢) [سورة الروم آية ٢٠]

(٣) [سورة النجم آية ٤٥]

التماثل، هذا خلافا لما تدعو إليه حقوق الحضارة الممسوخة من تعدد أنماط الأسرة، ومحاولة فرضها على العالم في إطار ترسيخ حقوق الإنسان بمرجعيتها الكونية. وذلك ضمن الخطة الاستيلابية الجديدة المتخفية تحت لباس العولمة.

وقد خلق الله كل واحد منهما على مزايا واستعدادات ليست كلها على سواء، فبعضها يختلف فيها كل طرف عما عند الآخر. ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾(١).

الثانية: السكن: أي سكون النفس واضطرابها وثورانها شوقا إلى الجنس الآخر، ففيه سكن للاضطراب الروحي العاطفي، وللاضطراب الشهواني الغريزي، قال السمرقندي: لتسكنوا إليها يعني: لتستقر قلوبكم عندها. لأن الرجل إذا طاف البلدان، لا يستقر قلبه، فإذا رجع إلى أهله، اطمأن واستقر(٢).

والسكن بهذا المعنى الشامل الذي يشير إليه (**السكن إلى**) لا يمكن تحققه، بـ (**السكن مع**) ولهذا فمنذ اللحظات الأولى للوجود الإنساني ربط الله هذا السكن باجتماع الزوجين في محل واحد. فقد نادى الله آدم ممتنا عليه بقوله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾(٣) والأمر هنا ليس أمر تكليف، إنما هو أمر تمكين الذي هو من أمر التكوين، قال صاحب التحرير: «والأمر بقوله: اسكن مستعمل في الامتنان بالتمكين والتخويل وليس أمرا له بأن يسعى بنفسه لسكنى الجنة إذ لا قدرة له على ذلك السعي فلا يكلف به»(٤).

---

(١) [سورة آل عمران آية ٣٦]

(٢) تفسير السمرقندي (بحر العلوم) (٣/ ٨)

(٣) [سورة البقرة آية ٣٤]

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٤٢٨)

ومن ثم تعلم أن سكن الزوج والزوجة في محل واحد كان أمر تكوين، اقتضته الفطرة التي خلق الله الإنسان عليها، وهذا الباعث أغنى عن ورود أمر التكليف به، إلا إذا طرأ على الأسرة ما يعكر صفو هذه الفطرة، حينها يتدخل أمر التكليف ليحافظ على هذا التوازن، ولهذا أمر الله بإسكان المطلقة طلاقا رجعيا في بيت الزوجية ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾(١).

ثالثا: المودة والرحمة: وكلاهما جعل تكويني من الله عز وجل لاستقرار الأسرة، «فيود بعضهم بعضا ويرحم **بالطبع والخلقة**؛ إذ كل ذي طبع يود شكله وجنسه إذا كان في حال السعة والرخاء والسرور، ويرحمه إذا نزل به البلاء والشدة؛ هذا معروف عند الناس أن يتراحم بعضهم على بعض في حال نزول البلاء والشدة، وتوادهم في حال السعة والسرور»(٢).

ثم ختم بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣) «فيدركون حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقا للآخر. ملبيا لحاجته الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية. بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء، والمودة والرحمة، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد...»(٤).

---

(١) [سورة الطلاق آية ٦]

(٢) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) (٨/ ٢٦١)

(٣) [سورة الروم آية ٢٠]

(٤) في ظلال القرآن (٥/ ٢٧٦٣)

وبين أنها منشأ الذرية والأحفاد، لتستمر الحياة، وتتصل قوافلها، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾(١).

وبين أن هذه الخلية هي التي تمتد أغصانها وفروعها لتكون المجتمعات والشعوب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢).

كما بين أنها سبب للاغتناء، وتحريك عجلة النمو الاقتصادي الأسري ومن ثم المجتمعي، ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٣).

❁ ❁ ❁

(١) [سورة النحل آية ٧٢]

(٢) [سورة الحجرات آية ١٣]

(٣) [سورة النور آية ٣٢]

المطلب الثاني

خطاب التكليف المتعلق بالأسرة وارتباطه بتكوينها

أحكام الأسرة من الأحكام التي فصل فيها القرآن الكريم تفصيلا كاملا شاملا، ربما لا يضاهيه غيرها حتى في باب العبادات، فقد تعرض للزواج وأحكامه وحقوق الزوجين، والتعدد وشروطه، وكيفية المعاشرة، ومشاكل الأسرة، كالنشوز والشقاق والإيلاء والظهار والتحريم واللعان، والإعسار بالنفقة، والإعضال، والطلاق وأنواعه وأحكامه ومشاكله، كالسكن والرضاع بعده والنفقة، وغير ذلك.

كما فصل في أحكام الإرث، ووصى بالوالدين والأقارب، وذي الأرحام، وحث على الإحسان إليهم وأحاط الأسرة بمنظومة من القيم والأخلاق المتكاملة، الرامية إلى إيجاد بيئة صالحة لنمو الأسرة، وازدهارها وتماسكها.

ثم أناط تلك الشرائع المنظِّمة، والمنظومة الأخلاقية الداعمة، بأصل واحد جامع عاصم هو تقوى الله والإيمان به.

ولهذا نجد الأمر بالتقوى، كثيرا ما يتخلل الآيات التي تعالج موضوع الأسرة، ومن ذلك على سبيل المثال، افتتاح سورة النساء بالأمر بالتقوى، كما جاء الحث على التقوى متخللا آيات المتعلقة بأحكام الأسرة في سورة البقرة والنساء والطلاق، فمثلا تكرر الحث على التقوى في سورة الطلاق وهي اثنا عشرة آية؛ ست مرات أي ما يعادل نصف آياتها، ووردت فيها كلمة الله خمس وعشرون مرة، وهو ضعف آياتها وزيادة، إضافة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر،

كل ذلك ليحيط هذا المحضن التكويني بسياج آمن يوفر الأمن والأمان، والثبات والاستقرار، وليسد كل ما من شأنه أن تتسرب منه رياح الفتنة إليها، وبذلك جعلها في منعة وحصن حصين.

ومما يلفت الانتباه ويؤكد ذلك أن مصطلح **الحدود** مضافا إلى الله أو إلى ضمير عائد عليه[1] ورد في القرآن ثلاثة عشرة مرة، هذا المصطلح؛ بكل ما يحمل من معاني القداسة والمنعة والإجلال، وبالرغم أن جميع أحكام الله وأوامره ونواهيه حدوده، كما بين رسول الله ﷺ، لكنه لم يرد في القرآن الكريم إلا في سياق الآيات المتناولة لقضايا الأسرة والعلاقات الزوجية. إلا مرة واحدة فقد ورد في سياق عام.

وإذا استحضرنا معاني الحد في اللغة العربية وأنه يعني «المنع، ومنه: حد الدار، وهو ما يمنع غيرها من الدخول فيها. والحداد في اللغة: الحاجب والبوّاب، وكلّ ما منع شيئاً فهو حداد، قال **الأعشى**:

فقمنا ولما يصحْ ديكنا ... إلى جونة عند حدادها

أي: عند ربها الذي يمنعها إلا بما يريده»[2].

إذا علمنا ذلك علمنا أن الأسرة حمى خاص من حمى الله عز وجل، وأنها من حقوق الله (النظام العام) وربما ينطوي ذلك على سر يفسر ثبات أحكامها أمام الهجمات المتكررة الشرسة للقوانين الوضعية، بالرغم من أن وراء هذه

---

(١) وورد مضافا إلى ما أنزل الله مرة واحدة، في سورة التوبة (الآية ٩٨)

(٢) زاد المسير في علم التفسير (١/ ١٥١)

القوانين قوى ضخمة وكثيرة ومتنوعة ومتظاهرة، منها الأمم المتحدة، والمنظمات النسوية والحقوقية، المؤتمرات المواثيق الدولية، المؤسسات المالية والاقتصادية، والمنابر الإعلامية، الأحزاب السياسية، بل والأنظمة العلمانية القائمة، في معظم الدول الإسلامية، إضافة إلى القوة السالبة المتمثلة في تدهور العالم الإسلامي، وعدم استقامته على أمر الله، وقابليته لاستهلاك واستيراد كل ما أنتجته المعامل الأوربية وعقولها، وبالرغم من هذا كله بقيت أحكام الأسرة عموما هي الحصن المتبقي والصامد من التشريعات النظامية الإسلامية.

المطلب الثالث

أثر الفصل بين التكليف والتكوين، على الأسرة

سبق في ثنايا هذا البحث أن مصدر التكوين والتكليف واحد هو الله عز وجل، وسبق كذلك أن التكوين أمر مشاهد وهو واقع ماله من دافع، إذ هو من خلق الله، ومن هنا لا مجال فيه لخيار الإنسان، ولكن ـ وكما سبق أيضا في الفصل السابق ـ بين التكوين والتكليف تكامل وتأثر وتأثير حسب السنن الكونية، فإذا اتصل التكوين بالتكليف، بإقامة أمر الله على خلقه. والأمر هنا أعني به على الخصوص نظام الأسرة، وخلقه هي الأسرة نفسها، استقام الخلق (الأسرة) وتحققت له وبه الغاية التي كون لها والمنسجمة معه، وإذا انفصل التكليف عن التكوين ضاعت البوصلة وزلت الأقدام وعميت البصائر والأبصار.

والأسرة أمر تكويني لا يعطي ثماره إلا بأمر تكليفي، كما سبق في المطلب الأول، ولما كانت الحضارة المادية وهي في توجهاتها عموما وفي قضايا الأسرة خصوصا تضاد الأوامر التكليفية، لزم بمقتضى السنة التكوينية التي لا تتبدل، أن تبرز آثار هذه التوجهات المخربة، إن على شكل الأسرة وطبيعتها، أو على أعضائها وطبيعة العلاقة بينهم، أو على وظيفتها بشكل عام، ووظيفة كل عضو من أعضائها بشكل خاص، وهذا الأثر ـ من طبيعة الحال ـ لا يمكن أن يقتصر على الأسرة بل ستظهر انعكاساته على المجتمع بكل جوانبه وأبعاده.

وهذا ما رصده كل من درس الأسرة في تلك الحضارة[١]، إذ تعاني الأسرة

(١) ينظر كتاب الحجاب لأبي الأعلى المودودي،

بسبب البعد عن التكليف الإلهي من اضطرابات، أدت في بعض البيئات إلى التهديد بتلاشيها، بل يرى أنجلز أن زوالها من الحتميات وفق الصيرورة التاريخية، «فالأسرة منذ تاريخها البدائي في الزمن القديم وهي آخذة في التقلص التدريجي عن طريق التضييق المستمر لدائرتها، فقد كانت هذه الدائرة تحتوي في الأصل على القبيلة بأسرها، فذهب من الأقارب أبعدهم أولا ثم ذهب أدناهم فأدناهم... حتى الأقارب بالزواج... وتصل الدائرة في ضيقها بحيث يصبح الاجتماع في علاقة زواجية مستحيلا من الناحية العملية. وفي الختام لا يبقى سوى الفرد وحده مع علاقة سائبة بالجنس الآخر وبهذا الانحلال يتوقف الزواج».

وانطلاقا من ذلك وفي ظل العناية بالحقوق الفردية، فإن نظام الأسرة يشكل عائقا أمام هذه الحرية، ولذا جعلت الحضارة المادية، من بين أهدافها تقويض مؤسسة الأسرة، واستبدالها بمؤسسات الدولة مثل دور الحضانة، ودور العجزة والمسنين، وغيرها، كما استبدلت الأم والأب بالحاضنة والموجه التربوي (الكوتشيه). واستبدال العواطف والترابط الأسري تحت كنف الأسرة وحضنها، بالعلاقات الحرة بين الجنسين، فهذه (سيمون دي بوفوار) الكاتبة الفرنسية المعروفة بنشاطها في مجال تحرير المرأة بفرنسا وخارج فرنسا تقول: «ستظل المرأة مستعبدة حتى يتم القضاء على خرافة الأسرة وخرافة الأمومة والغريزة الأبوية»[1] وتقول البروفسورة (كاثرين بالم فورث) «إن لجنة المرأة في الأمم المتحدة شكلتها امرأة اسكندانيفية كانت تؤمن بالزواج المفتوح، ورفض الأسرة، وكانت تعتبر الزواج قيدا، وأن الحرية الشخصية لابد أن تكون مطلقة،

(١) الاسلام بين الشرق والغرب (ص: ٢٥٨) علي عزة فيكوفيتش

وأن المواثيق والاتفاقات الدولية التي تخص المرأة والأسرة والسكان تصاغ الآن في وكالات ولجان تسيطر عليها فئات ثلاث، (الأنثوية المتطرفة) و(أعداء الإنجاب والسكان) (والشاذين والشاذات جنسيا)[1].

وهكذا تصبح الأسرة والزواج شيئا قذرا مناف للفطرة والأخلاق والعقل والتمدن، وينقلب الزنا واللواط والرذيلة أمرا محمودا طاهرا[2] بل أصبحت ممارسة الفواحش حق تكفله القوانين وترعاه الدولة، وقد عانت وستعاني المجتمعات الغربية من آثار وعواقب تخريب مؤسسة الأسرة على مستويات كثيرة، منها العزوف عن الزواج، وتعدد أنماط الأسرة، وكثرة الأبناء غير الشرعيين حتى تجاوزوا نصف الولادات الجديدة في بعض الدول، وهذه النسبة في متتالية مستمرة، ناهيك عما ينتج عن ذلك من أزمات اجتماعية وصحية ونفسية[3] وروحية وأمنية واقتصادية وهلم جرا.

وقد دخلت في طور الانقراض كثيرا من المعاني والعواطف الإنسانية الجياشة، والتي هي للمجتمعات كالسائل الزلالي الذي يلين مفاصل الجسد الواحد، أعني عاطفة الأبوة والأمومة والأخوة والبنوة والخؤولة والعمومة،

---

(١) كاثرين: ندوة حول اتفاقية السيداو، ٤ يناير ٢٠٠٠م على هامش مؤتمر المرأة والعولمة الذي عقد بالخرطوم، عن حركات تحرير المرأة من المساواة إلى الجندر دراسة إسلامية نقدية، (ص: ٢٩٢) دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤ وانظر كذلك المصطلحات الوافدة ص ٧٩

(٢) أنظر للمزيد كتاب الحجاب للمودودي (من الصفحة ٤٩ إلى ٦٦) وكتاب أحوال الأحكام الشخصية للمسلمين في الغرب (ص ١٤٩ إلى ١٥٩)

(٣) انظر: المرأة بين الفقه والقانون مصطفى السباعي، (ص: ٢١٥ و٢٤٤ و٢٤٦ وما بعدها)

فتلاشى معها كل ما تحمله معها من أمن وأمان وانتماء وحب وسعادة وسلام، ولا يشعر بفداحة هذه الخسارة إلا من عاش في كنف الإسلام وذاق طعم تلك العواطف التي بها تكتسي الحياة جمالا ويكون للعيش معنى.

وفقدان هذه العواطف «وتفكك الروابط والعلاقات الاجتماعية والأسرية أوجد إحساساً بالضياع، وأوجد أزمة هوية لدى الشباب والمراهقين في بلاد الغرب التي أصبحت مهددة بانهيار نفسي وجماهيري...

هذا الإحساس بالضياع الذي يعيشه مراهقو الغرب أوجد نزعة نحو التخلص من مشاكل الحياة المادية باللجوء إلى الانتحار... فقد أجرت «مجلة المراهق» الأمريكية مسحاً بين عينة من الصبية والفتيات في فئة السن بين ١٥ و١٩ عاماً لاستطلاع مشاعرهم تجاه ظاهرة الانتحار المتزايد في المجتمع الأمريكي... المسح الذي شارك فيه أكثر من (٥٠٠) صبي وفتاة جاء بنتائج مفزعة تقول: إن الثلث ممن وجِّهت إليهم الأسئلة حاولوا فعلاً التخلص من حياتهم بعد أن استسلموا لليأس والقنوط، ولقد رُوعي في تكوين واختيار تلك العينة أن تكون ممثلةً لواقع المجتمع الأمريكي بجميع طبقاته... وينتهي المسح أيضاً إلى أن ٧٣٪ من الشباب والمراهقين فكَّروا في الإقدام على الانتحار مرة أو أكثر خلال حياتهم...

ويشير الاستطلاع إلى ظاهرة خطيرة أخرى... وهي: أن غالبية من حاولوا الانتحار هم من الفتيات في أخطر مراحل العمر، وأحوجها إلى الجو النفسي الأسري[1].

---

(١) مجلة البيان (العدد: ٨ السنة ١٤٠٨هـ الصفحة ٩٥)

ومما يؤكد هذا الوضع الخطير للأسرة في الغرب بعد أن تم فصلها عن القيم الدينية والأخلاقية، ما تسفر عنه التقارير المتخصصة في نسبة المولودين من العلاقات الغير المشروعة، أو ما يسمونه بالإنجاب خارج إطار الزواج، إذ بلغت ـ حسب إحصائيات يوروستات لعام ٢٠١٨ ـ في فرنسا ٦٠٪ وفي أيسلاندا ٦٧٪ وبلغت النسبة في دول الاتحاد الأربي عامة ٤٣٪ وفي أمريكا مثل ذلك تقريبا.

وهذا ما دفع الأمريكي الجمهوري «باتريك جيه بوكانن» إلى أن يفتتح كتابه (موت الغرب) بهذه الصرخة والتي تحمل كثيرا من الأسى واستشعار المرارة وفداحة الخطر الذي يهدد حضارتهم بسبب انهيار كيان الأسرة «لقد ماتت أقول ماتت ولا أقول تلاشت لأنها كانت كائنا حيا، كانت حضارة تقوم على أساس الأسرة، وما حل محلها ليس كائنا حيا، إنه مجتمع متذرذر[١]، بدون أمن، وبدون دفء، إنه فوضى من علاقات متشظية ميكانيكية، أوه، أنا أعرف،... كان ينبغي للأساس الأسري أن يوسع وأن يصان، وأن يشجع»[٢].

❁ ❁ ❁

(١) متفرق ومتبدد

(٢) موت الغرب (ص ٩) ترجمة محمد محمود التوبة

المبحث الثالث
أثر العلاقة بين التكليف والتكوين في حفظ إنسانية الإنسان

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ما هو الإنسان في الإنسان؟

المطلب الثاني: أثر الربط بين التكوين والتكليف في حفظ إنسانية الإنسان

المطلب الأول

ما هو الإنسان في الإنسان؟

هذا السؤال يجيب عنه الراغب الأصفهاني بقوله «ماهية كل شيءٍ تحصل بصورته التي يتميز بها عن أغياره، كصورة السكين والسيف والمنجل ونحوها. ولما كان الإنسان جزئين بدن محسوس وروح معقول كما نبه الله تعالى عليه بقوله: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧٠ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[1] كان له بحسب كل واحد من الجزئين صورة، فصورته المحسوسة البدنية انتصاب القامة وعرض الظفر وتعري البشرة عن الشعر والضحك. وصورته المعقولة الروحانية العقل والفكر والرويّة والنطق... فالإنسان يقال على ضربين عام وخاص فالعام أن يقال لكل منتصب القامة مختص بقوة الفكر واستفادة العلم، والخاص أن يقال لمن عرف الحق فاعتقده والخير فعمله بحسب وسعه، وهذا معنى يتفاضل فيه الناس ويتفاوتون فيه تفاوتاً بعيداً، وبحسب تحصيله يستحق الإنسانية، وهي تعاطي الفعل المختص بالإنسان فيقال فلان أكثر إنسانية[2].

فإنسانية الإنسان إذن تكمن فيما لا يُرى فيه ولا يبدو، أما ما يبدو منه في الظاهر، فلا يزيد على كونه جمادا أو نباتا أو حيوانا. فالأشياء التي لا تدرك ولا

---

(١) [سورة ص آية ٧٠-٧١]

(٢) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص: ٣٥)

يمكن قياسها في الإنسان أكثر أهمية من الأشياء المادية التي تدرك ويمكن قياسها[1].

وفي نفس الاتجاه عرف عبد المجيد النجار إنسانية الإنسان بأنها «ماهيته التي بها كان إنسانا ولم يكن شيئا آخر»[2] كما عدها ضرورية من الضروريات التي جاء الدين لحفظها، إضافة إلى حفظ الإنسان وعقله وكيانه الاجتماعي، ودينه وعرضه وماله وبيئته.

ومما سلف نعلم أن ماهية الإنسان مركبة من عناصر مختلفة تتجاوز العنصر المادي المرئي المحس، وبعده العقلي الذي يمكن تعقله ورصده وقياسه، بل ما لا يتأتى إدراكه وقياسه من الإنسان أهم بكثير من عظمه ولحمه ودمه وعقله، وهذا هو سر كون معرفة الإنسان بالإنسان لا تزال بدائية[3]، وقد أجرمت العلوم المادية في حق إنسانية الإنسان، وذلك بقضائها على كثير من مقومات الإنسان المعنوية، لما فصلت جانبه التكويني المادي، عن جانبه المعنوي الروحي، واقتصرت في مصادرها على المصادر الكونية المادية، وأهملت المصادر الروحية التكليفية، وهكذا ساعدت الإنسان في تيسير الحياة المادية، وإشباع غرائزه وشهواته الحيوانية. وحرمته من إنسانيته وكرامته وكبتت أشواقه الروحية.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر الإنسان ذلك المجهول: (ص: ٢٩٧)

(٢) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة: (ص: ٨٤).

(٣) انظر الإنسان ذلك المجهول: (ص: ٢٩٧)

المطلب الثاني

أثر الربط بين التكوين والتكليف

في حفظ كرامة الإنسان

الإنسان كما سبق في الفصل السابق مكون من طين أرضي وروح سماوي، ولا يمكن أن تستقيم حياة الإنسان وتستقر نفسه إلا بالنظر إلى الإنسان وفق هذا التصور، ثم إشباع رغبات كل مكون من مكونات الإنسان، واستحضار البعدين الروحي والجسدي، في كل تعامل مع الإنسان، ومتى أهمل أحد البعدين خلف آثارا سلبية على الإنسان.

لقد أفاض القرآن الكريم في الحديث عن ماهية الإنسان، وأبعاده وتميزه عن غيره من المخلوقات، فبوأه منزلة سامية، ومكانة عظيمة وجعله مكرما مفضلا على كثير ممن خلق الله تفضيلا، ومن مظاهر تكريمه، أن خلقه بيده، ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾[1] ونفخ فيه من روحه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[2] وخلقه على الفطرة مستقيم القامة جميل الصورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[3] وعلمه من علمه

(١) [سورة ص آية ٧٤]

(٢) [سورة ص آية ٧١]

(٣) [سورة الانفطار آية ٦-٨]

ما لم يعلم ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(1).

وفضله على كثير من مخلوقاته، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(2) وأسجد له ملائكته، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾(3) وسخر له جميع ما في السموات والأرض ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(4).

وهذا كله من مظاهر التكريم التكويني التي تشترك فيها الإنسانية كافة، مؤمنهم وكافرهم، وطائعهم وعاصيهم، لكن التكريم الإلهي للإنسان لم يقف عند هذا المستوى، بل زاده وأتم عليه نعمه وتكريمه، بأن أرسل إليه الرسل وأنزل عليه كتابه العظيم، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(5) وأمده بالنور المبين الذي يضيء له مسالك الحياة، ويهديه إلى مراضي الرحمن، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(6) وقال عز وجل: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ

(1) [سورة العلق آية ٤-٥]

(2) [سورة الإسراء آية ٧٠]

(3) [سورة البقرة آية ٣٣]

(4) [سورة لقمان آية ١٩]

(5) [سورة المائدة آية ٤]

(6) [سورة الزمر آية ٢١]

﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

وأخبره بقربه منه وتجاوبه معه، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2] إلى ما سوى ذلك مما حرم الشعور به المخذولون.

وقد بني هذا التكريم التكليفي على التكريم التكويني الأول، ولهذا فلا يستكمل عناصر التكريم ولا يجني ثماره بل لا يستشعره إلا من جمع بين التكريمين، أو بالأحرى من استوفى جميع عناصر التكريم، وكل خلل في التكليف ينعكس تلقائيا على تكوين الإنسان وحقيقته وماهيته، فإذا أخل بمقتضيات التكريم التكليفي الاختياري، فلن ينفعه التكريم التكويني بل ينقلب من كريم مكرم إلى لئيم مهان، ويُنكَّس من أعلى عليين إلى أسفل سافلين قال الراغب الإصفهاني تعليقا على قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[3] ابتدأ بتعليم القرآن ثم بخلق الإنسان ثم بتعليم البيان، ولم يدخل الواو فيما بينهما، وكان الوجه على متعارف الناس أن يقول: خلق الإنسان وعلمه البيان وعلمه القرآن، فإن إيجاد الإنسان بحسب نظرنا مقدم على تعليم البيان، وتعليم البيان مقدم على تعليم القرآن، لكن لما لم يُعَد الإنسان إنسانا ما لم يتخصص بالقرآن ابتدأ بالقرآن، ثم قال خَلق الإنسان تنبيهاً على أن

---

(١) [سورة المائدة آية ١٧-١٨]

(٢) [سورة البقرة آية ١٨٥]

(٣) [سورة الرحمن آية ١-٢]

بتعليم القرآن جعله إنساناً على الحقيقة، ثم قال علمه البيان، تنبيهاً على أن البيان الحقيقي المختص بالإنسان يحصل بعد معرفة القرآن، فنبه بهذا الترتيب المخصوص، وترك حرف العطف منه، وجعل كل جملة بدلاً مما قبلها لا عطفاً، **على أن الإنسان ما لم يكن عارفاً برسوم العبادة ومتخصصاً بها لا يكون إنساناً**، وأن كلامه ما لم يكن على مقتضى الشرع لا يكون بياناً»[1].

ما الناس سوى قوم عرفوك وغيرهم همج همج
قوم فعلُوا خيرا فعلَوْا وعلى الدرج الأعلى درجوا
يا مدعيا لطريقهم قوم فطريقك منعرج

«فكل خروج عن منهج الله عز وجل فيه إهانة لهذا الإنسان، وفيه تدنيس له لأن الكرم يضاده اللؤم، فالذي يخرج في تعامله فردا كان أو جماعة عن منهج الله عز وجل هو في الحقيقة يصير بذلك لئيما غير كريم، ويعامل الآخر معاملة لئيمة ليست كريمة، وبما أن ضد الكرم الإهانة، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[2] ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾[3] فكل خروج عن منهج الله عز وجل فيه إهانة للنفس نفسها، وفيه إهانة للآخر الإنسان المعامل، ومخالفة للأصل الأول، ومخالفة لمقتضى الفطرة، ومخالفة للتكريم الله لآدم، ولتكريم الله لبني آدم»[4].

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص: ٨٠)

(٢) [سورة الحج آية ١٨]

(٣) [سورة الفجر آية ١٥-١٦]

(٤) مظاهر تكريم الإنسان في القرآن الكريم. د. الشاهد البوشيخي (ص٣٩)

وها هي الحضارة المادية لما فصلت بين التكوين والتكليف، أصبحت حضارة ممسوخة، عارية من القيم الإنسانية أو تكاد، وقد خلعت عن أبنائها لباس الكرامة، وسلبتهم إنسانيتهم، لما لم يستجيبوا للتكليف الإلهي، أرادوا أن يبعدوا التكليف الإلهي عن الإنسان تحقيقا لكرامته التي أهانتها التكاليف ـ كما زعموا ـ، فأبعدهم الله عن إنسانيتهم، قال أليكسيس كاريل «إن أشكال الحياة والتعليم والطعام التي جلبتها لنا المدنية الحديثة تميل إلى إعطائنا صفات الأغنام»(١)، نعم لقد أخبرنا الله أن ذلك مصير كل من اتبع الهوى وانحرف عن هدي الله وتكليفه، إذ قال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٢).

فالناس انطلاقا من موقفهم من التكليف «ضربان: ضرب لم يحظ من الإنسانية إلا بالصورة التخطيطية من انتصاب القامة، وعرض الظفر، والقوة على الضحك، ولغو من النطق يجري مجرى المكاء والتصدية وهو دون البهائم. وضرب هو الإنسان وهو المعنَّى بما خلق لأجله(٣)» وذلك لأن «الإنسان يحصل له من الإنسانية بقدر ما يحصل له من العبادة التي لأجلها خُلق، فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الإنسانية، ومن رفضها فقد انسلخ من الإنسانية فصار حيوانا أو دون الحيوان»(٤).

---

(١) الإنسان ذلك المجهول (ص: ١٤٠)

(٢) [سورة الفرقان آية ٤٣-٤٤]

(٣) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص: ١١٩)

(٤) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص: ٨٠)

ومن المفارقات العجيبة، أن التشريعات البشرية نصت في مواثيق حقوق الإنسان على حماية كرامة الإنسان وشرفه، ولكن ـ وكما يقتل باسم السلام الأطفال والنساء في عالمنا ـ كذلك باسم هذه الحقوق يجهز على كرامة الإنسان فباسم حقوق الإنسان ينادى بحق الزواج المثلي، وباسم هذه الحقوق يجرم التعدد ويدافع عن الحق في تعدد الشركاء الجنسيين، وباسم هذه الحقوق تنادي النساء بحقوقهن في العري وكشف الصدور، ومساواة الرجال في كل شيء، وبسم حقوق الإنسان وكرامته يتم الاعتراف بحق الشذوذ الجنسي.

وقد حمى الإسلام هذه الكرامة وعززها بأحكام تجدها مفرقة في باب العقائد والفقه والسلوك، بل ما من حكم تكليفي إلا وروعي فيه هذا المقصد الكبير، فالتوحيد إنما هو تكريم للإنسان من أن يتذلل لعبد مثله، أو دونه، أو تتوزعه أهواء متفرقة وآلهة متشاكسة، وأزاح الوسائط بينه وبين عبده، فكل إنسان له أن يتصل بربه مباشرة من غير كاهن ولا وسيط، فالعبادات الإسلامية بأجمعها تكليف لضمير الإنسان وحده، لا يتوقف على توصيل هيكل أو تقريب كهانة.

وفي أحكام الأخلاق والسلوك حماية لكرامة الإنسان من أن تدنسها الغرائز البهيمية، والشهوات الدنيئة.

وحماها بشعائر العبادات[1] التي يسموا بها روح الإنسان، ويصقل بها طبعه، ويتصل من خلالها بمصدر العز والكرامة، وهو اتصال ترتقى فيه النفس لتتخلص من نقائصها.

---

(١) يراجع العبادة في الإسلام (ص: ١٤١ إلى ١٤٨)

وكرامة الإنسان تراعى حتى في كيفية أداء الشعائر.

فجعل الصف الأول في الصلاة لمن سبق إليه سيدا كان أو أجيرا، والأخير لمن تأخر حتى ولو كان أميرا، ومن لطائف حفظ هذه الكرامة أن الإمام إذا عرض له أمر يفسد الصلاة، عليه أن يخرج ممسكا بأنفه ليوهم الناس أنه رعف، حتى لا يظنوا به ما يخدش كرامته.

والزكاة كلف الله ولي الأمر بجبايتها، ثم توزعها الدولة كما توزع على موظفيها مستحقاتهم. وهكذا يأخذها الفقير معززا مكرما من غير أن يمتن بها عليه الغني.

ومن مظاهر حفظ الكرامة في فريضة الحج ما قرره الفقهاء من أن قبول الهبة للحج لا يجب ولا توجب الحج على غير القادر، بل هو على الخيار إن شاء قبل الهبة وحج، وإن شاء رفضها، وذلك صونا لكرامته وعزته، لأن التكليف سبب العزة والكرامة، فلا يكون سببا لإذلال النفس وتعريضها لمَنِّ المتفضل عليها من العباد.

هذا ناهيك عما فيه، من إلغاء الميزات والفوارق في جميع شعائره وجعل الناس سواسية.

المبحث الرابع
أثر ربط التكوين بالتكليف في حفظ كرامة المرأة

وفيه مطالب:

المطلب الأول: خطاب التكوين المتعلق بالمرأة.

المطلب الثاني: أثر الفصل بين التكوين والتكليف في إهانة المرأة.

المطلب الثالث: آثار الوصل بين التكوين والتكليف في حفظ كرامة المرأة.

المطلب الأول

المرأة في خطاب التكوين

المرأة تناولها الخطاب التكويني في القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها ما هو عام يشاركها فيه الرجل، كالكرامة والتفضيل العامين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1] والتفضيل في هذه الآية تفضيل لهما على غيرهما، وورد في غيرها تفضيل بعضهما على بعض بما لكل منهما من خصائص وميزات، ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[2] وفي هذه الآية «إيجاز بديع وهو يشمل ما فضل الله به بعض الرجال على بعض، وما فضل بعض النساء على بعض وما فضل به جنس الرجال على النساء، وما فضل به جنس النساء على الرجال، من حيث إن الخصوصية فضل، أي: زيادة في صاحبها على غيره، وما فضل به بعض الرجال على بعض النساء، وما فضل به بعض النساء على بعض الرجال»[3].

كما بين القرآن في خطابه التكويني أن المرأة من الشهوات المحبوبة المزينة للناس في هذه الحياة ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[4]

(١) [سورة الإسراء آية ٧٠]

(٢) [سورة النساء آية ٣٢]

(٣) تفسير المنار (٥/ ٤٩)

(٤) [سورة آل عمران آية ١٤]

الآية. وأن حسنها يثير إعجاب الرجل ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾(١) وأنها قد تغلب الرجل بفتنتها وجمالها لا بقوتها وخصامها ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾(٢).

وورد كذلك في الخطاب التكويني المتعلق بالنساء أنها ليست كالرجل ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾(٣) وهذه الأشياء كلها حقائق تكوينية يتفق عليها المؤمن والكافر، فلبيان هذه الحقيقة أسوق كلام طبيب وفيلسوف ــ ما أظنه قرأ القرآن ولا اطلع على حقائقه ــ وهو يثبت هذه الحقيقة يقول: «إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية، ومن وجود الرحم والحمل،... الحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها، وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي، **فالقوانين الفيزيلوجية**(٤) **غير قابلة للين**(٥) **مثل قوانين العالم الكوكبي**(٦)، فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها، ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي، وعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن، دون أن يحاولن تقليد الذكور»(٧).

---

(١) [سورة الأحزاب آية ٥٢]

(٢) [سورة الزخرف آية ١٧]

(٣) [سورة آل عمران آية ٣٦]

(٤) هي القوانين التكوينية بمنظور هذا البحث

(٥) كذا ولم أستبن معناها وقرينة السياق تقتضي أنها في معنى التغيير أو التبديل. ولعلها (للي)

(٦) هي القوانين التكليفية بمنظور هذا البحث غير أنها وضعية

(٧) الإنسان ذلك المجهول ١٠٢

المطلب الثاني

آثار الفصل بين التكوين والتكليف في إهانة المرأة

مما سبق يتضح أن الحقائق التكوينية أمر لا يمكن جحوده لأنها ماثلة أمام العيان، لكن المنكرون لخطاب التكليف استغلوا هذه الحقائق فيما يشبع شهواتهم، ويحقق رغباتهم، ولو كان فيه ما يهين كرامة المرأة ويردي المجتمعات، موهمين إياها بأن ما يدعونها إليه إنما هو من صميم حقوقها الواجبة لها، فدعوها باسم هذه الحقوق، إلى حقها في التعري، وحقها في ممارسة الجنس من غير قيود، وبالحق في الإجهاض إن لم ترغب في الحمل، وفي ظل تكريمها وصيانة حقها في العمل، يعرض جسدها مع ما تقدم من خدمات لجلب الزبائن وإرضاء المديرين والرؤساء، وفي عرض الأزياء والسلع والدعاية لها، وتقديم البرامج التلفزية، وباسم حقها في الفن، مورس عليها جميع ألوان الفسق والفواحش لجمع الثروات وإفساد المجتمعات، كما سيقت أمام عيون قطيع من الذئاب الجائعة الزائغة عارية تماما ليتم تكريمها بملكة الجمال، وملكة الأناقة، وملكة الإغراء، توجوها على مملكات وهمية لا حدود لها. فهذا معنى تكريم المرأة لمن نحى التكليف الإلهي جانبا، أو بالأحرى من نحاه التكليف الإلهي جانبا.

يقول علي عزت فيكوفيتش: «لقد أحالت الحضارة النساء إلى موضوع إعجاب أو استغلال، ولكنها حرمت المرأة من شخصيتها، وهي الشيء الوحيد الذي يستحق التقدير والاحترام، هذا الوضع مشهود بشكل مطرد، وقد أصبح

أكثر وضوحا في مواكب الجمال أو في بعض مهنٍ نسائية معينة، مثل الموديلات. في هذه الحالات لم تعد المرأة شخصية ولا حتى كائنا إنسانيا، وإنما هي لا تكاد تكون أكثر من حيوان جميل.

لقد ألحقت الحضارة الخزي بالأمهات بصفة خاصة، فهي تفضل على الأمومة أن تحترف الفتاة مهنة البيع، أو أن تكون موديلا أو معلمة لأطفال الآخرين، أو سكرتيرة أو عاملة نظافة، إنها الحضارة التي أعلنت أن الأمومة عبودية، ووعدت بأن تحرر المرأة منها، وتفخر بعدد النساء اللاتي نزعتهن (تقول حررتهن) من الأسرة والأطفال لتلحقهن بطابور الموظفات»[1].

ومن آثار هذا الفصل النكد بين خلق الله وشرعه وبين تكوين المرأة وما كلفت به، ما تجنيه الحضارة المادية من ثمرات الانحلال الخلقي، والاضطراب النفسي، حتى أصبح الإنسان غريبا في «العالم الذي ابتدعه، **إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته**،... إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا، إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي، على وجه الدقة، الجماعات والأمم والآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها... وحقيقة الأمر أن مدنيتنا ـ مثل المدنيات التي سبقتها ـ أوجدت أحوالا معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة... إن القلق والهموم التي التي تعاني منها سكان المدن العصرية، تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية»[2].

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب (ص: ٢٦٤) علي عزت فيكوفيتش

(٢) الإنسان ذلك المجهول (ص: ٤١ ـ ٤٢)

ذلكم شاهد من أهلها؛ بين بأسلوبه أن ما أصاب الحياة البشرية من تخبط وفساد، ومن تدهور وانهيار، ومن تهديد بالدمار والبوار، سببه الأنظمة البشرية التي لا توافق تكوين الإنسان فقادت البشرية نحو الهاوية وهي تحسب أنها ترتقي بها في سلم التقدم.

وهذا ما دعا (إدغار موران) إلى الدعوة إلى الإقلاع عن السير في هذا الطريق المؤدي إلى الهاوية، وضرورة تغيير الطريق وبداية خطوات جديدة في اتجاه جديد[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: هل نسير إلى الهاوية له (ص١٧ ـ ١٨)

المطلب الثالث

آثار الوصل بين التكوين والتكليف في حفظ كرامة المرأة

ولما جمعت الأمة بين أمر التكوين وأمر التكليف، وقاها الله شر التخبط والاضطراب، وذلك لأنها استمدت منهج تعاملها مع المرأة من خالق المرأة، المكلفِها بما ينسجم مع تكوينها، وبما يحقق كرامتها وصلاح المجتمع من خلالها، فإن الذي خلقها في تلك الصورة الجميلة اللطيفة، وخلق في الرجل ميولا جارفا إليها، هو الذي أمرها بالتستر، ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾(١) وكلف الرجل بغض البصر، ﴿قُل لِّلْمُومِنِينَ يَغُضُّواْ مِنَ اَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ أَللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(٢) وحرم استغلال المرأة في ما يخدش كرامتها، ﴿وَلاَ تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى أَلْبِغَآءِ اِنَ اَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ أَلْحَيَوٰةِ أَلدُّنْيا﴾(٣).

«والذي جعل من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وترضع تكوينيا، هو الذي كلف المرأة وجعل عملها الأصلي في البيت لتكفل ثمرة الاتصال بينها

---

(١) [سورة النور آية ٣١]

(٢) [سورة النور آية ٣٠]

(٣) [سورة النور آية ٣٣]

وبين الرجل، وتربي الأجيال التي تقيم الدول والحضارات... وهي وظائف ضخمة أولا وخطيرة ثانيا. وليست هينة ولا يسيرة، بحيث تؤدى بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأنثى! فكان عدلا كذلك أن ينوط بالشطر الثاني - الرجل - توفير الحاجات الضرورية. وتوفير الحماية كذلك للأنثى كي تتفرغ لوظيفتها الخطيرة، ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل... ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آن واحد[1]!».

إلى غير ذلك من الأحكام التكليفية التي ترفع قدر المرأة وتعلي شرفها، وتحقق لها كرامتها في الدنيا والآخرة مما لا يتسع له هذا البحث.

❁ ❁ ❁

(١) في ظلال القرآن في ظلال القرآن (٢/ ٦٥٠) بتصرف

المبحث الخامس
أثر التكوين والتكليف
في تزكية العبد والعودة به
إلى ربه طيبا طاهرا

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التزكية التكليفية.

المطلب الثاني: التزكية التكوينية.

المبحث الخامس
أثر التكوين والتكليف في تزكية العبد والعودة به إلى ربه طيبا طاهرا

أستهل هذا المبحث بما أشرت إليه في ختام المبحث السابق وهو أن كرامة الإنسان ذكرا أو أنثى لا تحدها الدنيا، بل إن الكرامة الحقيقية، بل لا كرامة لابن آدم إلا عند دخول دار الكرامة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾(١) وقال عز من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾(٢).

لكن كيف يحقق الانسان لنفسه هذه الكرامة؟ ويجنبها مهاوي الذل والتدسية والإهانة، هذا ما سأتناوله في هذا المبحث.

فالله عز وجل خلق الإنسان مكرما على الفطرة الطيبة الطاهرة المزكاة، وأمرهم بالحفاظ على هذه الفطرة حتى يرجعوا إلى الجنة مكرمين، وهي مأواهم الأصلي الذي خلقهم الله فيه.

فحي على جنات عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم(٣)

---

(١) [سورة الصافات آية ٤١-٤٣]

(٢) [سورة المعارج آية ٣٤-٣٥]

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٤٢)

ولكن الجنة لا يدخلها إلا الطيبون يقول عز وجل: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾(1) ويقول عز من قائل: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(2).

ولما كان الإنسان في هذه الدنيا معرضا للفتنة والابتلاء، الأمر الذي يجعل عوامل التدنيس والتدسية تتسرب إلى الفطرة الطاهرة التي خلق عليها، جعل الله للعباد - رحمة بهم - عوامل التطهير والتزكية التي تجعل النفس طيبة طاهرة مؤهلة للعودة إلى وطنها الأصلي؟ وهي من حيث أنواعها كثيرة، لكن هذه الأنواع تنقسم إلى قسمين كبيرين هما **التزكية التكليفية والتزكية التكوينية**، فأما التزكية التكليفية فمحلها دار التكليف الدنيا، وأما التزكية التكوينية، فمن رحمة الله أن جعلها تمتد إلى الآخرة.

❁ ❁ ❁

(1) [سورة الزمر آية 70]

(2) [سورة النحل آية 32]

المطلب الأول

التزكية التكليفية

والتزكية التكليفية هي المقصد الأساسي لبعث الرسل وإنزال الكتب، يقول عز وجل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١).

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهر نفوسهم من الأخلاق الذميمة، وينزع منها تلك العادات الرديئة، ويعودها الأعمال الحسنة التي تطبع في النفوس ملكات الخير، ويبغض إليها القبيحة التي تغريها بالشر(٢).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٣).

وهذه التزكية يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الطاعات والعبادات:

وأعني أن هذه التزكية والتطهير تكون بجميع الأعمال التعبدية، وهي كثيرة، إلا أن بعضها أقوى وأشد تأثيرا من بعض، وأعظمها أثرا الإيمان والتوحيد،

---

(١) [سورة البقرة آية ١٢٨]

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٨٩)

(٣) [سورة آل عمران آية ١٦٤]

فالإيمان هو الأس والأصل الأصيل، الذي من دونه يستحيل التطهير والتزكية، كما تكون بالتوبة والاستغفار والذكر وغير ذلك من الطاعات والعبادات المفروضة والمسنونة كالصلاة والزكاة والصوم والحج وهلم جرا[1]، وفي هذه التزكية يقول المولى عز من قائل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[2] ويقول عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3] والآيات في هذه المعاني كثيرة وإنما القصد في سوق بعضها للتمثيل لا الحصر.

القسم الثاني: الكفارات:

قال المناوي «والكفارة لغة من الكفر الستر، وشرعا ما وجب على الجاني جبرا لما منه وقع، وزجرا عن مثله»[4].

والكفارات أنواع كثيرة منها كفارات الأيمان وكفارة الظهار، والجماع في رمضان وغير ذلك كثير[5] والمقصود بها تطهير العبد من الخطيئة التي اقترفها بفعل محرم أو ترك واجب.

(١) يراجع كتاب: بشارة المحبوب بتكفير الذنوب، لعبد الرحمن بن خليل بن سلامة، ويعرف بابن الشيخ خليل (المتوفى: ٨٦٩هـ) تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، نشر: مكتبة القرآن، القاهرة

(٢) [سورة هود آية ١١٤]

(٣) [سورة التوبة آية ١٠٤]

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٢٨٢)

(٥) انظر كتاب: الكفارات. أسباب وصفات سعيد عبد العظيم

القسم الثالث: الحدود والتعزيرات:

وهي نوع من الكفارات(١) كما ورد في الصحيحين، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان شهد بدرا وهو أحد النقباء ليلة العقبة: أن رسول الله ﷺ قال، وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه» فبايعناه على ذلك»(٢).

وقد مر ذكر الحدود والتعزيرات في الفصل الثالث، عند ذكر علاقة الثواب والعقاب، وليس إيرادي إياه هنا من باب التكرار، بل لأن العقوبة في الشريعة الإسلامية تمتاز عن القوانين الوضعية بخاصية في غاية الأهمية وهي أن العقوبة ليست عقوبة رادعة فحسب، بل هي عقوبة وفي الوقت نفسه كفارة أو كما قال الفقهاء الحدود زواجر وجوابر.

قال الشاطبي رحمه الله متحدثا عن مصلحة العقوبات: «إن المصلحة ليست الازدجار فقط، بل ثم أمر آخر وهو كونها كفارة؛ لأن الحدود كفارات

---

(١) قال البزدوي ولنا أن الكفارات شرعت ماحية للآثام الحاصلة بارتكاب أسبابها وفيها معنى العقوبة والزجر أيضا لما عرف، وكذا الحدود شرعت عقوبة وجزاء على الجنايات التي هي أسبابها وفيها معنى الطهرة أيضا بشهادة صاحب الشرع (كشف الأسرار شرح أصول البزدوي (٢/ ٢٢١)

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٣) كتاب الإيمان، باب: علامة الإيمان حب الأنصار رقم الحديث: ١٨

لأهلها، وإن كانت زجرا أيضا عن إيقاع المفاسد»[1]، فهي تكفر الذنب وتطهر الجاني من جرمه، وهكذا يلقى ربه طاهرا من تلك الجناية، ولهذا فلا نستغرب عندما نشاهد في التاريخ الإسلامي الجاني يسوق نفسه إلى الحاكم، يلتمس منه أن يطهره من آثام جريمته، حتى ولوكان هذا التطهير مقابل حياته الدنيوية[2].

وإذا كان ما سبق يتعلق بآثار التكليف في تطهير العبد وتزكيته حتى تعرج روجه إلى ربه طاهرة طيبة فما آثار التكوين في ذلك هذا ما سأتطرق إليه في المطلب الموالي.

---

(١) الموافقات (٢/ ٨٥)

(٢) انظر صحيح مسلم (٣/ ١٣٢١) كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى رقم الحديث (١٦٩٥)

المطلب الثاني

التزكية التكوينية

الله تبارك وتعالى كما يزكي عبده بأوامره التشريعية التكليفية، التي للعبد خيار في الإتيان بها، أو الامتناع منها، يزكيه كذلك بأمر التكوين الذي لا مندوحة للعبد منه، ولا خيار له معه، وهذا رحمة من الله بعباده، فإن من العباد من قصر في طاعة ربه، فلم تف عباداته وطاعاته بطهارته وتزكية نفسه، فيكون في حاجة إلى مطهر غيرها. ليكون مؤهلا لملاقاة ربه في الجنة بقلب سليم ونفس طاهرة مزكاة.

وهذه التزكية التكوينية يمكن تقسيمها حسب مراحلها إلى خمسة أقسام:

القسم الأول: التزكية التكوينية في الدنيا:

وتكون بالأقدار المؤلمة والمصائب الدنيوية، وكل ما يصيب العبد قليلا كان أو كثيرا كما روى أبو سعيد الخدري، وأبو هريرة: عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه»[1] يقول عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا

(١) صحيح البخاري (٧/ ١١٤) كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم الحديث: (٥٦٤١)

إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[١].

وقد اتفق العلماء على أن المصائب مكفرات ومطهرات، سواء قرنت بالصبر والرضا أو لم تقترن بهما، قال القرافي: «المصائب كفارات جزما، سواء اقترن بها الرضا أم لا، لكن إن اقترن بها الرضا عظم التكفير، وإلا قل»[٢] وقال ابن حجر: والتحقيق أن المصيبة كفارة لذنب يوازيها وبالرضا يؤجر[٣] على ذلك فإن لم يكن للمصاب ذنب عوض عن ذلك من الثواب بما يوازيه»[٤]، وأعظم هذه المصائب نزع الروح، سكرات الموت، وهي العَصرة الأخيرة للمؤمن الصالح في هذه الدنيا التي يتقطر بها ما تبقى من دنسه، فترتقي روحه وقد تطهر من ذنوبه كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الموت كفارة لكل مسلم»[٥].

(١) [سورة البقرة آية ١٥٤-١٥٦]
(٢) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ١٠٥)
(٣) اختلفوا في الأجر فذهب العز بن عبد السلام إلى أنه لا أجر على المصيبة في حد ذاتها، لأنها ليست من كسب العبد وعمله إنما الثواب على صبره ورضاه، أنظر تأصيله النفيس في (قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ١٣٥) وخالفه ابن حجر انظر أدلته السنية في (فتح الباري (١٠/ ص ١٠٥وص ١١٠)
(٤) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ١٠٥)
(٥) شعب الإيمان (١٢/ ٢٤٦) فصل في ذكر ما في الأوجاع والأمراض والمصيبات من الكفارات، رقم الحديث (٩٤٢٠) وذكره السيوطي في الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة (ص: ١٩٣) وقال: صححه أبو بكر بن العربي. وقال العراقي في أماليه: إنه =

القسم الثاني: التطهير التكويني في البرزخ:

عذاب القبر حق، وهو للمؤمن تمحيص وتطهير، وقد صح ذلك عن النبي ﷺ في غير ما حديث، من أوضحها وأصحها حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي ﷺ على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان من كبير» ثم قال: «بلى أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما أحدهما فكان لا يستتر من بوله» قال: ثم أخذ عودا رطبا، فكسره باثنتين، ثم غرز كل واحد منهما على قبر، ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»[1].

وقد بوب الإمام القرطبي في التذكرة بقوله: باب ما يكون منه عذاب القبر واختلاف أحوال العصاة فيه بحسب اختلاف معاصيهم[2].

كما ذكر ابن القيم أن التطهير والتمحيص يقع كذلك بفتنة القبر وضمته والانتهار، وتوابع ذلك[3].

فتبين من كل ذلك أن فتنة القبر من عوامل التطهير والتزكية التكوينية، لتطييب المؤمن وإعداده لمثواه الأخير.

= ورد من طريق يبلغ بها رتبة الحسن. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات فأخطأ، والله أعلم

(١) صحيح البخاري (٢/ ٩٩) كتاب الجنائز، باب عذاب القبر من الغيبة والبول رقم الحديث: (١٣٧٨) وصحيح مسلم (١/ ٢٤٠) كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم الحديث: (٢٩٢)

(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ٣٩٢)

(٣) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٦٢)

القسم الثالث: التطهير التكويني يوم الحساب:

ومن لم تف ضمة القبر وفتنته بتطهيره طهر في عرسات يوم القيامة، بما يناله فيه من الأهوال العظام، والأمور الجسام، ومن الخوف والفزع الأكبر، وشدة الحر، مما نطق به الكتاب، وتواترت به الأحاديث.

عن المقداد بن الأسود، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل» ـ قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين ـ قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما» قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه»[1].

وهذا الهول والعذاب يكون بالنسبة للمؤمن بقدر جرمه وما يحتاج إليه من التطهير والتزكية والتمحيص، بينما الصالحون الطيبون الممحصون بما سبق، يكونون تحت ظل الرحمن، ويدخلون الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب.

القسم الرابع: التطهير التكويني الأخير:

وأقصد به دخول النار ـ أجارنا الله منها ـ من غير الخلود فيها، فإن العبد إن لم يف ما سبق «بتمحيصه فلا بد له من دخول الكير، رحمة في حقه ليتخلص ويتمحص، ويتطهر في النار، فتكون النار طهرة له وتمحيصا لخبثه، ويكون مكثه

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٦) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، رقم الحديث: (٢٨٦٤)

فيها على حسب كثرة الخبث وقلته، وشدته وضعفه وتراكمه، فإذا خرج خبثه وصفي ذهبه، وصار خالصا طيبا، أخرج من النار، وأدخل الجنة[١].

عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «ليصيبن أقواما سفع من النار، بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته، يقال لهم الجهنميون»[٢].

وحاصل الكلام في هذا الفصل أن للتكوين والتكليف إذا اقترنا وترابطا، أثرا بالغا في صلاح الكون والإنسان، كما لهما إذا انفصلا وتناقضا أثر سيئ عليهما، وأن الكون والإنسان لا تستقيم لهما الحياة، ولا يتحقق لهما الصلاح، إلا بأمر الله التكويني، والتكليفي، ولا غنى لهما عن أي أحد منهما، وإن تصور الإنسان بسبب جهله وظلمه أنه قد يستغني عن أمر الله التكليفي، فيظل في طغيانه يعمه حتى يحيط به أمر الله التكويني فلا يجد له به قبلا، ولا منه مفرا ومهربا.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٦٣)

(٢) صحيح البخاري (٩/ ١٣٤) كتاب التوحيد، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ رقم الحديث: ٧٤٥٠

الخاتمة

الخاتمة

في نهاية هذا البحث أنوه إلى أن خطاب التكوين وخطاب التكليف، يتميزان في القرآن الكريم بالترابط الشديد، وهذا ما يتضح من خلال تأملي للمصطلحات والتعبيرات القرآنية، المتضمنة لمفهومي التكوين والتكليف.

وأن دراسة هذه المصطلحات والمفاهيم القرآنية دراسة مصطلحية، مع رصد صيغها وضمائمها وسياقات ورودها، يفتح أبوابا واسعة للفهم السديد، واستكشاف كثير من الأسرار والمقاصد القرآنية الكامنة في الجمع والمزج بين المفهومين في العديد من مصطلحاته وتعبيراته.

كما ينكشف هذا الترابط المتين بين التكوين التكليف، من خلال شبكة من العلاقات الجامعة بينهما، وما تتصف به من انسجام وتناسق، يتجلى في كون المخلوقات التي لها طبيعة أرضية واحدة يدبرها الله بأمره التكويني، والإنسان المتميز بطبيعتين أرضية وسماوية، مخاطب بالأمرين، التكويني والتكليفي، كما يتجلى هذا التناسق والانسجام من خلال الآيات التي تقرن بين الموارد التكوينية المادية التي يرسلها الله لتغذية الجانب التكويني في الإنسان كالرياح والغيث، وبين الموارد التكليفية المعنوية التي يرسلها الله لتغذية الجانب الروحي في الإنسان كالرسل والكتب، كما تتجلى في مناسبة هذا التكليف لقدرة الإنسان وطبيعته وتكوينه.

كما تتصف هذه العلاقات بين التكوين والتكليف، بالتكامل لتأهيل الإنسان إلى مقام الخلافة وعمارة الأرض والسمو إلى التكريم الأبدي، بدل أن

يترك لقواه التكوينية الطائشة الهائجة، التي تدفعه لاتباع الشهوات وسفك الدماء، والإخلاد إلى الأرض.

كما تتميز هذه العلاقة بالتوازن، فالبواعث التكوينية في الإنسان تتوازن بشكل دقيق مع البواعث التكليفية، وهو عامل أساسي وراء الاستقرار النفسي لدى الإنسان المسلم، والاستقرار الاجتماعي لدى المجتمع الذي يطبق التشريع الإسلامي، ويستجيب لتكاليفه.

كما تتميز هذه العلاقة الوطيدة بكون كلا من التكوين والتكليف يفضي أحدهما إلى الآخر؛ إفضاء الدليل إلى المدلول، عن طريق العلاقة الاستدلالية، أو إفضاء المقدمة إلى النتيجة عن طريق الاستنباط، أو إفضاء السبب إلى المسبب. من خلال العلاقة الجزائية السببية.

وهذه العلاقات لا شك تنتج آثارا طيبة في حالة قيامها بين الأمر التكويني والأمر التكليفي، تتجلى في ذيوع السلام والرحمة في الكون، والصلاح في البيئة الأرضية والبحرية والجوية، وتحقق الكرامة للإنسانية.

بينما ينعكس اختلال هذه العلاقة، على الكون فيظهر الفساد في الحرث والنسل والبيئة البحرية والبرية والجوية، كما ينعكس هذا الخلل في العلاقات الإنسانية، بل في علاقة الإنسان الواحد مع نفسه.

وأن الخلل الواقع في الحياة على مستوى النفس البشرية، وعلى مستوى البيئة، وعلى المستوى الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، ما هو إلا مظهر من مظاهر هذا الخلل في طبيعة العلاقة بين التكوين والتكليف.

وأخيرا أقرر:

أن الله خلق الخلق وأنزل الشرع وجعل خلقه مناسبا لشرعه، كما جعل الشرع مناسبا للخلق.

أن التكوين والتكليف ما هما إلا صفحتا ورقة واحدة، غير مرقمة، تكمل كل واحدة منهما ما بدأته الأخرى، فكلاهما مكملة وبادئة.

وأنه لا سبيل لفك رموز التكوين واكتشاف سننه واستثمارها بما يحقق الخير للبشرية، إلا بالاهتداء بإرشادات التكليف.

ولا سبيل لفهم خطاب التكليف، فهما سديدا منسجما، مع مقتضيات الحياة الإنسانية، إلا مع النظر إليه في إطار الحقائق التكوينية.

أن التكوين والتكليف طرفان لأمر واحد هو أمر الله استبد الله بتنفيذ طرف منه، واستخلف الإنسان على تنفيذ الطرف الآخر، فإن نُفِّذا صلح الأمر، وإذا تمرد الإنسان عن تنفيذ ما كلف به وحُمِّله، اختل التوازن، واستشرى الفساد.

وأن الخلل والفساد إنما يتسرب إلى الكون من خلال المجال الذي وكل إلى الإنسان وترك لخياره، وجعل أمانة تحت مسؤوليته.

وهذا آخر ما خط القلم وأسأل الله أن يقيل العثرات ويعفو عن الهفوات وأن يعلمنا ما جهلنا ويهدينا إلى الحق، إنه الجواد الكريم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلما تسليما والحمد لله رب العالمين.

جريدة المصادر والمراجع

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأبيات الشعرية

فهرس الموضوعات

جريدة المصادر والمراجع

مرتبة على حروف المعجم

١. **أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة**، عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

٢. **أحكام القرآن**، أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، تح محمد عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٣. **أحكام القرآن**، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ) تح: محمد صادق القمحاوي ـ عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف، الناشر: دار إحياء التراث، العربي ـ بيروت، تاريخ الطبع: ١٤٠٥هـ.

٤. **الإحكام في أصول الأحكام**، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، تح: الشيخ أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٥. **أحوال الأحكام الشخصية للمسلمين في الغرب**، د. سالم بن عبد العلي الرافعي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٦. **آراء المعتزلة الأصولية**، دراسة وتقويما: د علي بن سعد بن صالح الضويحي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة الألى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٧. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** (تفسير أبي السعود) أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ) دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٨. **أزمة الحضارة الغربية والبديل الإسلامي**، د. عبد القادر طاش، كتاب المختار بدون أية معلومات أخرى.

٩. **أساس البلاغة**، الزمخشري، (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١٠. **الإسلام بين الشرق والغرب**، علي عزة فيكوفيتش، ترجمة: محمد يوسف عدس، مؤسسة العلم الحديث، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤.

١١. **الإسلام لعصرنا**، جعفر شيخ إدريس، مقالات نشرها مركز الدراسات والبحوث لمجلة البيان الكتاب: ١٨٦

١٢. **الأشباه والنظائر**، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٣. **الأشباه والنظائر**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

١٤. **أصول الدين**، جمال الدين أحمد بن محمد بن سعيد الغزنوي الحنفي (المتوفى: ٥٩٣هـ) تح: الدكتور عمر وفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية ــ بيروت ــ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١٥. **أصول السرخسي**، محمد بن أحمد السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ)، دار المعرفة - بيروت.

١٦. **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** الإمام محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع ودار السلام، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٧. **أصول الوصول إلى الله تعالى**، محمد حسين يعقوب، المكتبة التوفيقية، القاهرة، الطبعة: الثانية.

١٨. **الأصول في النحو**، أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج (المتوفى: ٣١٦هـ) تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان ـ بيروت.

١٩. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٠. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الجيل ـ بيروت، ١٩٧٣، تح: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة، الطبعة: ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٢١. **الإنسان ذلك المجهول**، ألكسيس كاريل، تعريب: شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت لبنان، الطبعة الأولى المجددة، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣

٢٢. **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، جابر بن موسى بن أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٣. **الإيمان بالقدر**، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٢٤. **بحر العلوم**، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر ـ بيروت.

٢٥. **البحر المحيط في أصول الفقه**، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي

(المتوفى: ٧٩٤هـ) تح: محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٦. **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ) تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

٢٧. **البرهان في أصول الفقه**، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨هـ)، تح: صلاح بن محمد بن عويضة، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٢٨. **بشارة المحبوب بتكفير الذنوب**، لعبد الرحمن بن خليل بن سلامة، ويعرف بابن الشيخ خليل (المتوفى: ٨٦٩هـ) تح: مجدي السيد إبراهيم، نشر: مكتبة القرآن، القاهرة.

٢٩. **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**، تقي الدين ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) تح: مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

٣٠. **تأويلات أهل السنة**، (تفسير الماتريدي) محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ) تح: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٣١. **التحبير شرح التحرير في أصول الفقه**، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الحنبلي (المتوفى: ٨٨٥هـ) تح: د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، مكتبة الرشد - السعودية/ الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٣٢. **التحرير والتنوير** المعروف بتفسير ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

٣٣. **التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة**، أبو عبد الله محمد بن أحمد الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تح: الدكتور: الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ.

٣٤. **التسهيل لعلوم التنزيل**، أبو القاسم، محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ) تح: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ بيروت، الطبعة: الأولى ـ ١٤١٦هـ.

٣٥. **التصور الفني في القرآن**، سيد قطب (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق، الطبعة: ١٧.

٣٦. **التَّفْسِيرُ البَسِيْط**، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) تح: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، عمادة البحث العلمي ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ.

٣٧. **تفسير الشعراوي**: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم، (ليس على الكتاب الأصل ـ المطبوع ـ أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام ١٩٩٧ م).

٣٨. **تفسير الفاتحة والبقرة**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

٣٩. **تفسير القرآن الحكيم** (تفسير المنار) محمد رشيد رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٠م.

٤٠. **تفسير القرآن العظيم**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٤١. **التفسير الكاشف**، جواد مغنية العاملي، (شيعي) (توفي ١٤٠٠هـ) دار الكتب للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٩٠م.

٤٢. **التفسير المظهري**، محمد ثناء الله المظهري تح: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية - الباكستان، الطبعة: ١٤١٢هـ.

٤٣. **تفسير عبد الرزاق الصنعاني**، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ) دار الكتب العلمية، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية - بيروت.، الطبعة: الأولى، سنة ١٤١٩هـ.

٤٤. **تفسير مجاهد**، أبو الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي (المتوفى: ١٠٤هـ) تح: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٤٥. **تفسير مقاتل بن سليمان**، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (المتوفى: ١٥٠هـ) تح: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣هـ.

٤٦. **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان ١٩٨٣م.

٤٧. **التفكر والاعتبار بآياتِ الكسوف والزلازل والإعصار**، لأبي محمد عبد الكريم بن صالح بن عبد الكريم الحميد نشرته فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٤٨. **تلبيس إبليس**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٤٩. **تهذيب اللغة**، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، (المتوفى: ٣٧٠هـ) تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

٥٠. **التوقيف على مهمات التعاريف**، زين الدين محمد المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، عالم الكتب، عبد الخالق ثروت - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٥١. **جامع البيان في تأويل القرآن**، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٥٢. **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه** (صحيح البخاري) محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٣. **جمهرة اللغة**، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ) تح: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

٥٤. **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي** أو الداء والدواء، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) دار المعرفة - المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٥٥. **الحجاب**. أبو الأعلى المودودي، تعريب محمد كاظم السباق، دار الفكر بدمشق، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

٥٦. **حركات تحرير المرأة من المساواة إلى الجندر** دراسة إسلامية نقدية، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٥٧. **الخصائص**. أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب. الطبعة: الرابعة

٥٨. **الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار**، محمد بن علي بن محمد الحِصْني المعروف بعلاء الدين الحصكفي الحنفي (المتوفى: ١٠٨٨هـ) تح: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٥٩. **الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة**. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) تح: الدكتور محمد بن لطفي الصباغ، عمادة شؤون المكتبات ـ جامعة الملك سعود، الرياض.

٦٠. **دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون**، القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري، حققه وعرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص رح، الكتب العلمية ـ لبنان/ بيروت ـ ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى.

٦١. **رد المحتار على الدر المختار** (٦/ ٣٨٧) حاشية ابن عابدين، محمد أمين الدمشقي الحنفي (المتوفى: ١٢٥٢هـ) دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض. طبعة خاصة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٦٢. **الرسالة التبوكية** (زاد المهاجر إلى ربه) محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) تح: د. محمد جميل غازي، مكتبة المدني ـ جدة.

٦٣. **رعاية البيئة في شريعة الإسلام**. د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٦٤. **روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية**، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الثالثة، ٢٠١٣.

٦٥. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٦٦. **زاد المسير في علم التفسير**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة: الأولى ـ ١٤٢٢هـ.

٦٧. **زاد المعاد في هدي خير العباد**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٦٨. **السبق التربوي: مفهومه ومنهجه ومعالمه في ضوء النهج الإسلامي**، خالد بن حامد الحازمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: السنة السادسة والثلاثون ـ العدد (١٢٣) ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

٦٩. **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، بين ١٤١٥هـ ـ ١٤٢٢هـ.

٧٠. **سنن ابن ماجه**، أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة القزويني، (المتوفى: ٢٧٣هـ) تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي

٧١. **سنن أبي داود**، أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت

٧٢. **سنن الترمذي**، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، (المتوفى: ٢٧٩هـ) تح: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٧٣. **السياسة الشرعية**، تقي الدين تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٧٤. **شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك**، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (المتوفى ١١٢٢) دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ.

٧٥. **شرح الكوكب المنير**، تقي الدين أبو البقاء محمد الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي (المتوفى: ٩٧٢هـ) تح: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٧٦. **شرح سنن ابن ماجه - الإعلام بسنته عليه السلام**، أبو عبد الله، مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحكري الحنفي، علاء الدين (المتوفى: ٧٦٢هـ) تح: كامل عويضة، تح: مكتبة نزار مصطفى الباز — المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٧٧. **شرح صحيح البخاري لابن بطال**، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك ابن بطال

(المتوفى: ٤٤٩هـ) تح: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد ــ السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٧٨. **شرح مختصر الروضة**، أبو الربيع سليمان بن عبد القوي نجم الدين الطوفي (المتوفى: ٧١٦هـ) تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٧٩. **شريعة الله يا ولدي**، محمود محمد غريب، المطبعة السلفية ــ القاهرة، الطبعة: الأولى - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٨٠. **شعب الإيمان**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تح: محمد السعيد بسيوني زغلول دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٨١. **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٨٢. **شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل والمسالك والتعليل**، حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، المتوفى (٥٠٥) تحقيق د. حمد الكبيسي، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٣٩٠هـ ١٩٧١م.

٨٣. **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**، نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (المتوفى: ٥٧٣هـ) تح: د. حسين بن عبد الله العمري ومطهر بن علي الإرياني ود. يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر بيروت. دار الفكر دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م.

٨٤. **الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، عوامل الشهود الحضاري**، د. عبد المجيد عمر النجار، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٨٥. **الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، فقه التحضر الإسلامي** د. عبد المجيد عمر النجار، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٨٦. **الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، مشاريع الإشهاد الحضاري**، د. عبد المجيد عمر النجار، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٨٧. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ) تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ــ بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٨٨. **صحيح أبي داود**، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٨٩. **صحيح الجامع الصغير وزياداته**، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي

٩٠. **ظاهرة الصراع في الفكر الغربي بين الفردية والجماعية**، د. أبو زيد بن محمد مكي، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٩١. **العالم الإسلامي في عصر العولمة**، د عبد العزيز التويجري، دار الشروق، ٢٠٠٤م.

٩٢. العبادة في الإسلام، د يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، الطبعة الحادية والعشرون، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٩٣. **العبودية**، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) تحقيق محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة السابعة المجددة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٩٤. **العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ**، محمد الأمين بن محمد المختار بن

عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) تح: خالد بن عثمان السبت، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ.

٩٥. **العقل والعلم في القرآن الكريم**، د. يوسف القرضاوي ضمن سلسلة التفسير الموضوعي للقرآن، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٩٦. **العقيدة النظامية، في الأركان الإسلامية**: لإمام الحرمين أبي المعالي عبد المالك بن عبد الله الجويني، (ت٤٧٨هـ) تحقيق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٩٧. **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى: ٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٩٨. **فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى**، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تح: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، نشره غراس، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٩٩. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) تح: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وذكر أطرافها: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر (مصور عن الطبعة السلفية).

١٠٠. **الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب**، دراسة في التدافع الاجتماعي، د. فريد الأنصاري، دار السلام، الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

١٠١. **الفروق اللغوية**، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ـ مصر.

١٠٢. **فصول البدائع في أصول الشرائع**، محمد بن حمزة بن محمد، شمس الدين الفناري الرومي (المتوفى: ٨٣٤هـ) تح: محمد حسين محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٠٣. **الفكرة السنية والحاجة إليها**، محمد إسحاق الصديقي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العدد الستون ـ شوال ـ ذو القعدة ـ ذو الحجة ١٤٠٣هـ.

١٠٤. **في ظلال القرآن**، سيد قطب (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق ـ بيروت ـ القاهرة، الطبعة: السابعة عشر ـ ١٤١٢هـ.

١٠٥. **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي (المتوفى: ١٠٣١هـ) المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ.

١٠٦. **قاعدة جامعة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة**، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ) تح: عبد الله بن محمد البصيري، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولي، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٠٧. **القاموس المحيط**، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٠٨. **القرآن الكريم برواية ورش**، دار ابن كثير الطبعة الأولى: ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

١٠٩. **القرآن الكريم، النسخة الرقمية**، صيغة الـ(Word) برواية ورش عن نافع.

١١٠. **قصة الحضارة وول ديورانت** (عصر فولتير) الجزء الثاني من المجلد التاسع ترجمة محمد علي أبو درة، مراجعة علي أدهم، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، جامعة الدول العربية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس. ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١١١. **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ) راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، طبعة: ١٤١٤هـ - ١٩٩١م.

١١٢. **القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة**، د. محمد مصطفى الزحيلي. دار الفكر - دمشق. الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١١٣. **كتاب التعريفات**، علي بن محمد الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) تح: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١١٤. **كتاب التلخيص في أصول الفقه**، أبو المعالي، عبد الملك بن عبد الله الجويني، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨هـ) تح: عبد الله جولم النبالي وبشير أحمد العمري، دار البشائر الإسلامية - بيروت.

١١٥. **كتاب العين**، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) تح: د. مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

١١٦. **الكتاب المقدس**، دار المشرق، بيروت، التوزيع المكتبة الشرقية، جمعيات الكتاب المقدس في المشرق، الطبعة الثالثة: ١٩٨٨م.

١١٧. **كتاب خلق الإنسان**، أبو محمد ثابت بن أبي ثابت، تح: عبد الستار أحمد فراج، وزارة الإعلام الكويت ضمن سلسلة التراث العربي، طبعة ثانية مصورة، ١٩٨٥م.

١١٨. **الكتاب**، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١١٩. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، أبو القاسم محمود بن عمرو، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة: الثالثة ـ ١٤٠٧هـ.

١٢٠. **كشف الأسرار شرح أصول البزدوي**، عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري الحنفي (المتوفى: ٧٣٠هـ)، دار الكتاب الإسلامي.

١٢١. **الكفارات. أسباب وصفات**، سعيد عبد العظيم، دار الإيمان، بدون أي معلومات أخرى.

١٢٢. **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ) تح: عدنان درويش ـ محمد المصري، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

١٢٣. **لطائف الإشارات** (تفسير القشيري) عبد الكريم بن هوازن القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ) تح: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مصر، الطبعة: الثالثة

١٢٤. **الله يتجلى في عصر العلم**، نخبة من العلماء الأمريكيين، أشرف على تحريره جون كلوفر مونسيما، ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، راجعه وعلق عليه، الدكتور جمال الدين الفندي. دار القلم.

١٢٥. **لوامع الأنوار البهية، وسواطع الأسرار الأثرية، لشرح الدرة المضية، في عقد الفرقة**

المرضية، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨هـ)، مؤسسة الخافقين ومكتبتها ــ دمشق، الطبعة: الثانية ــ ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م.

١٢٦. **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، مكتبة الإيمان، المنصورة - مصر، طبعة شرعية جديدة منقحة ومحققه ومزيدة.

١٢٧. **المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين**، لسيف الدين الآمدي (ت ٦٣١ه) تحقيق الدكتور حسن محمود الشافعي، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٢٨. **مجلة الأزهر** جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ أبريل مايو ٢٠١٣م ج ٦ السنة ٨٦.

١٢٩. **مجلة البيان** (العدد: ٨ السنة ١٤٠٨هـ).

١٣٠. **مجلة الترتيل** خصائص النص القرآني وآفاق القراءة (العدد ٢ ذو القعدة ١٤٣٥هـ) الرابطة المحمدية، مركز الدراسات القرآنية.

١٣١. **مجمل اللغة**، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (المتوفى: ٣٩٥هـ) دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٣٢. **مجموع الفتاوى**، أبو العباس تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ) تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٣٣. **المحكم والمحيط الأعظم**، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ] تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ــ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٣٤. **مختار الصحاح**، أبو عبد الله زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٣٥. **مخطوطة الجمل - معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن**، حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ - ٢٠٠٨م.

١٣٦. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، **دار الكتاب** العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٣٧. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل** (تفسير النسفي) أبو البركات عبد الله بن أحمد حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ) حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، **دار الكلم الطيب**، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١٣٨. **المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، عبد القادر بن أحمد بن محمد بدران (المتوفى: ١٣٤٦هـ) تح: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ.

١٣٩. **المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها**، د. غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية - جدة، الطبعة: **الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م**.

١٤٠. **المرأة بين الفقه والقانون**، مصطفى السباعي، دار الوراق للنشر والتوزيع، والمكتب الإسلامي، الطبعة السابعة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٤١. **المستصفى**، أبو حامد محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) تح: محمد عبد السلام عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٤٢. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ) تح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث ـ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

١٤٣. **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم)** أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت

١٤٤. **المصباح المنير**، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، دراسة وتحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية

١٤٥. **المصطلحات الوافدة وأثرها على الهوة الإسلامية**، مع إشارة تحليلية لأبرز مصطلحات الحقيبة العولمية. الهيثم زعفان، مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية. مصر القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

١٤٦. **مظاهر تكريم الإنسان في القرآن الكريم**. الجزء الخامس من السلسلة القرآنية، د. الشاهد البوشيخي، مطبعة آنفو ـ برانت.

١٤٧. **معارج القدس في مدراج معرفة النفس**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٧٥

١٤٨. **معجزة خلق الإنسان بين الطب والقرآن** د. نبيه عبد الرحمن عثمان طبع مطابع رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة

١٤٩. **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار. دار الدعوة

١٥٠. **معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) تح: أ. د محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب ـ القاهرة/ مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٥١. **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، نشر: ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٥٢. **المغني في أبواب التوحيد والعدل**: للقاضي أبي الحسن عبد الجبار الأسدآبادي، (المتوفى ٤١٥هـ) تحقيق: د. محمود محمد قاسم، (جزء الإرادة) (دون معلومات أخرى).

١٥٣. **المغني لابن قدامة**، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، (المتوفى: ٦٢٠هـ) مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

١٥٤. **مفاتيح العلوم**، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الكاتب البلخي الخوارزمي (المتوفى: ٣٨٧هـ) تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، الطبعة: الثانية.

١٥٥. **مفاتيح الغيب** (التفسير الكبير) أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي فخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الثالثة ـ ١٤٢٠هـ.

١٥٦. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، الشيخ الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، ودار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

١٥٧. **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد الناشر: الجفان والجابي ـ قبرص، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ ـ ١٩٨٧، تح: بسام عبد الوهاب الجابي.

١٥٨. **الملل والنحل** أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ) تح: أمير علي مهنا، وعلي حسن فاعور، دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الثالثة: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

١٥٩. **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (المتوفى: ١٣٦٧هـ) مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة.

١٦٠. **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، لجنة من علماء الأزهر، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ مصر، طبع مؤسسة الأهرام، الطبعة: الثامنة عشر، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

١٦١. **المنثور في القواعد الفقهية**، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٦٢. **منظور الإسلام إلى المحافظة على البيئة**، د. عبد المجيد الطريبق منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١٦٣. **منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة**، تامر محمد محمود متولي، دار ماجد عسيري، الطبعة: الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٦٤. **منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام**. د. حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، نشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٦٥. **منهج القرآن في القضاء والقدر**، محمود محمد غريب الناشر: دار القلم للتراث ـ القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٦٦. **الموافقات**، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي

(المتوفى: ٧٩٠هـ) تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

١٦٧. **موت الغرب.** أثر شيخوخة السكان وموتهم، وغزوات المهاجرين، على الغرب. باتريك جيه بوكانن، نقله إلى العربية محمّد محمود التوبة، راجعه محمد بن حامد الأحمري، مكتبة العبيكان، الطبعة العربية الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٦٨. **الموسوعة السياسية**: المؤلف الرئيسي: عبد الوهاب الوكيلي، وشاركه محررون غيره، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الهدى للنشر والتوزيع.

١٦٩. **موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، وعباده المرسلين**، مصطفى صبري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١٧٠. **نشر البنود شرح مراقي السعود**، سيدي عبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي، مطبعة فضالة المحمدية المغرب.

١٧١. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، إبراهيم بن عمر بن البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

١٧٢. **الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية.** (شرح حدود ابن عرفة للرصاع)، أبو عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري، الرصاع التونسي المالكي (المتوفى: ٨٩٤هـ)، المكتبة العلمية، الطبعة: الأولى، ١٣٥٠هـ.

١٧٣. **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه.** أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ) تح: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي ـ جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، نشر: مجموعة

بحوث الكتاب والسنة ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

١٧٤. **هل نسير إلى الهاوية؟** إدكار موران، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق،، المغرب، ٢٠١٢م.

١٧٥. **الوَاضِح في أصُولِ الفِقه**، أبو الوفاء، علي بن عقيل البغدادي الظفري، (المتوفى: ٥١٣هـ) تح: الدكتور عبد الله بن عبد المُحسن التركي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

١٧٦. **الوحي والإنسان ــ قراءة معرفية**، محمد السيد الجليند، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة.

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	الصفحة
سورة البقرة		
﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً﴾	٩	٢٦٢
﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾	١٤	٢٠١
﴿يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾	٢٠	١٧٧
﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيراً﴾	٢٥	٢٤٩
﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾	٢٩	٢٧٤
﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾	٣١	٢٧٤
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾	٣٣	٣١٨،٣٥
﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾	٣٤	٣٠١
﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾	٤٢	٧٦
﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾	٦٢	١٠٩
﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾	٦٤	٤٥
﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾	٧٣	١٣٢

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾	١٠١	٨٤
﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ﴾	١٠٥	١٢٦
﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾	١١٦	٣٧
﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾	١٢٨	٣٣٩
﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾	١٣٧	١٥٣
﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾	١٤٢	٣٥
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا...﴾	١٤٢	٩٨
﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾	١٥١	٢٦٢
﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ﴾	١٥٣	٢٠٢
﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾	١٥٦	٣٤٣
﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ﴾	١٨٢	١٠٣
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾	١٨٥	٢٥٨، ٣١٩
﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾	٢١١	٨٣
﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾	٢٢٦	٧٦
﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾	٢٣١	٥٣، ٢٠١، ٢٣٢

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾	٢٣٥	١٢٦
﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾	٢٣٦	١٣١
﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾	٢٤٥	١٠٨
﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	٢٥٧	٢٥١
﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾	٢٦٣	٢٥١
﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ﴾	٢٦٨	١٠٩
﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ﴾	٢٧٩	٣٥، ٣٩
﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾	٢٨١	٣٩
﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾	٢٨٥	١٢٥
﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾	٢٨٥	٥٣، ٥٥، ١٥٦
سورة آل عمران		
﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾	١٤	٢٣٦، ٣٢٧
﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ﴾	٣٦	٣٠١
﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ﴾	٤٧	٣٧
﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ﴾	٥٨	٣٧

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ تَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾	٨٢	١١٤، ٢٩٠
﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾	٨٤	١١٤
﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾	٩٧	٧٧، ٧٨
﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾	٩٧	٣٦
﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾	١٠٤	٣٥
﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ﴾	١١٠	٣٦
﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾	١٣٢	١٢٣
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾	١٦٤	٣٣٩
﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾	١٧٨	٢٦٧
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾	١٩١	٢٩٣
سورة النساء		
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم﴾	١	١٩٣، ٣٠٠
﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾	٣	١٠٦
﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾	١١	٢٣٢
﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾	٢٧	٧٤، ٢٢١

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾	٣٢	٣٢٧
﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيراً﴾	٥٢	٢٢٣
﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمْرِ مِنكُمْ﴾	٥٨	٥٩
﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ﴾	٦٥	٢٤٨
﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾	٨٣	٥٣، ٥٥
﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾	٩٣	١٨١
﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾	١٠١	٣٥
﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾	١١٤	٢٥٩
﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾	١٢٧	٢١٦
﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾	١٥٤	٢٥٠
سورة المائدة		
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾	٤	٩٦
﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾	٤	٣١٨
﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾	٧	٧٤، ١٧٨
﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾	٧	١٧٨

الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾	١٧	٢٤٨
﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٣٣	١٠٧
﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾	٤٣	٧٣
﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾	٤٧	١٠٣
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	٥٢	١٥٣،١٥٠
﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾	٦٨	٢٧١
﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾	٧٩	٩٤
﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾	٩٩	٩٧
﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾	١٠٥	٩٧
﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾	١١٠	٢٥١
سورة الأنعام		
﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾	٧	٢٦٤،١٦٨
﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾	٥١	١٠٩
﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾	٣٧	١٠٧
﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾	٦٠	١٩٠

الآية	رقمها	الصفحة
﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾	٦٦	١٦٦
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾	٧٣	٣٨
﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾	١١١	٢٥١، ٢٥٩
﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾	١٢٦	٧٣
﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾	١٤٢	١٨٠
﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾	١٥٣	٥٢
سورة الأعراف		
﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾	٢٨	٨٦
﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾	٤١	٥٢
﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾	٥٣	١٤٩
﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾	٥٥	٢٩٤
﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾	٧٣	٢٩٥
﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾	٩٤	٢٦٥
﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ﴾	١٤٦	٢٥٣
﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا﴾	١٦٥	٢٧٢، ٢٧٤

الآية	رقمها	الصفحة
﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾	١٦٦	٤٥
﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾	١٧٢	١٩٤
﴿وَالذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾	١٨٢	٢٦٧
﴿إِنَّ ٱلذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْۖ﴾	١٩٤	١١٨
سورة الأنفال		
﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ﴾	٢٥	٢٧٣
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾	٢٩	٢٥٢
﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيا وَاللَّهُ يُرِيدُ ٱلْاخِرَةَۖ﴾	٦٨	٧٤
سورة التوبة		
﴿وَإِنَ اَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ إَسْتَجَارَكَ﴾	٦	١٠٦
﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾	٢٨	٧٩
﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۖ﴾	٦٧	٢٦٢
﴿فَلَمَّآ ءَاتيٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾	٧٨	٢٥٤
﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾	٨٤	٢٥٩
﴿خُذْ مِنَ اَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾	١٠٤	٣٤٠

الآية	رقمها	الصفحة
﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾	١٠٩	٢٥٩
﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَيٰهُمْ﴾	١١٦	٢٥٠
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾	١٢١	١٥٧
سورة يونس		
﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾	١٥	١٠٩
﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾	٢٢	١٩٧
﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾	٣١	١٩٦
﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾	٣٣	١٠٥
﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾	٣٤	١٨٩
﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾	٥٩	٨٤
﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾	٦٤	١٥٢
﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا﴾	١٠٢	٢٧٣
سورة هود		
﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾	٣٤	٧٢، ٧٣
﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾	٤٠	٧٥

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾	٤٤	٧٦
﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾	٨٢	٢٦٦
﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾	١٠٧	٧٢
﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾	١١٤	٣٤٠
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾	١١٧	٢٧٢
سورة يوسف		
﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾	١٠٠ و٨٣	١٥٥
سورة الرعد		
﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾	١٤	٢٦٥
﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾	١٦	١٢٩
سورة الحجر		
﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾	٦٦	٩٩
سورة النحل		
﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾	٣٢	٣٣٨

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾	٤٠	٣٨
﴿وَلِلهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾	٤٩	١٢٩
﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾	٦٤	١٦٩
﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾	٦٨	١٠٩
﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنَ أَنفُسِكُمُ أَزْوَاجاً﴾	٧٢	٣٠٣
﴿إِنَّ اللَّهَ يَامُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَنِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾	٩٠	٧٦
﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾	٩٣	٢٤٣، ٢٤٧
﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوُ انثَىٰ وَهُوَ مُومِنٌ﴾	٩٧	٢٥٣
﴿إِنَّ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ﴾	١٠٤	١٥١
﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾	١٢٦	٢٣٥
سورة الإسراء		
﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ فِي الْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ﴾	٤	٩٩
﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولِيهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ﴾	٥	١٠٧
﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾	٩	١٥٢
﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً اَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾	١٦	٨٠، ٨٦

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾	٢٣	١٠٠
﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾	٤٣	١٤٣، ١٩٧
﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾	٥٩	٢٩٤
﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾	٦٧	١٩٧
﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾	٧٠	٣١٨
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾	٧٠	٣٢٧
﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ﴾	٨٢	١٥٢
﴿وَكَانَ الْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾	١٠٠	٢١٦، ٢٢٣
﴿قُل لَّوَ اَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيَ﴾	١٠٠	١٢٣
سورة الكهف		
﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾	٧	١٥٥
﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾	٢٦	١٠١
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اِسْجُدُواْ ءَلِادَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾	٤٩	٨١
﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾	٥٥	١٦٣
﴿وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾	٥٦	١٢٦

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾	٥٨	٢٦٧
﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾	٦٩	٦٠

سورة مريم

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾	٢٨	٣٥
﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾	٣٤	٣٧، ١٠٨
﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾	٥٨	١٢٨
﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾	٦٥	٥٦
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾	٨٤	١٠٨
﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾	٩٤	١١٨، ١١٩، ٢٩٠

سورة طه

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾	١٣١	٢٣٣

سورة الأنبياء

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾	٩	٢٧٤
﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾	٣٧	٢١٥، ٢١٧
﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾	٩٤	٩٦

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾	١٠٤	١٠٢
﴿قُلْ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾	١١١	١٠١
سورة الحج		
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾	٥	١٩١
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾	٧	١٩٢
﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾	١٦	٧١
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾	١٨	٣٢٠
﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾	١٨	١٢٩، ٢٨٩
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾	٣٧	٨٤
﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾	٥٨	٢٠٠
﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾	٦٣	٨٤
سورة النور		
﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾	٣٠	٣٣٢
﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾	٣١	٣٣٢
﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ﴾	٣٢	٣٠٣

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾	٣٣	٣٣٢
﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾	٣٦	٨٤
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	٤٠	١٢٧، ٢٩٠
﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾	٦٠	٨٥
سورة المؤمنون		
﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾	٦٣	٥٢
سورة الفرقان		
﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾	١٧	١١٩
﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾	٤٣	٣٢١
﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾	٤٩	١٦٨
﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾	٦٣	١١٩
سورة النمل		
﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾	٩٠	١٥٣
سورة القصص		
﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾	١١	٩٥
﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾	٥٠	٢١٩

الآية	رقمها	الصفحة
سورة العنكبوت		
﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾	٤٠	٢٦٤
﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾	٦٧	٩٧
﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾	٦٩	١٧٦، ٢٤٨
سورة الروم		
﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾	٢٠	٣٠٠، ٣٠٢
﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾	٢١	١٠٤
﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾	٢٥	١٣١
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾	٢٩	١٨، ٧٨، ١٩٤
﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾	٢٩	١٥٢
﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم﴾	٤٥	١٦٣، ١٦٥
سورة لقمان		
﴿الٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾	١	١٠٥
﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾	٩	١٨٣
﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾	١٩	٣١٨

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الأحزاب		
﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾	٣١	١٣١
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾	٣٣	٧٤
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ﴾	٣٦	١٠٠
﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾	٣٧	٧٩
﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾	٥٢	٣٢٨
﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾	٦٢	٨٥
﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾	٧٢	٢١٨
سورة سبأ		
﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾	١٤	٩٩
﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا﴾	٣٧	٢٣٦
﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾	٥٠	٩٤
سورة فاطر		
﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾	٨	١٦٦، ٢٤٣، ٢٤٧
﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾	٢٨	١٣٢

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾	٤١	٢١١
سورة يس		
﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾	٨١	٣٨، ٧٦، ١٢٢
﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾	٨١	٣٨، ٣٩، ٧٠
سورة الصافات		
﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾	٤١	٣٣٧
﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾	١٤٤	٢٧١
سورة ص		
﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ﴾	٧١	٣١٧
﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ﴾	٧٤	٣١٥، ٣١٧
﴿قُلْ مَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾	٨٤	٥٣
سورة الزمر		
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾	٤	٢٥١
﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا﴾	١٠	١٣١
﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾	٢١	٣١٨

الآية	رقمها	الصفحة
﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾	٢٢	١٦٣
﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾	٣٦	١٩٦
﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾	٤٣	١٢٠
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾	٥٠	١٢٠
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾	٧٠	٣٣٨
سورة غافر		
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾	٢٨	٢٥٢
﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾	٣١	١١٩
﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾	٣٣	٩٤
﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾	٣٤	٩٤
﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾	٦٠	٢٥٨
﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا﴾	٦٨	٣٨
﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾	٧٣	٩٤
سورة فصلت		
﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾	١٠	١٢١

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾	١٢	٢٦٦
﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾	١٦	٩٣
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾	٣٨	١٦٤
﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾	٥٣	١٨٢
سورة الشورى		
﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾	١٩	٨٥
﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	٤٩	٩٣
سورة الزخرف		
﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾	٢	٩٧
﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾	١٧	٣٢٨
سورة الأحقاف		
﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾	٨	١٠٩
﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾	١٤	٢٠١
﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾	١٤	٢٣٣
﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	٢٣	٢٧٠

الآية	رقمها	الصفحة
سورة محمد		
﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾	١٨	١٣٦
سورة الحجرات		
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ﴾	١٣	٣٠٣
سورة الذاريات		
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	٥٦	١١٩، ٢٢٩
سورة الطور		
﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾	٣٤	١٨٣
سورة النجم		
﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾	٢٣	٢١٩
﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾	٤٥	٣٠٠
سورة الرحمن		
﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾	١	٣١٩
سورة الحديد		
﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾	١٥	١٧٠
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾	٢٧	٢٥٢

الآية	رقمها	الصفحة
سورة المجادلة		
﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾	٢٠	١٠٢
سورة الحشر		
﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾	١	١٢٤
﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً﴾	٥	٨٦
﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾	٧	١٠٨
سورة الممتحنة		
﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾	١٠	١٠١
سورة الصف		
﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾	٥	٢٥٠
سورة الجمعة		
﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾	٢	١٠٧
سورة التغابن		
﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾	٩	٢٤٩
﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾	١١	٢٤٩
﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾	١٥	٢٣٦

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾	١٦	٢١٦
سورة الطلاق		
﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾	٧	٥٣، ٥٥
سورة التحريم		
﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾	١٢	١٠٦
سورة الملك		
﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾	١٥	١٥٠، ١٥٣
﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾	٢٣	١٩٥
سورة المعارج		
﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾	١٩	٢١٦
﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾	٣٥	٣٣٧
سورة الجن		
﴿وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقاً﴾	١٦	٢٧١
سورة المزمل		
﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾	٧	٢٢٩
﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَٰهِداً عَلَيْكُمْ﴾	١٤	١٠٨

الآية	رقمها	الصفحة
سورة المدثر		
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾	١	١٧٤
سورة النبأ		
﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾	٩	٩٦
﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾	١٣	٩٧
سورة عبس		
﴿قُتِلَ ٱلإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾	١٧	١٨٦
سورة الانفطار		
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾	٦	٣١٧
سورة المطففين		
﴿كَلاَّ بَلْ رَّانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾	١٤	٢٥٦
سورة الأعلى		
﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلأَعْلَى﴾	١	٩٢، ١٢٤
﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَىٰٓ﴾	٦	١٢٦
سورة الفجر		
﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾	٢٢	٢٢٣، ٢٣٦

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾	١٦	٢٨٩، ٣٢٠
سورة التين		
﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾	١	٢٠٣، ١٥٤
﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾	٤	٢٠٢، ٢٠٣
﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾	٥	١٥٥
سورة العلق		
﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾	١	١٧٥، ١٧٧
﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾	٥	٣١٨
﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾	١٠	١١٩

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة
أجرك على قدر نصبك	١٥٧
أخاف عليكم أن تنافسوا فيها	٢٣٦
إن الصدق يهدي إلى البر	٢٥٥
إن الله تعالى: ليملي للظالم؛ حتى إذا أخذه لم يفلته	٢٦٧
إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب	٢٥٤
إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه	٢٥٥
إن النبي ﷺ لقي ركبا	٢١٦
إنما كان يكفيك أن تقول بيديك هكذا	٣٩
أنه بات عند نبي الله ﷺ ذاتَ ليلة	٢٩٣
إنهما ليعذبان وما يعذبان من كبير	٣٤٥
إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية	٣٣٢
بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا	٣٤١
تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق	٣٤٦
رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ	٢٢٧
عبدي قم إلى أمش إليك	٢٥٨
العجب إن ناسا من أمتي يؤمون بالبيت	٢٦٦
إن النبي ﷺ كان يحتجر حصيرا	١٨٤
فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل عليه السلام أجود بالخير	١٦٥
لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب	٢٧٢
لما فتحت قبرص فُرِّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض	٢٧١

الحديث	الصفحة
ليصيبن أقواما سفع من النار، بذنوب أصابوها................	١٤٧
ما من ملب يلبي، إلا لبى، ما عن يمينه وشماله........	٢٩٢
ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب	٣٤٣
مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع	٢٢٧
من القوم قالوا المسلمون	٢٢٦
من تقرب مني شبرا	٢٥٨
الموت كفارة لكل مسلم........	٣٤٤
هذا جبل يحبنا ونحبه	٢٩٢
واستحللتم فروجهن	١٠٦
يا عائشة وما يؤمنني؟ قد رأى قوم عاد العذاب عارضا مستقبل أوديتهم........	٢٧٠
يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله	٢٩٢
يا ابن آدم قم إلي أمش إليك........	٢٥٨

فهرس الأبيات الشعرية

الشطر الأول	الشطر الثاني	الصفحة
أمرتــك أمــرا جازمــا فعصــيتني	فأصبحت مسلوب الإمارة نادما	٨٠
تولـــع بالعشـــق حتـــى عشـــق	فلمـــا اســتقل بــه لــم يطــق	٢٦١
رأى لجـــة ظنهـــا موجـــة	فلمـــا تمكـــن منهـــا غـــرق	٢٦١
فأصبحت مثل النسر طارت فراخه	إذا رام تطيـــارا يقـــال لـــه: قـــع	٣٩
فحي على جنات عدن فإنها...	منازلــك الأولــى وفيهــا المخــيم	٣٣٧
فقمنـــا ولمـــا يصـــح ديكنـــا	إلـــى جونـــة عنـــد حـــدادها	٣٠٥
قد كلف الصبي لدى الذي اعتمي	بغـــير مـــا وجـــب والمحـــرم	٢٢٦
قـــوم فعلُـــوا خيـــرا فعلَـــوْا	وعلـــى الـــدرج الأعلـــى درجـــوا	٣٢٠
لقـــد نســيته والنســيان مغتفـــر	وإن أول نـــــاس أول النـــــاس	١٢٥
مـــا النـــاس ســـوى قـــوم عرفـــو	ك وغيـــرهم همـــج همـــج	٣٢٠
ما كان أَجملَ عهدَهم وفعالَهم!	من لي بعهدٍ في الهناءِ تصَرّما؟	٣٣
والنقص في أصل الطبيعة كامن...	فبنـــو الطبيعـــة نقصـــهم لا يجحـــد	٢١٥
وقابلهـــا الـــريح فـــي دنهـــا...	وصـــلى علـــى دنهـــا وارتســـم	١٢٧
ولكننـــا ســـبي العـــدو فهـــل تـــرى	نعـــود إلـــى أوطاننـــا ونســـلم	٣٣٧
يـــا عـــاذلي والأمـــر فـــي يـــده	هـــلا عـــذلت وفـــي يـــدي الأمـــر	٢٦١
يـــا مـــدعيا لطـــريقهم	قـــوم فطريقـــك منـــعرج	٣٢٠

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١١
أسباب البحث	١٦
أولاً: أسباب موضوعية	١٦
ثانياً: أسباب واقعية	١٧
أهداف البحث	١٨
الدراسات السابقة	١٨
صعوبات البحث	٢٠
صعوبات متعلقة بطبيعة البحث	٢٠
منهج البحث	٢١
الفصل الأول: دلالات التكوين والتكليف	٢٥
المبحث الأول: دلالات التكوين	٢٩
المطلب الأول: الدلالات اللغوية للتكوين	٣٢
المطلب الثاني: مصطلح التكوين في القرآن الكريم	٣٤
الفرع الأول: مادة (ك و ن) في القرآن الكريم	٣٤
الفرع الثاني: آيات التكوين	٣٦
الفرع الثالث: تعليق على الآيات	٣٨
المطلب الثالث: دلالات التكوين الاصطلاحية	٤٣
المبحث الثاني: دلالات التكليف	٤٧
المطلب الأول: الدلالات اللغوية للتكليف	٥٠
المطلب الثاني: مصطلح التكليف في القرآن الكريم	٥٢

الموضوع	الصفحة
الفرع الأول: الآيات المتضمنة لمصطلح التكليف	٥٢
الفرع الثاني: تعليق على الآيات	٥٣
المطلب الثالث :الدلالات الاصطلاحية (للتكليف)	٥٧
الفصل الثاني: الفرقان بين مفاهيم التكوين والتكليف في القرآن ...	٦١
المبحث الأول: أفعال الله المتعلقة بإرادته وأمره وإذنه	٦٥
المطلب الأول: الإرادة التكوينية والإرادة التكليفية	٦٧
الفرع الأول: الإرادة في اللغة والاصطلاح	٦٧
الفرع الثاني: الإرادة بين أهل السنة والمعتزلة	٦٧
الفرع الثالث: الإرادة التكوينية	٧٠
الفرع الرابع: الإرادة التكليفية	٧٣
المطلب الثاني: الأمر التكويني والأمر التكليفي	٧٥
الأمر التكويني والتكليفي المستفاد من الصيغة	٧٦
المطلب الثالث: الإذن التكويني والإذن التكليفي	٨٣
الفرع الأول: الإذن التكويني	٨٣
الفرع الثاني: الإذن التكليفي	٨٤
الفرع الثالث: أساليب القرآن في التعبير عن الإذنين	٨٥
الفرع الرابع: أثر الاختلاف في حقيقة الإذن في اختلاف الفقهاء	٨٦
المبحث الثاني: أفعال الله المتعلقة بالقدر والهداية وغيرهما	٨٩
المطلب الأول: الهداية والإضلال التكوينيان والتكليفيان	٩١
الفرع الأول: الهداية التكوينية والهداية التكليفية	٩١
الفرع الثاني: الإضلال التكويني والتكليفي	٩٣
المطلب الثالث: التحريم والجعل	٩٥

الموضوع	الصفحة

الفرع الأول: التحريم التكويني والتحريم التكليفي..........	٩٥
الفرع الثاني: الجعل التكويني والجعل التكليفي	٩٦
المطلب الثاني: القضاء والحكم والكتابة	٩٩
الفرع الأول: القضاء التكويني والتكليفي..........	٩٩
الفرع الثاني: الحكم التكويني والحكم التكليفي	١٠٠
الفرع الثالث: الكتابة التكوينية والكتابة التكليفية	١٠٢
المطلب الرابع: الآيات والكلمات والبعث والإرسال والإيتاء..........	١٠٤
الفرع الأول: الآيات التكوينية والآيات التكليفية	١٠٤
الفرع الثاني: الكلمات التكوينية والكلمات التكليفية..........	١٠٥
الفرع الثالث: البعث التكويني والبعث التكليفي..........	١٠٦
الفرع الرابع: الإرسال التكويني والإرسال التكليفي..........	١٠٧
الفرع الخامس: الإيتاء التكويني والإيتاء التكليفي..........	١٠٨
الفرع السادس: الوحي التكويني والوحي التكليفي..........	١٠٩
المبحث الثالث: المصطلحات المتعلقة بأفعال المخلوقات..........	١١١
المطلب الأول: الإسلام التكويني والإسلام التكليفي..........	١١٤
المطلب الثاني: العبودية التكوينية والعبودية التكليفية..........	١١٧
الفرع الأول: العبودية في اللغة..........	١١٧
الفرع الثاني: العبودية التكوينية	١١٧
الفرع الثالث: العبودية التكليفية	١١٨
الفرع الرابع: أسلوب القرآن في التعبير عن العبوديتين	١١٩
المطلب الثالث: الطاعة والتسبيح والنسيان	١٢١
الفرع الأول: الطاعة..........	١٢١

الموضوع	الصفحة
الفرع الثاني: التسبيح التكويني والتسبيح التكليفي	١٢٣
الفرع الثالث: النسيان التكويني والنسيان التكليفي	١٢٤
المطلب الرابع: الصلاة والسجود والقنوت والخشية........................	١٢٧
الفرع الأول: الصلاة التكوينية والصلاة التكليفية	١٢٧
الفرع الثاني: السجود التكويني والسجود التكليفي........................	١٢٨
الفرع الثالث: القنوت التكويني والقنوت التكليفي	١٣٠
الفرع الرابع: الخشية التكوينية والخشية التكليفية	١٣١
خاتمة واستنتاجات الفصل........................	١٣٣
الفصل الثالث: العلاقات بين التكوين والتكليف	١٣٩
تمهيد	١٤١
المبحث الأول: علاقة التناسق والانسجام (التناسبية)........................	١٤٧
المطلب الأول: التكوين والتكليف من مصدر واحد	١٤٩
المطلب الثاني: انسجام التكليف مع تكوين الإنسان قدرةً وطبيعةً........................	١٥٦
الفرع الأول: انسجام التكليف مع تكوين الإنسان في قدرته........................	١٥٦
الفرع الثاني: انسجام التكليف مع تكوين الإنسان في طبيعته	١٥٩
المطلب الثالث: الانسجام والتناسق بين موارد التكليف وموارد التكوين	١٦٣
المبحث الثاني: علاقة الاستدلال (العلاقة الاستدلالية)	١٧١
المطلب الأول: التمهيد للتكاليف بالأدلة التكوينية........................	١٧٤
عدم انحصار الاستدلال على التكاليف العقدية	١٧٦
المطلب الثاني: خصائص الأدلة التكوينية وطرق الاستدلال بها على التكليف	١٨٢
أولاً: أدلة مخاطبة للعقل والوجدان........................	١٨٢
ثانياً: أدلة تكوينية مغياة بإنشاء عقيدة تتجسد في أعمال تكليفية	١٨٤

الموضوع **الصفحة**

ثالثاً: أدلة تكوينية واضحة تنطلق من واقع الإنسان ١٨٥
رابعاً: ربط الواجب التكليفي بأدلة تكوينية متعددة ١٨٧
خامساً: التنويع في صيغ الأدلة التكوينية ١٨٨
سادساً: التنويع في أساليب الأدلة التكوينية ١٨٩
سابعاً: تناسق الدليل التكويني مع التكليف المستدل له ١٩٣
المطلب الثالث: الاستدلال على التكليف بالتكوين الفطري للإنسان ١٩٤
المطلب الرابع: استنباط الأحكام التكليفية من الآيات التكوينية واستفادة الحقائق التكوينية من الأحكام التكليفية........... ١٩٩
أولاً: استنباط الأحكام التكليفية من الآيات التكوينية ١٩٩
ثانياً: استفادة الحقائق التكوينية في آيات الأحكام التكليفية ٢٠٣
خلاصة المبحث........... ٢٠٥
المبحث الثالث :علاقة التكامل والتوازن (العلاقة التكاملية)........... ٢٠٧
المطلب الأول: التكامل في التكوين والتكليف........... ٢١١
المطلب الثاني: التكامل بين تكوين الإنسان وتكليفه........... ٢١٥
الفرع الأول: التكامل بين التكوين والتكليف في ضبط القوة الغضبية ٢١٨
الفرع الثاني: التكامل بين التكوين والتكليف في ضبط القوة الجنسية ٢٢٠
الفرع الثالث: تكامل التكوين والتكليف في ضبط القوة التملكية........... ٢٢٣
المطلب الثالث: التوازن بين التكوين والتكليف........... ٢٢٥
الفرع الأول: توجه التكليف للإنسان على التدرج متوازنا مع تدرج تكوينه ٢٢٥
الفرع الثاني: توازن التكليف شدة وتخفيفا مع تكوين الإنسان........... ٢٢٨
الفرع الثالث: التوازن بين ما جعله الله في فطرة الإنسان وتكوينه، وبينما جعله في أمره وتكليفه........... ٢٣١

الموضوع	الصفحة
خاتمة المبحث	٢٣٨
المبحث الرابع: علاقة والثواب العقاب (العلاقة السببية)	٢٣٩
المطلب الأول: الجزاء التكويني المعنوي	٢٤٢
الفرع الأول: آية وأقوال المفسرين فيها	٢٤٣
الفرع الثاني: تعليق على التفسيرات	٢٤٥
الفرع الثالث: الآيات المطلقة	٢٤٧
الفرع الرابع: إثابة الطائعين بالهداية التكوينية وعقاب الفاسقين بالضلال التكويني	٢٤٨
الفرع الخامس: نماذج مما جاء في نفي ثواب الهداية عمن لا يستحقه	٢٥١
الفرع السادس: آيات أخرى مؤكدة	٢٥٢
الفرع السابع: الدليل من السنة النبوية	٢٥٤
الفرع الثامن: الدليل الواقعي المشاهد	٢٥٦
الفرع التاسع: فما أمر الحسنة الأولى؟	٢٥٧
المطلب الثاني: الجزاء التكويني المادي	٢٦٣
الفرع الأول: علاقة الجزاء التكويني المادي بالتكليف ودليل ذلك	٢٦٤
الفرع الثاني: أقسام الجزاء التكويني المادي	٢٧٠
الفرع الثالث: متى تقع العقوبة التكوينية	٢٧١
خاتمة الفصل	٢٧٥
الفصل الرابع: آثار العلاقة بين التكوين والتكليف	٢٧٧
المبحث الأول: أثر طبيعة العلاقة بين التكوين والتكليف في علاقة المكلف بالمكون	٢٨١
المطلب الأول: آثار الفصل بين التكوين والتكليف في تصور الكون والتعامل معه	٢٨٤
المطلب الثاني: آثار الوصل بين التكوين والتكليف في تصور الكون	٢٩٠
المبحث الثاني: أثر الربط بين التكوين والتكليف في حفظ الأسرة	٢٩٧

الموضوع	الصفحة
المطلب الأول: خطاب التكوين المتعلق بالأسرة في الفقرآن الكريم............	٣٠٠
المطلب الثاني: خطاب التكليف المتعلق بالأسرة وارتباطه بتكوينها	٣٠٤
المطلب الثالث: أثر الفصل بين التكليف والتكوين، على الأسرة..............	٣٠٧
المبحث الثالث: أثر علاقة التكليف والتكوين في حفظ إنسانية الإنسان..........	٣١٣
المطلب الأول: ماهو الإنسان في الإنسان..............................	٣١٥
المطلب الثاني: أثر الربط بين التكوين والتكليف في حفظ كرامة الإنسان	٣١٧
المبحث الرابع: أثر ربط التكوين بالتكليف في حفظ كرامة المرأة...............	٣٢٥
المطلب الأول: المرأة في خطاب التكوين..............................	٣٢٧
المطلب الثاني: آثار الفصل بين التكوين والتكليف في إهانة المرأة	٣٢٩
المطلب الثالث: أثار الوصل بين التكوين والتكليف في حفظ كرامة المرأة	٣٣٢
المبحث الخامس: أثر التكوين والتكليف في تزكية العبد والعودة به إلى ربه طيبا طاهرا	٣٣٥
المطلب الأول: التزكية التكليفية.....................................	٣٣٩
المطلب الثاني: التزكية التكوينية....................................	٣٤٣
الخاتمة..	٣٤٩
جريدة المصادر والمراجع مرتبة على حروف المعجم............	٣٥٧
فهرس الآيات القرآنية...	٣٨٠
فهرس الأحاديث النبوية	٣٩٩
فهرس الأبيات الشعرية	٤٠١
فهرس الموضوعات	٤٠٢

daralraheen.jo
daralraheen
daralraheen
+9613602762
+962790474491

دار الرياحين
daralraheen@gmail.com
@ darlrayaheen.jo@gmail.com

ISBN : 978-9923-762-94-3
978-9923-762-94-3